وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء

في العصر العباسي

دراسة فنية

تأليف

الدكتورة رونالد توفيق علي النورسي

الأستاذ المساعد بجامعة بغداد



Title: WAṢĀYĀ AL-ʾUDABĀʾ WAL-ḪULAFĀʾ WAL-ḤUKAMAʾ FĪ AL- ʿAṢR AL- ʿABBĀSI

(The legatees during Abbassid era
An artistic study)

classification: *Literature*

Author: Dr.Ronak Tawfik Ali al-Nourasy

Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Pages: 312

Year: 2007

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي

التصنيف: أدب

المؤلف: د. روناك توفيق علي النورسي

الناشر: دار الكتب العلميــة – بيروت

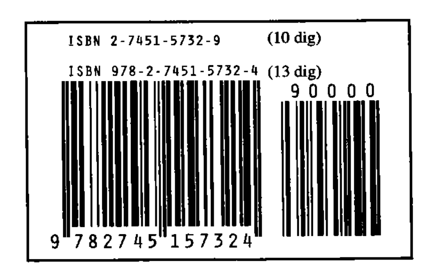
عدد الصفحات: 312

سنة الطباعة: 2007

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى

هذا الكتاب بالأصل رسالة تقدمت بها المؤلفة تحت عنوان «الوصايا الأدبية في العصر العباسي-دراسة فنية» لنيل شهادة دكتوراه فلسفة في اللغة العربية وآدابها من الجامعة المستنصرية ببغداد، سنة ١٩٩٦. تحت إشراف الأستاذة الدكتورة هند حسين طه


ISBN 2-7451-5732-9 (10 dig)
ISBN 978-2-7451-5732-4 (13 dig)
90000
9 782745 157324





أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان




الطبعة الأولى
٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax:+961 5 804813
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون ، القبة،
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

حفل الأدب العربي بألوان كثيرة من الفنون، حظي بعضها بعناية الباحثين جيلاً من بعد جيل حتىٰ استقر لها منهج يكاد يكون مطرداً بعد أن توافر في أيدي هؤلاء الباحثين مادة تقرب من الإحاطة، وهكذا رأينا دراسات متراكمة من فنون المديح والهجاء والغزل والرثاء والوصف... غير أن «مجالات» أخرىٰ لم تحظ بهذه العناية، أو لعلها حظيت بشيء من اللَّفْتِ السريع أو الإشارة الجزئية؛ من هذه المجالات ما تقدمه لنا الباحثة المتعمقة الدكتورة روناك توفيق في كتابها هذا الذي بين يديك.

والحق أن فنّ «الوصايا» ليس مقصوراً علىٰ الأدب العربي؛ بل نعرف له نظائر في آداب الأمم الأخرىٰ؛ لأنه يتصل بحياة الإنسان بوصفه كائناً اجتماعياً لا ينفك عن «التواصل» حيث كان. علىٰ أن هذا «الفن» يكتسب في الأدب العربي سمات خاصة قد تميزه عن غيره من الآداب، لاتصاله ببيئة «القبيلة» من ناحية، ثم بتأثير العوامل الاجتماعية والتأريخية من ناحية أخرىٰ وأهمها العامل الديني الذي جعل من فكرة «الوصية» المجردة «شعيرة» تقترب من «الفرائض» المفروضة.

و«الوصايا» مجال واسع يمكن درسُه من زوايا مختلفة؛ تاريخية، واجتماعية، ولغوية، غير أن الدكتورة روناك توفيق توفرت علىٰ درسها درساً أدبياً وفنياً؛ فنهضت أولاً علىٰ جمع مادة وافرة أتاحت لها «الإحاطة» بهذا الفن ومَكنتها من تصنيف الوصايا وفق «سياقاتها» المتنوعة؛ من وصايا سياسية

ومهنية وأخرىٰ دينية وخلقية وثالثة وصايا أدبية إلىٰ غير ذلك من أنواع.

وبعض هذه «الوصايا» جديد في «بابه» وبخاصة تلك التي تتصل بوصايا «البخلاء» ووصايا «الطفيليين» مما يقدم لنا صورة واقعية عن طوائف معينة من السلوك البشري الطبيعي في العصر العباسي.

وقد أخضعت المؤلفة هذه المادة كلها للتحليل الفني فأبرزت ـ ربما لأول مرة ـ الصور الفنية لأدب الوصايا في العصر العباسي مما يقدم نمطاً جديداً من التحليل يبتعد عن الدرس «التقليدي» فيما أشرنا إليه.

والكتاب كله جهد عظيم، وصبر واضح علىٰ التقصي، وقدرة على التحليل، ونحن على يقين أنه يسد فجوة في الدرس الأدبي ظلت مهملة فترة طويلة من الزمان.

عبده الراجحي

الأستاذ بجامعة الإسكندرية

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

انطلقت في دراسة الوصايا في الأدب العباسي من زاوية مهمة جداً، وجعلتها محوراً لهذا البحث، وهي أن الوصايا لون من ألوان النثر... ومن هذا المنطلق فقد حاولت التركيز على دراسة الوصايا في جميع المراحل الزمنية التي شملها هذا البحث، وهي حقبة طويلة امتدت إلى خمسة قرون، اتسعت فيها موضوعات الوصايا لسعة الحياة نفسها في هذا العصر.

ويبدو أن الوصايا في النثر العربي القديم، لم تنل نصيباً تستحقه من الدراسة والتحليل، مما يعني إهمالاً لإبداعات متميزة في مجال النثر... ومن هنا جاءت التفاتتي إلى هذا الموضوع، بعد تتبعي واستقرائي له، وزاد حماسي في دراسته كثرة ما وقفت عليه من وصايا، اهتمت بالجوانب الأدبية المتضمنة للوصايا الدينية والإنسانية والاجتماعية والأخلاقية.

ولعل النظرة العجلى لكلمة وصية عند البعض، تعني وصية الإنسان المشرف على الموت أو ما اصطلح عليه بالوصية الشرعية... والحق أن دراستنا لموضوع الوصايا شملت وصايا الأدباء في كل ما عهد به الموصي إلى المتلقي بأسلوب الخطاب المباشر، ووفق المعايير التي تميزت بها الوصايا في اعتمادها على أسلوب الأمر والنهي والتحذير.

أما خطة البحث ومنهجه، فقد انتظمت في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول.

تعرَّض التمهيد إلى مفهوم الوصية، لغةً واصطلاحاً، موضحاً مفهوم الوصية الشرعية والوصية الأدبية، ومبيِّناً الفرق بين الوصية والخطبة، لما لهما من أوجه المشابهة والاختلاف، ثم تعرض لصفات الموصي، وختم بنبذة مختصرة عن الوصايا في العصرين الجاهلي والإسلامي، لبيان تواصل هذا الفن وامتداده عبر العصور التاريخية.

أما **الفصل الأول**: فقد خصص لدراسة الوصايا وأنواعها، حيث تم تقسيمه إلى مدخل وثلاثة مباحث:

أولاً: **(الوصايا نمط أدبي مستقل)** ومنها: الوصايا السياسية، والمهنية، وتشمل وصايا الخلفاء لولاة العهد من بعدهم، والوصايا الحربية، ووصايا الوزراء والحجاب، ثم الوصايا الدينية والأخلاقية، وتشمل وصايا الوعاظ والمتصوفين والحكماء والآباء للأبناء، أما الوصايا الأدبية فقد شملت وصايا الخلفاء لمؤدبي أولادهم، ووصايا العلماء والبلغاء، والوصايا الإخوانية والفنية.

ثانياً: **(الوصايا والأنماط الأدبية الأخرى)** ومن أنواعها: الوصايا والرسائل والخطب، والعهود والمقامات.

ثالثاً: **(وصايا أخرى في موضوعات متفرقة)** ومن أنواعها: وصايا الطفيليين، ووصايا البخلاء، والمسافرين، ووصايا أخرى.

وأما **الفصل الثاني**: فقد تناولت فيه التطور والتجديد في الموضوعات، فكانت أدبية ودينية وسياسية وحربية وإدارية وتعليمية وأخلاقية، فيما تَناولتْ معانيها الحث على الفضائل وتوجيه السلوك وتقويمه، وسعت إلى تنظيم العلاقات الاجتماعية، وأوضحتُ في هذا الفصل بناءها اللغوي والفاظها، وعرضت لأسلوبها من خلال العلاقة بين الألفاظ والمعاني، وتفاوت الأساليب بين منشىء وآخر، وبينت أن منها ما هو تقريري أو تعبيري أو خطابي أو إنشاء طلبي.

ثم كان **الفصل الثالث**: الذي تناول الخصائص الفنية، وقد تمت دراسته في مبحثين:

عالج **المبحث الأول** الخصائص الشكلية التي تضمنت سهولة الألفاظ وسلالتها، كما تضمنت الإيجاز والإطناب، واعتمدت الاقتباس والتضمين.

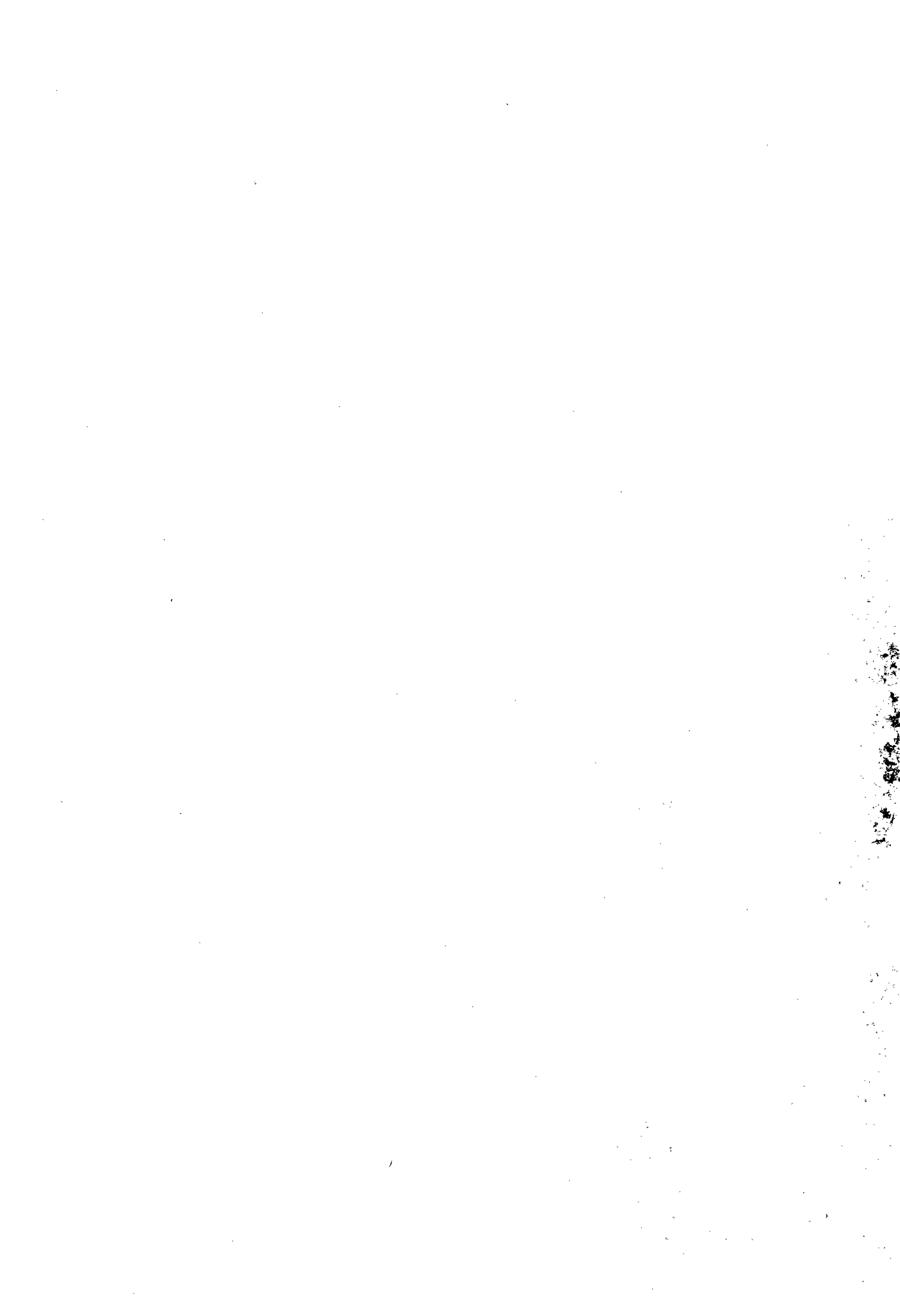
وعالج **المبحث الثاني**: الخصائص المعنوية التي شملت حرارة العاطفة وصدق الإحساس، وتسلسل الأفكار وتشخيصها وتجسيدها، وتميزها بالإيقاع والتنغيم الصوتي من خلال السجع والتوازن والترادف والجناس، والمقابلة والتضاد والتكرار.

أما **الخاتمة**: فقد كانت نهاية المطاف، وقفنا فيها على أهم النتائج التي توصلنا إليها في رحلتنا الطويلة الشاقة.

لقد درست موضوع الوصايا الأدبية المستقلة والمتضمنة بشكل تفصيلي، ومضيت معه في رحلة شاقة مضنية، صادفتني فيها مصاعب جمة، منها تناثر الوصايا في كتب التراث والأدب والتاريخ، وعدم وجود فهرسة لها في قائمة الموضوعات، مما يصعب رصدها بسهولة، إضافة إلى غزارة المادة النثرية للوصايا في أنواعها المتعددة، وطول الحقبة التي التزمت بدراستها، ومن أجل ذلك تتبعت كتب التراث والأدب وقمت باستقرائها ونهل ما يصلح منها لمادة بحثي، وعانيت كثيراً من تقارب معاني الوصايا، وتداخل بعضها ببعض، فهي إما متشابهة أو مكررة مما جعل النص أحياناً متضمناً لأكثر من معنى، وذلك أدى إلى صعوبة تنظيم المادة، واختيار المناسب لمباحثي، والاختيار (كما نعلم: قطعة من العقل).

أما **مصادر البحث**: فقد تعددت مع تعدد موضوعاته، فكانت أدبية، وتاريخية، وأخلاقية، ووعظية، وصوفية وغيرها.

ومع كل ما بذلت من جهد، فإنني أحس أنه ما زال هناك بعض الجوانب التي تحتاج إلى مزيد من عناية الدارسين وجهد الباحثين، وإني لأرجو أن أكون قد وفقت في رسم صورة واضحة عن الوصايا الأدبية في هذه الحقبة المحددة لبحثي، وأخيراً أرجو من الله العون والتوفيق والسداد للقيام بدراسات أخرى في ميدان الأدب العربي والعباسي منه خاصة.



التمهيد

أ ــ مفهوم الوصية لغة واصطلاحاً.

ب ــ الوصية في الشرع.

جـ ــ الوصية الأدبية.

د ــ الفرق بين الخطبة والوصية.

هـ ــ صفات الموصي.

و ــ نبذة عن الوصايا في العصرين الجاهلي والإسلامي.



التمهيد

أ ــ مفهوم الوصية لغة واصطلاحاً:

(وصى) الواو والصاد والحرف المعتل أصل يدلُّ على وَصلِ شيء بشيء، ووَصيتُ الشَّيء: وصَلْتُه. ويقال: وطِئْنا أرضاً واصيةً، أي إنَّ نبتها مُتصلٌ قد امتلأت منه[1].

والاسم: الوَصاةَ، والوصَايةَ والوصيَّةُ وهو الموصى به أيضاً. ويوصيكم الله: أي يفرض عليكم، وقوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾[2] أي: أوصى به أولهم آخرهم، والوصاةُ والوَصيَّةُ جَريدةُ النَّخلِ يُحزَمُ بها، ووصَّى ويَوَصَّى طائرٌ[3].

وتأتي الوصية في اللغة بمعنى العهد، يقال: أوصى الرجل ووصاه أي عهد إليه[4]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾[6].

وسميت الوصية وصية لاتصالها بأمر الميت، والوصي: الذي يوصي والذي يوصى له، وهو من الأضداد، والأنثى وصي، وجمعها جميعاً أوصياء، ومن العرب من لا يثني الوصي ولا يجمعه[7].

ب ــ الوصية في الشرع:

هي «عهد خاص مضاف إلى ما بعد الموت»[8]، أو «تمليك مضاف لما

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ابن فارس ٦/ ١١٦.
(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٣.
(٣) القاموس المحيط: الفيروز آبادي ٤/ ٤٠٠.
(٤) لسان العرب: ابن منظور ٦/ ١٥٥، وينظر العين: الفراهيدي، مادة: عهد.
(٥) سورة الذاريات: الآية ٥٣.
(٦) سورة يٰس: الآية ٦٠.
(٧) لسان العرب: ٦/ ١٥٥.
(٨) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سير الأخيار: الشوكاني ٦/ ١٤٢.

بعد الموت عيناً كان أو ديناً»[١]، أو «الأمر بالتصرف بعد الموت»[٢].

نلاحظ من هذه التعريفات أن الوصية الشرعية قرنت بالموت وتصور الجانب المالي الموروث عن المتوفي. . . فهي «وصية الأموات للأحياء عند الموت بحق يجب عليهم أداؤه، ودين يجب عليهم قضاءه»[٣].

والوصايا الشرعية ملزمة واجبة التنفيذ، ألزم الله سبحانه وتعالى عباده بها، وأوجب عليهم أمراً[٤]، من ذلك قوله عز وجل في ضرورة الالتزام بالوصايا وتنفيذها لمن وجهت إليهم:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾[٥].

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾[٦].

﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾[٧].

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[٨].

وللوصية الشرعية أدلة تعتمد على الكتاب والسنَّة والإجماع. . . ومما جاء في الكتاب العزيز قوله تعالى في مشروعية الوصية ووجوب إلزامها:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾[٩].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ

---

(١) حاشية رد المحتار على الدر المختار: محمد أمين بن عابدين ٦/ ٦٤٨ (كتاب الوصايا).
(٢) كشاف القناع عن متن الإقناع: منصور بن يونس بن إدريس ٤/ ٣٣٠.
(٣) لباب الآداب: أسامة بن منقذ، باب الوصايا ١.
(٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي ٩/ ٣٦٢.
(٥) سورة الأحقاف: الآية ٥١.
(٦) سورة النساء: الآية ١١.
(٧) سورة مريم: الآية ٣١.
(٨) سورة البقرة: الآية ١٣٢.
(٩) سورة البقرة: الآية ١٨٠.

﴿ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[١].

ومن أدلة مشروعية الوصية في السنَّة النبويَّة الشريفة، ما جاء في حديث مرفوع إلى عبد الله بن عمر: أن الرسول ﷺ قال: «**ما حق امرىء مسلم أن يبيت ليلتين وله شيء يريد أن يوصي فيه إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه**»[٢].

أما الإجماع فيأتي باتفاق أغلب الفقهاء على جواز الوصية ومشروعيتها، واختلفوا في حكمها من حيث التنفيذ أو الترك، فيرى جمهور من الفقهاء أنها واجبة التنفيذ، فيما يرى آخرون أنها مستحبة، أما غالبية الفقهاء فترى أنها ليست واجباً ولا فرضاً، ويختلف حكمها باختلاف الأحوال[٣].

ولعل أول من اهتدى من القدماء إلى تعريف الوصية الميراثية، صاحب كتاب لباب الآداب، أسامة بن منقذ، عندما عقد باباً خاصاً للوصايا في كتابه جاء فيه:

«**الوصية وصيتان: وصية الأحياء للأحياء، وهي أدب وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتحذير من زلل، وتبصرة بصالح عمل. ووصية الأموات للأحياء عند الموت بحق يجب عليهم إداؤه ودين يجب عليهم قضاؤه**»[٤].

وهو بهذا التعريف الموجز يوضح لنا الفرق بين الوصايا، فيرى أن الوصية وصيتان، الأولى: الوصية الأخلاقية، والثانية: الوصية الميراثية، إن صح التعبير.

جـ ــ الوصية الأدبية:

أما الوصية الأدبية، فهي ما يشمل الشعر والنثر على السواء، أو الاثنين معاً، ويتحدد لنا أسلوبها المميز بمجموعة من الأوامر والنواهي مضمنة الوعظ

---

(١) سورة المائدة: الآية ١٠٦.

(٢) صحيح مسلم: ٥/ ٧٠.

(٣) ينظر سبل الإسلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، محمد بن إسماعيل الصنعاني ٣/ ١٢.

(٤) لباب الآداب: باب الوصايا ١.

والإرشاد والتوجيه، وهو ما يميز أسلوب الوصايا الأدبية وغيرها.

أما الوصية الثانية: فهي وصية الأموات للأحياء عند الموت، يقولها من شارف على الموت أو أحسَّ بدنو أجله، وهي الوصايا الشرعية التي أمرنا الله تعالى بها في محكم كتابه المبين والتي تخص الإرث والتوريث بعد الموت.

ومن الباحثين من يعرِّف الوصية الأدبية بأنها: «نوع من الأدب، غايته التوجيه والإرشاد، والحث على اكتساب المحامد، أو التبصير بحسن السياسة، أو الدعوة إلى مكارم الأخلاق»[(١)].

ومنهم من يرى أن هناك أنواعاً من الوصايا، منها ما ورد في القرآن الكريم، وهي وصية الشخص المشرف على الموت أو التي تسمى: بالوصية الشرعية، وهي التي يتوجب على الموصى إليهم تنفيذها لما لها من حرمة كبيرة[(٢)].

ونوع آخر حفلت به كتب الأدب يمكن تسميتها بالوصية الأدبية، تتميز بالأسلوب البليغ، غرضها العبرة والاتعاظ والدعوة إلى اجتناب المزالق، وهي التي تتكوَّن من «مجموعة من النصائح مستندة على تجارب نمَّاها الشخص الموصي، وهي واقعية عملية بطبيعتها، وتتعلق بمسائل خاصة أكثر من المسائل العامة»[(٣)].

وهناك من عرَّف الوصية الأدبية بأنها نوع من الأدب الحيّ الرفيع المنزلة. مضمونها يحتوي على طاقة إنسانية تتكوَّن في الموصي عبر الأيام والأعوام، ينقلها عبر كلمات قليلة في فقرات محدودة... فيها نبض وحركة تمثل عصارة تجاربه في الحياة... في نجاحه وإخفاقه وفي أفراحه وأحزانه، وهي بمعنى آخر نقل ذاته إلى غيره... أي أنه يريد لشخصيته شخصية جديدة وملامح

---

(١) أساليب النثر الفني: لطيف محمد العكام، باب الوصايا ١٠٥.
(٢) ينظر الجذور التاريخية للوزارة العباسية: د. فاروق عمر فوزي ٢٠٥.
(٣) المصدر نفسه.

جديدة غايته عرض عناصر الخير وتقويتها ومجانبة الشر ومعالجته[١].

أو هي بعبارة أدق «الثمرة الفكرية التي يكتسبها الفرد في تجاربه في حياته اليومية، ومن تفاعل هذه التجارب مع بيئته ومجتمعه، وهي كالحكمة ولعلها تتكوَّن من الحِكم والأمثال»[٢].

ولما كانت الوصية الأدبية تنحو في إنشائها منحى التوجيه والإرشاد، فهي لذلك تُعدُّ لوناً من ألوان النقد الاجتماعي الذي يسعى من خلالها الموصي إلى إبعاد المجتمع من حياة الرذيلة إلى حياة الفضيلة، وإعطاء صورة للنموذج الإنساني لما تحمله من قيم ومبادىء أخلاقية سامية ودلالات نفسية وفكرية... فهي بحق «سجل صادق لأنماط العلاقات الأسرية والاجتماعية»[٣].

وتعدّ الحياة بيئة الوصية وأرضها الخصبة، فيها تنمو مشاعر الموصي وأحاسيسه حتى إذا استقرت في ذهنه أطلقها توجيهات وإرشادات تكشف عن هذه الحياة دون تزويق أو تنميق إلا ما جاء عفو الخاطر... لذلك عمد الموصون بها إلى بساطة الشكل ليتسنى لها الذيوع والانتشار. ولا نعني بهذه البساطة سذاجة الفكرة وسطحية القيمة الفنية، فالوصية مشبعة بالدلالات والصور التي تضرب بجذورها في أعماق الفكر الإنساني.

د ـ الفرق بين الخطبة والوصية:

الوصايا كالخطب في جميع مقوماتها الكلامية، بل هي نوع من الخطب، وذلك لاجتماعهما في مشافهة المخاطبين، ويختلفون في كون الخطبة لجماعة من الحضور تسمع قول الخطيب، والوصية للجمع والمفرد، والحاضر والغائب، وقد تكون الوصية شعراً، أو نثراً، أو الاثنين معاً، وموضوعها مخصوص لنفع الموصى إليهم دائماً، بينما يكون موضوع الخطب أعم وأشمل فيكون في موضوع الرثاء أو المديح أو التهديد أو بيان موقف سياسي

---

(١) ينظر جمهرة وصايا العرب: محمد نايف الدليمي ١/ ١٣.
(٢) الوصايا في الأدب العربي القديم: سهام الفريح ١٧.
(٣) ينظر المصدر نفسه.

وغيرها[١].

وهناك من يرى أن الوصية «فن قائم بذاته، وهي تختلف عن الخطبة والرسالة لأنهما لا يكونان مرة واحدة في الحياة، وتكون الوصية مرة واحدة، فإذا تجاوزت فإلى غير الأناس الذي أوصى إليهم»[٢].

هـ ـ صفات الموصي:

ومن صفات الموصين أنهم ممن خبروا الحياة وخاضوا غِمارها... فهم يودعون وصاياهم جل أفكارهم وخلاصة تجاربهم على شكل رسائل أخلاقية تهذيبية... هي أدب حياة وعاطفة وانفعال يحمل في طياته الدعوة إلى الهداية والإرشاد والتوجيه، ليصبح بعد ذلك أدب رأي والتزام.

وعادة يتصف الموصون بالجدية في توجيه وصاياهم... ينزعون فيها إلى المعاني التي تفرغ إفراغاً عفوياً في قوالب من الألفاظ الرشيقة محملة بشحنة من المعاني النفسية الدقيقة التي هي بنت عصرها مع ميلهم الشديد إلى العبارات المهذبة والألفاظ التي لا تجرح الحياء، ونادراً ما نجد في وصاياهم عبارة فاحشة أو لفظاً ساقطاً حرصاً منهم على القاعدة الأخلاقية التي تستند عليها وصاياهم.

والموصي دائماً يكون أعلى مرتبة من الموصى إليه، فهي من الله عزَّ وجلَّ إلى عموم البشر، ومن الأنبياء عليهم السلام إلى من بُعثوا إليهم، ومن الآباء للأبناء، ومن الخلفاء لولاة العهد بعدهم أو لعمالهم وولاتهم وأمرائهم، ومن الحكماء إلى أبنائهم وقبائلهم... وقد تخالف الوصية هذا النهج فتكون من الأدنى إلى الأعلى مرتبة، مثال ذلك: وصايا الوعاظ والنسَّاك للخلفاء بطلب منهم في وعظهم.

و ـ نبذة عن الوصايا في العصرين الجاهلي والإسلامي:

لعل من المفيد تقديم تمهيد للوصايا في العصور التي سبقت العصر

(١) ينظر النثر الفني وأثر الجاحظ فيه: د. عبد الحكيم بلبع ٨٧، وأساليب النثر الفني ١٠٥.
(٢) جمهرة رسائل العرب: ١/ ١٣.

العباسي بدءاً من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي. . . لبيان تواصل هذا الفن وامتداد جذوره عبر العصور التاريخية.

وللاستدلال على أصالة الوصايا وقيمتها، نعود إلى امتداد أصولها الموغلة في القدم إلى الوصايا التي رويت عن آدم عليه السلام لبنيه لما حضرته الوفاة[١]، ووصايا أخرى رويت عن نبي الله هود عليه السلام لبنيه[٢]، ووصية ابنه قحطان بن هود[٣]، ووصايا أخرى نسبت ليعرب بن قحطان[٤]، وابنه يشجب[٥].

ويطالعنا العصر الجاهلي بجملة من وصايا الحكماء والمعمرين، وأول ما اعتمدته هذه الوصايا الأساس الأخلاقي. وهذا إنما يتناول الجوانب الموجبة في الحياة، وغايته توجيه الفرد والقبيلة، والترغيب في الخير ونبذ الشر، فالوصية تُصَلِحُ عاداتهم، وتقوِّم أخلاقهم، وهي بعد ذلك بمثابة وثيقة عمل وإعلان مبادىء قويمة ذات غايات تهذيبية، اصطنع فيها الموصون اللغة البسيطة القصيرة المقاطع، تجري مجرى الأمثال، وقد تناقلتها كتب الأدب، ونهلت من مُعينها كتب الحِكم والأمثال، ومن أمثلتها وصية عامر بن الضرب[٦]، ووصية أكثم بن صيفي[٧]، ووصية الأفوه الأودي[٨] وغيرها.

وهناك وصايا أخرى في العصر الجاهلي نسبت إلى الآباء والأمهات، تلك التي تدعو إلى مكارم الأخلاق وتحث على صالح الأعمال وتنهى عن الشرور، ومن أمثلتها ما جاء في وصية ذي الإصبع العدواني لابنه أُسيد[٩].

(١) ينظر المعمرون والوصايا: أبي حاتم السجستاني ١.
(٢) ينظر ملوك حمير وأقيال اليمن: نشوان الحميري ٣.
(٣) ينظر المصدر نفسه ٦.
(٤) ينظر المصدر نفسه ٩.
(٥) ينظر المصدر نفسه ١٠.
(٦) ينظر المعمرون والوصايا ٥٩.
(٧) ينظر المصدر نفسه ٢٤.
(٨) ينظر المصدر نفسه ١٣٠.
(٩) الأغاني: ٣/ ٩٤.

ومن وصايا الأمهات وصية أُمامة بنت الحارث لابنتها يوم زفافها، وقد ضمنتها جملة من النصائح والتوجيهات في حُسن معاشرة الزوج وطاعته والتعهد براحته[١].

ومن وصاياهم المتعلقة بحياتهم الحربية وصية أكثم بن صيفي، التي يدعوهم فيها إلى وحدة الصف واجتماع الكلمة، واعتماد المشورة، والتحلي بالصبر، ومما جاء فيها قوله: «**استشيروا، وأقلوا على أمرائكم، وإياكم وكثرة الصياح في الحرب، فإن كثرة الصياح من الفشل، وكونوا جميعاً، فإن الجميع غالب، والمرء يعجز لا محالة، تثبتوا ولا تسارعوا، فإن أحزم الفريقين أركنهما، وربة عجلة تهب ريثاً...**»[٢].

أما أهم الخصائص الفنية للوصايا التي نسبت إلى العصر الجاهلي، فإنها غالباً ما تصدر بأسلوب الخطاب المباشر، في فقرات متتالية، قصيرة الفواصل، تشكل مع بعضها وحدة متكاملة على المستوى الدلالي، استخدم فيها الموصون الألفاظ السهلة البعيدة عن الإغراب والتوعر والتي تجري مجرى الأمثال والحكم.

وفي العصرين الراشدي والأموي، طبعت الوصايا بطابع الإسلام، وما جاء به من قيم إيمانية عقائدية جديدة تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتدعو إلى قيم أخلاقية تطهر النفوس من الفواحش والزلل[٣].

ولما كان تأثير الإسلام قد صبغ حياة العرب وآدابهم بطابع الإسلام، ومنها الألفاظ والمعاني الإسلامية الجديدة التي تأثر بها الأدب، ومنه الوصايا بوصفها أحد الفنون النثرية، التي تجلّت فيها الألفاظ والمعاني الإسلامية الجديدة، لذلك وجدنا هذا التغيير قد شمل معاني وألفاظ الوصايا... بل تعدى ذلك إلى تنوعها وتعددها، ومنها الوصايا الإلٰهية، ووصايا الخلفاء،

(١) ينظر المعمرون والوصايا ١٦.
(٢) ينظر المصدر نفسه: ١١٩ ـ ١٢٠.
(٣) ينظر تأريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي: د. شوقي ضيف ١١.

ووصايا الوعاظ للخلفاء، ووصايا الآباء للأبناء.

والمقصود بالوصايا الإلٰهية، الوصايا التي وردت في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، فالإسلام قد أقر الوصية وجاء ذكرها في الكثير من آي الذكر الحكيم(١).

وكان لوصايا الرسول الكريم محمد ﷺ أثر كبير في توجيه سلوك المسلمين وحثهم على التمسك بالدين الجديد، والالتزام بتعاليمه في أوامره ونواهيه، فكانت معظم خطبه ورسائله وصايا ونصائح تخص أحد المسلمين أو عامتهم(٢).

أما المعاني التي دارت عليها وصايا الرسول الكريم ﷺ فهي المعاني الإسلامية المستمدة من وحي القرآن الكريم في الحث على خير الأعمال، والابتعاد عن الشرور، والالتزام بمبادىء الدين الحنيف. وأسلوبها يميل إلى البساطة في الشكل في جمل محكمة السبك قوية التأثير، بعيدة عن الصنعة والتكلف والسجع، فصيحة بليغة، وهو ما يميز البلاغة النبوية.

ووصايا الرسول الكريم كثيرة، منها ما جاء غرضاً فنياً قائماً بذاته(٣)، أو ضمن الأغراض الأخرى كالرسائل والخطب(٤).

وتعد وصية الرسول ﷺ في خطبة الوداع(٥) من الوصايا الشاملة لكل جوانب الحياة، فيها نصح وتوجيه وإرشاد وتشريع للأحكام.

ويتابع الخلفاء في العصرين الراشدي والأموي، التوصية بمجالات الحياة

---

(١) ينظر على سبيل المثال سورة مريم، الآيات: ٣٠ ـ ٣٢، سورة لقمان: الآية ١٤.

(٢) ينظر أدب الوصايا في العهدين الراشدي والأموي: إنعام داود سلوم، أطروحة دكتوراه ٥٠ ـ ٥١.

(٣) مثال ذلك وصية الرسول ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنه، ينظر الحكمة الخالدة ابن مسكويه ٣٠٨.

(٤) من وصاياه عليه أفضل الصلاة والسلام ضمن الرسالة التي بعثها إلى عامله على اليمن معاذ بن جبل، ينظر تحف العقول عن آل الرسول: أبو محمد بن شعبة الحراني ١٩٥.

(٥) ينظر سيرة ابن هشام ٦٠٢/١.

المختلفة، ولذا تفرعت وصاياهم في محاور متعددة، منها وصاياهم لمن يتولى الخلافة من بعدهم[١]، ووصاياهم لأمراء الجيوش في أثناء الحروب[٢]، ووصاياهم لولاة الأمصار[٣]. وظهرت في العصر الأموي وصايا الخلفاء لمؤدبي أولادهم[٤]، فيما برزت وصايا أخرى توجه بها الوعاظ والنُسَّاك للخلفاء[٥]، جاء بعضها بِطلب من الخلفاء أنفسهم، رغبة منهم في توصيتهم ووعظهم.

ويطالعنا العصران الراشدي والأموي بجملة من وصايا الآباء للأبناء، والتي لا تختلف في معانيها وموضوعاتها عن وصايا الجاهليين في اعتمادها التوجيه التربوي... إلا أنها تتجه في العصر الإسلامي نحو المبادىء الإسلامية، حيث اعتمد الآباء الموصون المعاني المعبرة عن هدى الرسالة الإسلامية ومبادىء الدين الحنيف[٦].

وخلاصة القول: فإن الوصايا في العصرين الراشدي والأموي طبعت بالطابع الإسلامي، شأنها في ذلك شأن الفنون الأدبية الأخرى، مما أدى إلى ازدهارها وتعدد أنواعها ومعانيها، بما ينسجم وتعاليم الدين الجديد، وبذلك ابتعدت عن المعاني الجاهلية، التي نهى عنها الإسلام، وأبقت على معاني

---

(١) مثال ذلك وصية أبي بكر الصديق إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ينظر البيان والتبيين: الجاحظ ٢/ ٤٥ـ٤٧، ووصية معاوية بن أبي سفيان لولي عهده يزيد، ينظر المعمرون والوصايا: ١٥٥.

(٢) مثال ذلك وصية أبي بكر الصديق لخالد بن الوليد، ينظر العقد الفريد: ابن عبد ربه ١/ ٤٠، ووصية الخليفة عبد الملك بن مروان لقائد جيشه الذي وجهه لفتح بلاد الروم، ينظر المصدر نفسه ١/ ٤١.

(٣) مثال ذلك وصايا أبي بكر الصديق رضي الله عنه لعامله أبي موسى الأشعري، ينظر جمهرة خطب العرب: أحمد زكي صفوت ١/ ٧٥، ووصية معاوية بن أبي سفيان لعمرو بن العاص حين وجَّهه والياً على مصر، ينظر تأريخ الطبري: ابن جرير الطبري ٥/ ٣٣٤.

(٤) مثال ذلك وصية عبد الملك بن مروان لمؤدب بنيه، ينظر عيون الأخبار: ٥/ ١٦٧.

(٥) مثال ذلك وصية أبي جعفر محمد الباقر للخليفة عمر بن عبد العزيز، ينظر أمالي القالي: أبي علي القالي ٢/ ٣١٢.

(٦) ومن أمثلتها وصايا الإمام علي رضي الله عنه لأبنائه، ينظر شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ٤/ ٦٨٢، ووصية عبد الملك بن مروان لبنيه، ينظر العقد الفريد: ٣/ ١٥٤.

الخير التي أقرّها ونمّاها، كالشجاعة والمروءة والكرم وحماية الجار وغيرها. واتسعت أغراضها لتشمل نواحي الحياة المختلفة، معبرة عن الحياة الجديدة التي رسم الدين الإسلامي طريقها نحو حب الخير والعمل من أجله، ونبذ الشر والابتعاد عنه، والعمل على طاعة الله تعالى وترك معصيته خوفاً من عذاب النار، وسعياً لنيل ثواب الآخرة وديمومتها.

ولهذا كانت المعاني الإسلامية مبثوثة في ثنايا وصايا الإسلاميين، ثم أخذت مادتها تطول بعد أن كانت قصيرة، تقرب من الحِكم والأمثال عند الجاهليين، وتشعبت موضوعاتها فشملت مناحي الحياة المختلفة الدينية والدنيوية، لتحولها من حياة الولاء للقبيلة إلى عالم أوسع وأرحب حيث الولاء للأمة. وطبعت بالطابع الإنساني لتبنيها القضايا الإنسانية عامة، ويلاحظ التأثر الذي طرأ عليها واضحاً في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.



الفصل الأول

الوصايا وأنواعها

المدخل:

أولاً: الوصايا نمط أدبي مستقل (وصايا سياسية ومهنية ــ وصايا دينية وخلقية ــ وصايا أدبية).

١ ــ وصايا سياسية ومهنية:

أ ـ وصايا الخلفاء لولاة العهد.

ب ـ وصايا حربية.

جـ ـ وصايا الوزراء.

د ـ وصايا الحُجَّاب.

٢ ــ وصايا دينية وخلقية:

أ ـ وصايا الوعاظ للخلفاء.

ب ـ وصاياهم لعامة المسلمين.

جـ ـ وصايا المتصوفين لعامة المسلمين.

د ـ وصايا الحكماء.

هـ ـ وصايا الآباء للأبناء.

٣ ــ وصايا أدبية:

أ ـ وصايا الخلفاء لمؤدبي أولادهم.

ب ـ وصايا العلماء والبلغاء.

جـ ـ وصايا إخوانية. د ـ وصايا فنية.

ثانياً: (الوصايا والأنماط الأدبية الأخرى)

أ ـ الوصايا والرسائل. ب ـ الوصايا والخُطب.

جـ ـ الوصايا والعهود. د ـ الوصايا والمقامات.

ثالثاً: (وصايا أخرى في موضوعات متفرقة)

أ ـ وصايا الطفيليين. ب ـ وصايا البخلاء.

جـ ـ وصايا المسافرين. د ـ وصايا أخرى.



الفصل الأول

(الوصايا وأنواعها)

المدخل:

قامت الدولة العباسية بعد سقوط دولة بني أمية في منتصف القرن الثاني للهجرة، واتخذت بغداد عاصمة لها، واستمر وجودها إلى منتصف القرن السابع الهجري. . . وشهدت هذه الفترة تغييرات كبيرة في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية. ولعل أهم هذه التغييرات هو طبيعة الدعوة العباسية التي تدعو إلى «تطبيق النظام الإسلامي والالتزام به التزاماً دقيقاً، وتحقيق العدالة والمساواة بين العرب وغيرهم»[١]، والذي أدى بدوره إلى انفتاح العرب واتصالهم بالأمم الأخرى ذات الحضارات العريقة في التاريخ القديم، فحصل الامتزاج بينها وبين هذه الأمم، وكان من نتيجته نقل تراث هذه الأمم وميراثها الحضاري عن طريق الترجمة إلى العربية، والذي كان له تأثيره في ازدهار الآداب واتساع دائرة المعارف والتجديد في اللغة، والتنوع في أساليبها متأثرة إلى حد كبير بما دخل عليها من ترف الحضارة ونعيم الدولة[٢].

ويأتي تأثر العرب بحضارات الأمم السابقة منسجماً مع المحافظة على الموروث الثقافي والفكري القديم، وسلك العرب منهج المزاوجة بين الموروث الحضاري القديم والحضارة الجديدة، فخطوا لهم طريقاً جديداً حافظوا فيه على عاداتهم وتقاليدهم وتعاليم دينهم الإسلامي الحنيف، فكانت لهم حضارتهم المتميزة في التاريخ، وكان لهذا التطور الكبير في حياة العرب أثره الفاعل في حياتهم السياسية والاجتماعية، وترك بصماته الواضحة في حياتهم الثقافية والفكرية. . . فكان التطور في آدابهم وعلومهم، فاستحدثت فنون أدبية

---

(١) الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية: حسين عطوان ٨٣. وينظر التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول: د. مجاهد مصطفى بهجت ٢٧.

(٢) ينظر عصر المأمون: محمد فريد رفاعي ١/ ١٦٦ـ ١٦٧.

جديدة في الشعر والنثر تطورت في معانيها وموضوعاتها وأساليبها.

ولما كانت الوصايا أحد الفنون النثرية، فكان لا بد أن يصيبها جانب من هذا التغيير، وهذا ما نلاحظه من خلال دراستنا لأنواع الوصايا في العصر العباسي، والتي رأينا تقسيمها كالآتي:

أولاً: الوصايا نمطاً أدبياً مستقلاً.

ثانياً: الوصايا والأنماط الأخرى.

أولاً: (الوصايا نمطاً أدبياً مستقلاً)

وصايا سياسية ومهنية، وصايا دينية وخلقية، وصايا أدبية

١ ــ وصايا سياسية ومهنية:

أ ــ وصايا الخلفاء لولاة العهد:

حرص الخلفاء العباسيون الأوائل على أن يتركوا لأولياء عهودهم وصية يلتزمونها ويترسمون خطاها بعد مماتهم، وكانوا يودعونها كل نصيحة تعصمهم من الزلل، وتنير أمامهم السبل، وتأخذ بيدهم في الحياة[١].

واتخذت وصاياهم عدة محاور، منها ما هو سياسي واجتماعي وإداري واقتصادي، هدفهم من ذلك رسم الطريق الصحيح لولاة العهد في إدارة الدولة والحفاظ على كيانها والذود عنها.

ويظهر تأثير المحور الديني واضحاً في وصايا الخلفاء العباسيين في مراحلها الأولى، فقد كانوا يجمعون بأيديهم السلطتين الدينية والسياسية، وعدوا أنفسهم الورثة الشرعيين، واستمدوا أحقيتهم بالخلافة إلى جدهم العباس (رضي الله عنه) لقرابته من الرسول الكريم ﷺ وخدمة البيت الحرام[٢]، وكانوا يحيطون أنفسهم بهالة من القدسية والتديُّن، وأخذوا يرتدون بردة الرسول الكريم ﷺ ويحملون القضيب وخاتم النبوَّة في المناسبات، كصلاة الجمعة والعيدين، واتخذوا السواد شعاراً لهم كرمز لسلطتهم الدينية[٣]، وأصبح

---

(١) ينظر بلاغة الكتاب في العصر العباسي: د. محمد نبيه حجاب ١٢٠.

(٢) ينظر طبيعة الدعوة العباسية، د. فاروق عمر فوزي ٧.

(٣) ينظر في التاريخ العباسي والأندلسي: أحمد مختار ٣٣.

الخليفة يحكم بتفويض من الله كما هو مبين في خطبة المنصور التي يذكر فيها:

«أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده»[(١)].

ولقبوا أنفسهم بالألقاب الدينية مثل: المهدي، والهادي، والرشيد، والأمين[(٢)]، واتَّبعوا سياسة ذات طابع ديني، تلك التي وصفها ابن الطقطقا بقوله:

«إن هذه الدولة ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك»[(٣)].

ومن وصايا الخلفاء التي طبعت بالوعظ الديني، وصية المنصور لولده المهدي، والتي تصدرها بوعظ ديني يحث على التمسك بتقوى الله تعالى والحفاظ على أمة محمد ﷺ، محذراً إياه من الدم الحرام لأنه إثم عظيم عند الله، وعار في الدين مقيم، ويدعوه فيها إلى أن يلزم الحلال لأنه ثواب في الدنيا والآخرة، وأن يقيم حدود الله، ولا يعتدِ فيها، مذكراً إياه بما جاء في كتاب الله تعالى من تضعيف العذاب والعقاب على من يسعى في الأرض فساداً، مستشهداً بآية من القرآن الكريم تدلل على ذلك، يقول:

«احفظ يا بُني محمداً ﷺ في أمته، يحفظ الله عليك أمورك، وإياك والدم الحرام، فإنه حوب[(٤)] عند الله عظيم، وعار في الدنيا لازم مقيم، والزم الحلال، فإن فيه ثوابك في الآجل، وصلاحك في العاجل، وأقم الحدود، ولا تعتد فيها فتبور[(٥)]، فإن الله لو علم أن شيئاً أصلح لدينه، وأزجر عن معاصيه من الحدود لأمر به في كتابه، واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فساداً، مع ما ذخر له عنده

---

(١) تأريخ الطبري: ٨/ ٨٩ـ ٩٠، البداية والنهاية: ابن كثير ١٠/ ١٢٢، وردت كلمة ورشده بدل: وتسديده.

(٢) ينظر ألقاب الخلفاء ودلالتها الدينية والسياسية: د. فاروق عمر فوزي ٣٩٧.

(٣) الفخري في الآداب السلطانية: ابن الطقطقا ١٤٠.

(٤) الحوب: الإثم، القاموس المحيط: ١/ ٥٨.

(٥) تبور: المبتور، الهالك. المصدر نفسه: ١/ ٣٧٩.

من العذاب العظيم، فقال: ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ﴾»[(١)].

ويأخذ المحور الديني التحذيري متسعاً كبيراً في وصية المنصور لولده المهدي، مؤكداً فيها على تقوى الله تعالى، محذراً إياه من الدنيا وزخرفها، ناصحاً إياه العمل بطاعة الله تعالى والابتعاد عن معصيته، مستشهداً على قوله بآي من الذكر الحكيم، حيث يقول:

«إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد، والعمل بطاعته في العباد، ويحذرك الحسرة والندامة، والفضيحة في القيامة، قبل حلول الموت، وعاقبة الفوت، حين تقول: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾»[(٢)].

وفي فقرة أخرى من الوصية يدعو ابنه إلى الاستعانة بالله تعالى والتقرُّب إليه، ناصحاً إياه بالابتعاد عن الشر، مذكراً إياه بمحاسبته يوم القيامة، لأن الله تعالى قلّده أمر الرعية، وعليه أن يقضي بينهم بمثل الذرة مستشهداً بآي من الذكر الحكيم، يقول:

«استعن بالله على دينك، وتقرب به إلى ربك ونفسك، فخذ منها، ولا تجعلها للهوى، ولن تعمل الشر قامعاً، فليس أحد أكثر وزراً ولا أعزَّ إثماً ولا أعظم مصيبة ولا أجل رزيئة منك، لتكاثف ذنوبك وتضاعف أعمالك، إذ قلدك الله الرعية تحكم فيهم بمثل الذَّرةِ، فيقتضون منك أجمعين، وتكافي على أفعال وُلّاتك الظالمين، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾»[(٣)].

ويوصي المأمون أخاه المعتصم، مضمناً إحدى فقرات وصيته، الإرشاد والوعظ الديني، ويدعوه فيها إلى الالتزام بعهد الله تعالى وميثاقه والالتزام بذمة رسول الله ﷺ، وذلك بالإحسان لعباد الله، والعمل بطاعة الله تعالى والابتعاد

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣٣. تأريخ الطبري: ٨/ ١٠٥.
(٢) سورة المنافقون: الآية ١٠، تأريخ الطبري: ٢/ ٣٩٢ـ ٣٩٤.
(٣) سورة الزمر: الآيتان ٣٠ـ ٣١، تأريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٩٢ـ ٣٩٤.

عن معصيته، يقول:

«يا أبا إسحاق، عليك عهد الله وميثاقه، وذمة رسول الله ﷺ، لتقومنَّ بحق الله في عباده، ولتؤثرنَّ طاعته على معصيته»[١].

ويؤكد المأمون في ختام وصيته على الالتزام بتقوى الله تعالى، قائلاً:

«اتقوا ربكم حق تقاته ولا تموتن إلاَّ وأنتم مسلمون، اتقوا الله واعملوا له، اتقوا الله في أموركم كلها»[٢].

وتهتم وصايا الخلفاء لولاة العهد من بعدهم بالجانب الاجتماعي، وذلك بدعوتهم إلى معاملة الرعية بالعدل والإحسان، ومراعاة أمورهم، منها ما جاء في وصية المنصور لابنه المهدي، والتي يقول فيها:

«واعلم أن رضا الناس غاية لا تُدرك، فتحبب إليهم بالإحسان جهدك، وثبِّت فيما يرد من أمورهم عليك، ووكِّل همومك بأمورك، وتفقَّد الصغير تفقُّدك الكبير، وخذ أهمية الأمر قبل حلوله، فإن ثمرة التواني الإضاعة، وكن عند رأس كل أمر لا عند ذَنَبِهِ»[٣].

وفي وصية أخرى للمنصور ـ يأخذ المحور الاجتماعي جانباً مهماً ـ لابنه المهدي يوصيه فيها خيراً بالرعية ويدعوه إلى إقامة العدل والمساواة والإنصاف بينهم، يقول:

«وليتسع إنصافك، وينبسط عدلك، ويؤمن ظلمك، وواسِ بين الرعية في الاحتكام، واطلب بجهدك رضى الرحمٰن»[٤].

ويؤكد المنصور في وصيته لابنه ضرورة الإحسان إلى نصحائه بالمودة والمحبة، وفي تفقُّد أمورهم، ناصحاً إياه سماع أهل التجارب والرأي لينهل من

---

(١) تأريخ الطبري: ٨/ ٦٤٨ـ ٦٥٠، الكامل في التاريخ: ابن الأثير ٦/ ٦ـ ٧.
(٢) ينظر المصدر نفسه: ٨/ ٦٥٠، الكامل في التاريخ: ٦/ ٧.
(٣) سياسة المنصور أبي جعفر الداخلية والخارجية: د. حسن فاضل زعين العاني ٥٤٥، نقلاً عن مخطوط أنساب الأشراف: للبلاذري ٤/ ٦ب.
(٤) تأريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٩٣.

معين تجاربهم، مشدداً على ولده بذل قصارى جهده من أجل إصلاح الرعية. . . يقول:

«وأحسن إلى نصحائك، واستدم مودتهم ومحبتهم بجميل التعهد لهم، والتفقد لأمورهم، ولا تعط عطية تبطر الخاص وتؤسف العام، واجعل لكل إليك حاجة، واجعل لهم من فضلك مادة، واسمع من أهل التجارب، ولا تردن ذوي الرأي، وعوِّد نفسك الصبر على التعب في إصلاح الرعية»[١].

ويدعو المنصور ولده إلى الاهتمام بأوساط الناس وعامتهم، وتوسيع المعاش عليهم، وتوفير السكن لهم، وصرف المكاره عنهم. . . حيث يقول:

«وخص الواسطة، ووسِّع المعاش، وسكِّن العامة، وادخل المرافق عليهم، واصرف المكاره عنهم»[٢].

يمثل المحور السياسي في وصايا الخلفاء العباسيين دوراً رئيساً في توجيه ولاة العهد في الأمور الإدارية والتنظيمية والعسكرية، ويرسم لهم طريق سياسة الحكم ومعاملة الرعية بالعدل والإحسان والمساواة.

ومن الفقرات ذات المحور السياسي في وصايا الخلفاء، تطالعنا توجيهات المنصور لولّي عهده المهدي في الأمور السياسية، والتي ينصحه فيها باتباع أربعة أمور لثبات السلطان هي: امتلاك المعرفة، وحسن اختيار الأعوان، ومواصلة اختبارهم والاعتماد على أهل الحريص. ويُرجع ذهاب السلطان إلى ثلاثة أمور هي: قلة الحزم، وضعف العزم، وفقدان صالح الأعوان. وهو بذلك يضع له دستوراً حكيماً في اتباع سياسة رشيدة تبعده عن كل ما يذهب بالسلطان، وترشده إلى كل ما يُدَّعمه ويُثَّبته. . . ومما جاء فيها قوله:

«واعلم أن ذهاب السلطان يؤتى من ثلاثة أمور: قلة الحزم، وضعف

---

(١) سياسة المنصور أبي جعفر الداخلية والخارجية: ٥٤٥، مخطوط أنساب الأشراف ٤/٦ب.
(٢) تأريخ الطبري: ٨/١٠٦.

العزم، وفقد صالح الأعوان. وإن ثباته بأربع خِلالٍ: المعرفة، وحسن التَّخير، وإمضاء الاختبار، وتنكُّب أهل الحريص، فإن الحريص لا يبيعك باليسير من حظه وشره، والوزراء أضر الأعداء، ومن خانك كذبك، ومن كذبك غشك»[١].

ويدعو المنصور ولّي العهد إلى اعتماد مبدأ المشاورة في الرأي، محدداً له صفات من يختارهم للمشاورة، ممن عرفوا بأهل اللب والرأي والصدق وكتمان السر. . . يقول:

«واعلم أن مادة الرأي المشاورة، فاختر لمشاورتك أهل اللب والرأي والصدق وكتمان السر، وكافيء بالحسنة، وتجاوز عن السيئة، ما لم يكن في ذلك ثلم دين، ولا وهن سلطان، ودع الانتقام فإنه أسوأ أفعال القادر»[٢].

ويشدد المنصور على ولّي العهد التزام الحذر في إحكام الأمور، داعياً إياه إلى الاجتهاد والتشمير لها، والتزام اليقظة والحذر والتحسب لأسوأ العواقب، وذلك بإعداد الرجال في الليل والنهار، وأن لا يعتمد على أحد من عمَّاله أو كتَّابه، وأن يباشر الأمور بنفسه، حيث يقول:

«جِد في إحكام الأمور النازلات أولاً بأول، واجتهد وشمِّر فيها، وأعدد رجالاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالاً بالنهار لمعرفة ما يكون الليل، وباشر الأمور بنفسك، ولا تفجر، ولا تكسل، ولا تفشل، واستعمل حسن الظن بربك، وأَسيء الظن بعمَّالك وكُتَّابك، وخذ نفسك بالتيقظ»[٣].

وتبين وصية المنصور للمهدي سياسة العباسيين تجاه الوالي، عندما يوصيه بالإحسان إليهم وتقريبهم والاستكثار منهم لأنهم الأتباع والأعوان في أثناء الشدة، ويوصيه بأهل خراسان لأنهم أنصار الدعوة العباسية وشيعتها،

---

(١) سياسة المنصور أبي جعفر الداخلية والخارجية: ٥٤٥ـ ٥٤٦، مخطوط أنساب الأشراف: ٤/ ٦ب.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) تأريخ الطبري: ٨/ ١٠٦.

مذكراً إياه بما فعلوه من بذل للأموال والأنفس، داعياً إياه إلى مكافئتهم، والإحسان إليهم، وفي ذلك يقول:

«وانظر مواليك، فأحسن إليهم وقرِّبهم، واستكثر منهم فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك... وأوصيك بأهل خراسان خيراً، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك، ودماءهم دونك، وحتى لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن إليهم، وتتجاوز عن مسيئهم، وتكافئهم على ما كان منهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده»[١].

وتؤكد وصايا المنصور على المحور المالي والإداري، فعز السلطان وبقاؤه مرهون بالمال... لذلك نجده يحرص كل الحرص على توجيه ابنه للاقتصاد وعدم تبذير أموال الرعية وخزنها لأنها عدّة السلطان في النوائب والحوادث، ومما جاء في أحد فقرات وصيته لابنه المهدي وهو يحذره من التبذير قائلاً:

«إياك والإثرة والتبذير لأموال الرعية»[٢].

وفي فقرة أخرى من الوصية نفسها، يقول:

«وأعِدَّ الأموال وأخزنها، وإياك والتبذير، فإن النوائب غير مأمونة والحوادث غير مضمونة»[٣].

ويحرص المنصور على تدبير الأموال وتوفيرها واستخدامها وقت حاجتها، فهو يخزِّنها لضمان سلطانه، وتعزيز سلطان ولده من بعده... لذلك يذكر المنصور في وصيته لابنه بأنه أفرد له الأموال التي أخذها من الناس على وجه المصادرة والخيانة، تلك التي سماها المظالم، فإذا تولى الخلافة بعده أعادها إلى أصحابها، ليدعو له الناس ويحبونه، يقول:

---

(١) تأريخ الطبري: ٨/ ١٠٣، العقد الفريد: ٢/ ٣٣١.
(٢) المصدر نفسه: ٨/ ١٠٦.
(٣) المصدر نفسه.

«إني قد هيأت لك شيئاً ترضي به الخلق، ولا تغرم من مالك شيئاً، فإذا أنا مت، فادع هؤلاء الذين أخذت منهم هذه الأموال التي سميتها المظالم، فاردد عليهم كل ما أُخذ منهم، فإنك تُستحمد إليهم وإلى العامة»[١].

ب ــ وصايا حربية:

الوصايا الحربية أحد أنواع الوصايا في العصر العباسي، وهي التي تعبر عن طبيعة الأحداث في هذا العصر وما رافقها من تطورات سياسية، لعل أهمها النزاع على ولاية العهد والتي تمثلت بأوضح صورها في الصراع بين الأمين والمأمون.

وغالباً ما صدرت الوصايا الحربية من الخلفاء إلى القادة العسكريين الذين خرجوا للقضاء على الخارجين عن السلطة من المتمردين في بعض الأقاليم، أو ما توجه به الخلفاء للقواد في الخلافات السياسية التي رافقت الخلفاء وولاية العهد.

ولعل أهم ما يميز الوصايا الحربية في العصر العباسي اختلافها من حيث المضمون والأسلوب عن وصايا العصور السابقة، وخاصة عصر الفتوح الإسلامية التي كان هدفها الأساس نشر الدعوة الإسلامية وخدمة الأمة، في حين كانت الوصايا الحربية في العصر العباسي مرافقة للأحداث والصراعات السياسية.

ومن خلال تتبعنا للوصايا الحربية نجد أنها تنزع إلى طابع البساطة في الشكل وابتعادها عن التزويق اللفظي واستخدامها الخطاب المباشر بصيغة الأمر، خالية من التكلف والتعقيد، مع سلامة العبارة وقوة الألفاظ لغرض توصيل المعنى إلى ذهن المتلقي، ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة الوصية المضمنة للتوجيهات والإرشادات الحربية، وما يتوجب على القائد عمله أزاء هذا الحدث أو ذاك، وأن السرعة في التوصية لا تستوقف الموصي كثيراً ولا تدعه

(١) تأريخ الطبري: ٨/ ١٠٦.

يتأمل في وصيته أو يعمل على إعدادها إعداداً فنياً أو يقوم بتزويقها.

ومن الوصايا الحربية التي رافقت الأحداث في العصر العباسي، وصية أبي مسلم الخراساني لقواده، تلك التي يدعوهم فيها إلى نبذ الخوف والضعف، وذلك بالإقدام في الحرب والجرأة في لقاء العدو، فهي من أسباب الظفر والنجاح، مذكراً بدواعي الإقدام والاستبسال في الحروب، وذكر ضغائن العدو وبيان أحقاده مع الالتزام بالطاعة في تنفيذ ما يوكل إليهم، لأن في ذلك تنظيماً لقوَّتهم وقدرتهم في القتال، وهي كما وصفها حصن المحارب الذي يأمن فيه من العدو... وخلاصة وصيته توضح ثلاثة خصال على المحارب الالتزام بها في الغزو، وهي: الجرأة، وذكر الضغائن، والطاعة في تنفيذ الأوامر... والتي يقول فيها:

«أشعروا قلوبكم الجرأة، فإنها من أسباب الظفر، وأكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة، فإنها حصن المحارب»[1].

وتعكس الوصايا الحربية سياسة الخلفاء العباسيين إزاء الأحداث في هذا العصر، وتنبيء عن شخصياتهم وبعض صفاتهم، تلك التي أغفلتها كتب التاريخ والسِّير... من ذلك: وصية المنصور لعيسى بن موسى حين وجَّهه لمحاربة محمد، النفس الزكية، الذي كان يدعو لنفسه ولآل بيته بالخلافة باعتبارهم أحق بها من بني العباس[2].

وتدلل هذه الوصية عن حسن تدبير المنصور في الأمور السياسية والعسكرية وحنكته في معالجة الخارجين عن الخلافة، وذلك بابتعاده عن البطش والاندفاع واستخدام الشدة، وهذا يخالف ما تصفه ـ بعض المصادر التاريخية بالقسوة والحزم الشديدين ـ وهو ما تمثل في توجيهاته لعيسى بن موسى عندما يوصيه بأن يدعو محمد بن عبد الله للطاعة فإذا استجاب قَبِل منه ذلك، وإذا هرب فعليه تركه، أما إذا أصر على الحرب فعليه محاربته بعد

---

(١) العقد الفقريد: ١/ ١٣٤.
(٢) سياسة المنصور أبي جعفر الداخلية والخارجية: ٢٨٨، نقلاً عن العقد الفريد: ٣/ ٣١.

الاستعانة بالله تعالى، فإذا ظفر به فعليه أن لا يستخدم القسوة والبطش مع أهل مكة والمدينة وأن يعفو عنهم ويرفق بهم لمكانتهم وقرابتهم من الرسول الكريم، منبهاً إلى أن هذه هي وصيته لا كما وصى يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة في إباحة المدينة المنورة والتمثل بقول ابن الزبعرى[1]، ولا كما وصى به الذي وجَّه الحجاج إلى مكة بوضع المجانيق على الكعبة والتمثل بقول عمرو بن كلثوم[2]. . . ومما جاء في وصيته قوله:

«يا أبا موسى، إذا صرت إلى المدينة فادعُ محمد بن عبد الله بن الحسن إلى الطاعة والدخول في الجماعة، فإن أجابك فاقبل منه، وإن هرب منك فلا تتبعه، وإن أبى إلا الحرب فناجزه واستعن بالله عليه، فإذا ظفرت به فلا تخيفن أهل المدينة، وعِمهم بالعفو فإنهم الأصل والعشيرة وذرية المهاجرين والأنصار، وجيران قبر النبي ﷺ، فهذه هي وصيتي إياك، لا كما وصى به يزيد ابن معاوية مسلم بن قتيبة حين وجَّهه إلى المدينة المنورة وأمره أن لا يقتل من ظهر له إلى ثنية الوداع، وأن يبيحها ثلاثة أيام ففعل، فلما بلغ يزيد ما فعله تمثل بقول ابن الزبعرى في يوم أُحد حين قال:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

ثم اكتب إلى أهل مكة بالعفو عنهم والصفح، فإنهم آل الله وجيرانه، وسكّان حرمه وأمنه، ومنبت القوم والعشيرة، وعظّم نبيه محمداً ﷺ، وشَرَّفَ به آباءنا لتشريف الله إيانا، فهذه وصيتي لا كما وصى به الذي وجَّه الحجاج إلى مكة، فأمره أن يضع المجانيق على الكعبة، وأن يلحد في الحرم بظلم ففعل، فلما بلغه الخبر تمثل بقول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا»[3]

---

(١) شعره في يوم أُحد.

(٢) معلقته قوله لعمرو بن هند.

(٣) سياسة المنصور أبي جعفر الداخلية والخارجية: ٢٨٨ـ ٢٨٩، العقد الفريد: ٣/ ٣١.

ومن وصايا المنصور الحربية التي تدعو إلى الجهاد وحماية الدين الحنيف، تلك التي جاءت في إحدى فقرات وصيته لابنه المهدي، والتي يدعوه فيها إلى محاربة أعداء الإسلام والمسلمين، وذلك ببذل الأموال والأرواح. . . ناصحاً إياه بتفقد جيوشه في الليل والنهار، واعتماده على الله تعالى، يقول:

«وارغب إلى الله عزَّ وجلَّ في الجهاد والمحاماة عن دينه، وإهلاك عدوه بما يفتح الله على المسلمين، ويمكِّن لهم في الدين، وابذل في ذلك مهجتك ونجدتك ومالك، وتفقّد جيوشك ليلك ونهارك، واصرف مراكز خيلك ومواطن رحلك، وبالله فليكن عصمتك وحولك وقوتك، وعليه فليكن ثقتك واقتدارك وتوكلك، فإنه يكفيك ويغنيك وينصرك، وكفى به مؤيداً ونصيراً»[١].

ويوصي الرشيد أحد قواده (علي بن عيسى) عندما شيَّعه إلى خراسان، والتي يدعوه فيها إلى الالتزام باليقظة والحذر من العدو ومشاورة ذوي الأسنان من أهل التجارب، وفيها يدعوه إلى تقوى الله تعالى، والابتعاد عن معصيته، موضحاً له بأن في تقواه عطف للخليفة، وفي معصيته غضبه، والتي يقول فيها:

«يا عليَّ تيقَّظ في أمورك، واحترس من عدوك، وشاور ذوي الأسنان والتجارب تفتح لك أبواب المطالب، واتق الله يعطفني عليك، ولا تعصه يسلطني عليك»[٢].

ومن وصايا النساء في الأمور الحربية تطالعنا وصية زبيدة زوج الرشيد لأحد قواد ابنها الأمين (علي بن عيسى بن ماهان)، وتوضح هذه الوصية ثقة زبيدة بانتصار جيش ولدها الأمين، ولعلها قالت وصيتها هذه في بداية الاقتتال بين الأخوين حيث سبقت الأحداث من خلال ما أبدته من ثقة عالية بالنصر الأكيد على جيش المأمون.

وأخذت الوصية متسعاً من توجيه علي بن عيسى فيما يتوجب عليه رعاية

---

(١) تأريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٩٤.
(٢) الفاضل في صفة الأدب الكامل: الوشاء ٢/ ١٧.

المأمون وحسن معاملته إذا اقتيد أسيراً، كما تدلل على آداب وأخلاق زبيدة، وهي العربية الأصيلة، وعن حسن تدبيرها وحكمتها في الأمور الحربية، لا سيما وأن الحرب قائمة بين ابنها وأخيه. . . لذلك وجدنا حسن التأدب يأخذ جانباً كبيراً من الوصية حيث القيام برعاية الملوك وأبناء الملوك عند الأسر، وحفاظها حق رعاية المأمون تقديراً واحتراماً لوالده الخليفة الرشيد.

ولما كانت زبيدة تتصف بالحكمة ورجاحة العقل، جاءت وصيتها لتعبر عن بعد النظر لذلك حفظ لها المأمون صنيعها هذا بعد مقتل ابنها الأمين، فتذكر الروايات التاريخية أنه أفرد لها قصراً في دار الخلافة وأقام لها الوصائف والخدم حتى توفيت في بغداد سنة (٢١٦هـ)[١]. ومما جاء في وصيتها، قولها:

«يا علي، إن أمير المؤمنين، وإن كان ولدي، إليه تناهت شفقتي، وعليه تكامل حذري، فإني على عبد الله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى، وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه، وغاره على ما في يده، والكريم يؤكل لحمه، ويميته غيره، فاعرف لعبد الله حق والده وإخوته، ولا تجبهه بالكلام، فإنك لست نظيره، ولا تقسره اقتسار العبيد، ولا ترهنه بقيد أو غل، ولا تمنع منه جارية ولا خادماً، ولا تعنف عليه في السير، ولا تساوره في المسير، ولا تركب قبله، وخذ بركابه إذا ركب»[٢].

ولما كان الزنادقة يشكلون خطراً كبيراً على الدولة العباسية في مراحلها الأولى، عمل الخليفة المهدي على ملاحقتهم والقضاء عليهم وجعل لهم ديواناً يدعى بديوان الزنادقة، ومن شدة اهتمامه بهذا الأمر أوصى ابنه الهادي بتتبع الزنادقة والقضاء عليهم.

ولما كانت هذه الوصية تتناول موضوع الدفاع عن الدين والدولة، وذلك بمحاربة الزنادقة والتنكيل بهم والقضاء عليهم، لذلك أوردناها ضمن الوصايا

(١) النجوم الزاهرة: ابن تغري بردى ٢/ ١٢٣.
(٢) الفخري في الآداب السلطانية: ٢١٤، جمهرة خطب العرب: ٣/ ١٠٤.

الحربية. . . فالمهدي العباسي يوصي ولّي عهده إلى قضية بالغة الخطورة. . . ألا وهي محاربة الزنادقة والقضاء عليهم والتنكيل بهم، لذلك يطلب منه الاهتمام بهذا الأمر، والبحث عنهم والتخلص منهم، وقد نبهه إلى خطورتهم المتمثلة في أفكارهم ومعتقداتهم الهدامة للإسلام والمسلمين. . . وخطرهم على سلامة الدولة وبقائها، والتي جاء فيها:

«يا بني، إن صار لك الأمر، فتجرد لهذه العصابة ـ يعني أصحاب ماني . . . ـ فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا، والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم، ومسّ الماء الطهور، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً[1]، ثم تخرجها من هذا إلى عبادة اثنين، أحدهما النور، والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات، والاغتسال بالبول، وسرقة الأطفال من الطرق، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور، فارفع فيها الخشب، وجرد فيها السيف، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له، فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني بسيفين، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين»[2].

وتعكس وصايا الأمين الحربية عن شخصيته وحسن سلوكه، وترسم صورة أخرى لشخصيته تختلف تماماً عما تناقلته المصادر التاريخية التي تصفه بالعبث والمجون، وإقباله على الخمر وعدم تدبير الأمور[3].

فالأمين يدعو قائده محمد بن يزيد الذي وجَّهه لقتال طاهر بن الحسين قائد أخيه المأمون إلى التحلي بالأخلاق العربية الأصيلة، والتروي وعدم الاندفاع والبطش بالعدو. . . محذراً إياه من البغي والفساد، ناصحاً باستخدام أسلوب اللين مع أصحابه من الجند وعدم المخاطرة من أجل التزلُّف، ويوصيه بالتآزر والتضامن مع عبد الله بن حميد بن قحطبة الذي سيَّره أيضاً لقتال طاهر

---

(١) الحوب: الإثم، القاموس المحيط: ١/ ٥٨.
(٢) تأريخ الطبري: ٨/ ٢٢٠.
(٣) النجوم الزاهرة: ٢/ ١٦٠.

ابن الحسين، لتتوحد أيديهما وتتفق كلمتهما في مواجهة العدو، ومما جاء في وصيته قوله:

«أوصيك بخصال عدة: إياك والبغي، فإنه عقال النصر، ولا تقدم رجلاً إلا باستخارة، ولا تُشهر سيفاً إلا بعد إعذار، ومهما قدرت باللين، فلا تتعده إلى الخرق والشره، وأحسن صحابة من معك من الجند، وطالعني بأخبارك في كل يوم، ولا تخاطر بنفسك في طلب الزلفة عندي، ولا تستبقها فيما تخوف رجوعه عليَّ، وكن لعبد الله أخاً مصافياً، وقريناً براً، وأحسن مجامعته وصحبته ومعاشرته، ولا تخذله إن استنصرك، ولا تبطيء عنه إذا استصرخك، ولتكن أيديكما واحدة، وكلمتكما متفقة»[١].

ويوصي الأمين علي بن عيسى بن ماهان لما وجهه لقتال جيش المأمون، بالتحلي بالأخلاق الإسلامية السامية التي تنهى عن العبث بالرعية وتخريب المدن وقطع الشجر، وانتهاك الحرمات، ويضمن وصيته جملة من الأمور العسكرية التي يتوجب عليه العمل بها، خاتماً وصيته بأن يحرص على أسر أخيه عندما يلقاه، ويتبعه بنفسه إذا هرب إلى أحد كور خراسان... ومما جاء فيها قوله:

«إمنع جندك من العبث بالرعية، والغارة على أهل القرى، وقطع الشجر، وانتهاك النساء، وول الري يحيى بن علي، وأضمم إليه جنداً كثيفاً، ومُرْهُ ليدفع إلى جنده أرزاقهم، مما يجيء من خراجها، وول كل كورة ترحل عنها رجلاً من أصحابك، ومن خرج إليك من جند أهل خراسان ووجوهها فاظهر إكرامه، وأحسن جائزته، ولا تعاقب أخاً بأخيه، وضع عن أهل خراسان ربع الخراج، ولا تأمن أحداً رماك بسهم، أو طعن في أصحابك برمح... إلخ»[٢].

جـ ـ وصايا الوزراء:

عُرِفَ الوزير بمعنى: الثقل، لأنه يَرزُ عن السلطان أثقال ما أسند إليه في

---

(١) تأريخ الطبري: ٨/ ٤٢٢، جمهرة خطب العرب: ٣/ ١١٠.

(٢) المصدر نفسه: ٨/ ٤٣٠، جمهرة خطب العرب: ٣/ ١٠٥.

تدبير المملكة. واشتقاقه في اللغة من الوَزَرِ والوَزَرُ أي: الملجأ، لأن الخليفة يعتمد على رأيه ويلتجيء إليه في أموره[١].

تحدَّد منصب الوزير في العصر العباسي، بعد أن كان مقتصراً في العصر الأموي على كبار الكُتَّاب، من الذين يقرّبهم الخليفة لأخذ المشورة والرأي، فقد جاء في كتاب الفخري: «أن الوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس، فأما قبل فلم تكن متفقة القواعد ولا مقررة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية فإذا حدث أن استشار بذوي الحجا والآراء الصائبة، فكل منهم يجري مجرى وزير، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمي الوزير وزيراً، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً»[٢].

واتخذ العباسيون الوزراء ممن يجيدون الكتابة من ذوي الرأي السديد والخبرة في تصريف الأمور وتدبيرها، إذ كثيراً ما كان الوزير ينوب عن الخليفة في بعض الأعمال، ويجمع في شخصيته السلطتين المدنية والحربية، إضافة إلى الواجبات الصادرة من نصح الخليفة[٣].

وحظي الوزراء في هذا العصر بمكانة رفيعة في المجتمع، وتمتعوا برعاية وتقدير الخلفاء العباسيين، وكان لهم تأثيرهم في الأمور السياسية والشؤون العسكرية والمالية، تؤكدها تلك الوصايا الموجهة إلى الوزراء التي تدعو إلى جملة أمور يتوجب على الوزير الالتزام بها والعمل بموجبها لآداء واجبه على أكمل وجه... والتي حددها المأمون عند اختياره لأحد وزرائه، بأن يكون الوزير جامعاً لخصال الخير... يقول في ذلك:

«إني التمست لأموري رجلاً جامعاً لخصال الخير إذا لطف في خلائقه، واستقامة طرائقه، قد هذّبته الآداب وأحكمته التجارب، إن ائتمن على الأسرار

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ٦/١٠٨، لسان العرب: ٥/ ٢٨٢ـ٢٨٣.
(٢) الفخري في الآداب السلطانية: ١٥٣.
(٣) ينظر مقدمة ابن خلدون: العلّامة عبد الرحمٰن بن خلدون ٢٠٥.

كتمها، وإن قلّد مهمات الأمور نهض بها، يسكنه الحلم، وينطقه العلم، تكفيه اللحظة وتعينه اللمعة. له صولة الأمراء، وأناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الأدباء، يسترق قلوب الرجال بحلاوة كلامه، ويعجز الفضلاء بفصاحة لسانه، وحسن بيانه، ويودع محبته القلوب بلطائف حسانه، إن أُحسنَ إليه شكر، وإن ابتلى بالإساءة صبر وانتظر، فهذا الذي يصلح أن تعقد به الأمور وتفوَّض إليه سياسة الجمهور»[١].

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: أن هذه الوصايا هي قريبة كل القرب من وصايا الفرس لأصحاب هذه المهنة مثل وصية برويز لابنه شيرويه في اختيار الوزير[٢]، ووصيته لوزيره تلك التي يدعوه فيها إلى كتمان السر والصدق في الحديث والاجتهاد في النصيحة[٣]، ووصية سابور لابنه أردشير في حسن اختيار الوزير، موضحاً له الصفات التي يجب التحلي بها[٤]... من ذلك نستدل على أن العرب اقتبست منصب الوزارة من الفرس وعهدت به إلى عدد من رجالاتها من أمثال أبي سلمة الخلال، ويحيى بن خالد البرمكي، وسهل بن هارون وغيرهم.

ومن أهم المصادر التي عنيت بمنصب الوزارة، كتاب أدب الوزير للماوردي، الذي ضمنه قوانين الوزارة وسياسة الملك وأسس الوزارة، خاتماً كتابه بفصل العهود المضمن لوصايا الوزير... تلك التي أورد فيها جملة أمور توجب على الوزير الالتزام بها والعمل بموجبها لآداء واجبه على أمثل وجه، ولعل أهم ما جاء فيها توصيته بطاعة الله تعالى، وطاعة السلطان، وحسن اختيار الأعوان، وتهذيب النفس من الدنس، والتفكر فيما قدم من أعمال... وأن يتحلى بالرحمة والتواضع وخفض الجناح لمن علا وتوطئه كنفه لمن دنا، وتجافي الكبر، والشكر على النعمة، والصبر على الشدة، وأن يستدم مودة والّيه

---

(١) تحفة الوزراء: الثعالبي ٦٥، الأحكام السلطانية: الماوردي ٢٢.
(٢) ينظر الوزراء والكتاب: الجهشياري ٩.
(٣) ينظر المصدر نفسه: ٨.
(٤) ينظر المصدر نفسه: ٥ـ٦.

بالإحسان إليه، واستعمال الحزم مع العدو بعد الاحتراز منه، ناصحاً إياه بعدم بوح الأسرار إلا بمن يثق بدينه وكتمانه، داعياً إياه إلى المشاورة في أموره بالثقاة الذين يتصفون بصواب الرأي وخلوص النيَّة وكتمان السر، محذراً إياه من مدح المتملقين من المنافقين، وحمد السلطان، وشكر الرعية، وقضاء حوائجهم مع الحذر من دعوة المظلوم والابتعاد عن الشهوات[١].

ويستشهد الماوردي في وصاياه بالأحاديث النبوية الشريفة والحكم والأمثال، مضمناً إياها النصوص الشعرية للاستدلال على قوله وتأكيد معناه، ومما جاء في مستهل وصاياه، قوله:

«إجعل أيها الوزير الله تعالى على سرك رقيباً يلاحظك من زَيغ في حقه، واجعل سلطانك على سرك رقيباً يكفيك عن تقصير في أمره، ليسلم دينك في حقوق الله تعالى، وتسلم دنياك في حقوق سلطانك، فتسعد في عاجلتك وآجلتك، فإن تنافى اجتماعهما لك، فقدم حق الله تعالى على حق الملك، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[٢].

ويجعل الماوردي الدين والحق أحد أسس الوزارة عندما يوصي الوزير بالاعتماد على الدين بأن يجعله ظهيره وعونه، داعياً إياه إلى طاعة الله تعالى، مجانباً لمعصيته، يقول:

«وللدين سلطان قد انقادت إليه إمامته، واستقرت عليه دعامته، فاجعله ظهيراً لك في أمورك، وعوناً لك في تدبيرك، تجد من القلوب خشوعاً، ومن النفوس خضوعاً، فما اعتزَّت مملكة إليه إلا صالت، ولا تحققت بشعاره إلا طالت، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من رجل من المسلمين أعظم أمراً من وزير صالح مع إمام يطيعه ويأمره بذات الله تعالى»[٣]**. واجعل الله تعالى**

---

(١) ينظر أدب الوزير: الماوردي ١٤٣ـ ١٦٣.
(٢) المصدر نفسه: ١٤٣، نهاية الأرب: النويري ٦/ ١٣٢.
(٣) سنن النسائي: شرح الحافظ جلال الدين السيوطي ٧/ ١٥٩، وورد الحديث النبوي الشريف بلفظ: «من ولي منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً إن نسي ذكَّرَه وإن ذكر أعانه».

عليك في خلوتك رقيبيّ رغب ورهب، تقودك الرغبة إلى طاعته، وتصدك الرهبة عن معصيته، ليسلم باطنك من العيوب، ويخلو سرك من الذنوب»[١].

وفي وصية أخرى يدعو الماوردي الوزير إلى العدل في الأموال، بأن يأخذها بالحق ويدفعها إلى مستحقيها، ومما جاء فيها قوله:

«فعدلك في الأمور أن تؤخذ بحقها، وتدفع إلى مستحقيها، لأنك في الحقوق سفير مؤتمن، وكفيل مرتهن، عليك غرمها ولغيرك غنمها»[٢].

وعن صفات الوزير وأصحاب السلطان يذكر الحمدوني في تذكرته ما لا بد منه لصاحب السلطان وجليسه ومحادثه وأنيسه ووزرائه وغيرهم، وذلك بأن يكون جامعاً للخلال المحمودة كالعقل والعلم والود والنصيحة والوفاء وحفظ السر والعفة، والصرامة والصدق وغيرها من الصفات التي تؤهله لمصاحبة السلطان[٣].

ويورد النويري وصايا لأصحاب السلطان، ويرى أنها متقاربة من وصايا الوزراء غير متفاوتة، وفيها ما يضطر الوزير إليه[٤]... ومما جاء في إحداها قوله:

«ولا يكونن طلبك ما عند السلطان بالمسألة، ولا تستبطئه وإن أبطأ، ولكن اطلب ما عنده بالاستحقاق له والاستيفاء به وإن طالت الأناة، فإنك إذا استحققته أتاك من غير طلب، وإذا لم تستبطئه كان أعجل له»[٥].

ومما جاء في توصية بعض الأمراء لوزيره، تلك التي يدعوه فيها بأن يأمر جباة الأموال الرفق بالرعية مصوراً حالة الأذى التي يلحقها الجباة على الأموال، مشبهاً ذلك بأذى البعوضة التي تنال من الإنسان في حال لسعتها، فيقول:

---

(١) أدب الوزير: ٥٠.
(٢) المصدر نفسه: ٥٢.
(٣) ينظر نهاية الأرب: ٦/ ١٤١ـ ١٤٢.
(٤) ينظر المصدر نفسه: ٦/ ١٤٣.
(٥) المصدر نفسه: ٦/ ١٤٤.

«مُر جباة الأموال الرفق وترك الخرق، فإن العلقة تنال من الدم بغير أذى ولا سماع صوت ما لا تناله البعوضة بحرِّ لسانها وهول صوتها»[(١)].

ويوصي يحيى بن خالد بمداراة الملوك عند اصطحابهم مشبهاً ذلك بمداراة المرأة العاقلة للزوج الأحمق، يقول:

«إذا صحبت السلطان فداره مدارة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحمق»[(٢)].

ومن وصايا الوزراء التي عنيت بآداب مخاطبة الملوك؛ تلك التي جاءت في وصية الفضل ابن الربيع وزير الرشيد، التي يدعو فيها إلى الابتعاد عن مخاطبة الملوك بصيغة الاستجواب، وفيها يقول:

«إياكم ومخاطبة الملوك بكل ما يقتضي جواباً لأنهم إن أجابوكم اشتد عليهم، وإن لم يجيبوكم اشتد عليكم»[(٣)].

وينقل القلقشندي وصية لوزير، تلك التي يدعو فيها إلى تقوى الله تعالى، ويعمل على سَدِّ أزر الدولة، ويجعل العدل أحد أسس الوزارة، ويعمل من أجل السلطان، ويترك أي غرض لنفسه، ويتصرف في كيفية تثمير الأموال من جهاتها، ويُخَلص بيت المال من شبهة المال الحرام، ويُجنب إطعام العساكر والجند أكل الحرام. . . ومما جاء في بعض فقراتها قوله:

«يُوصىٰ بتقوى الله، فإنه عليه رقيب، وإليه أقرب من كلِّ قريب، فليجعله أمامه، وليطلب منه كل ما شرع فيه تمامه، وليجل رأيه في كل ما تشد به الدولة أزرها، وتسند إليه ظهرها، وليجعل العدل أصلاً يبنىٰ عليه أُسه، والعمل في أموره كلِّها لسلطانه، لا لنفسه، وليدع منه الغرض جانباً، وحظَّ النفس الذي لا يبدو إلا من العدو ليصدق من دعاه صاحباً، وليبصر كيف يثمر الأموال من جهاتها، وكيف يخلص بيوت الأموال بالاقتصار على الدراهم الحلال من

---

(١) الحكمة الخالدة: ١٢٠.
(٢) المستطرف في كل فن مستظرف: الأبشيهي ١/ ٨٩.
(٣) تحفة الوزراء: ١٢٠.

شبهاتها، ولينزه مطاعم العساكر المنصورة عن أكل الحرام، فإنه لا يُسمِن ولا يغني من جوع»(١).

د ـ وصايا الحجاب:

لم يعرف العرب في العصر الجاهلي الحجابة، فلم يتخذ ملوك العرب ورؤساء القبائل الحجاب كوسطاء بينهم وبين الناس، حتى إذا جاء الإسلام، كانت الدعوة إلى عدم احتجاب الراعي عن رعيته والتي أكدتها وصية الرسول الكريم للولاة عندما نهى عن استعمال الحجاب، وجعلها إحدى ثلاثة أمور على الولاة الاضطلاع بها، وهي: العدل في الحكم، وعدم الاحتجاب، وإقامة كلمة الله تعالى، حيث روي عنه ﷺ قوله:

«ثلاث من كن فيه من الولاة اضطلع بأمانته وأمره: إذا عدل في حكمه، ولم يحتجب دون غيره، وأقام كتاب الله في القريب والبعيد»(٢).

ومن وصايا الرسول ﷺ وصيته للإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، حين وجهه إلى بعض الوجوه، يدعوه فيها إلى عدم الاحتجاب وأن يبرز للناس ويعدل بينهم، ولا يدخل عليه أحداً يغلبه على أمره(٣).

ويقتدي الخلفاء الراشدون بالنبي الكريم في الدعوة إلى عدم الاحتجاب والنهي عنه، فقد روي عن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه كان يشترط على عماله الذين يوليهم الأمصار أربعاً:

«لا يركب برذوناً، ولا يتخذ حاجباً، ولا يلبس كتاناً، ولا يأكل درمكاً»(٤).

---

(١) صبح الأعشى: ١١/ ٢٩٣.

(٢) رسائل الجاحظ: الجاحظ ٢/ ٣٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الدرمك: دقيق الحواري، والحُوّاري: بالضم وتشديد الواو مقصور ما حور من الطعام. أي بيض، وهذا دقيق حواري أي بيضه، مختار الصحاح ١٦١ مادة حور. وينظر رسائل الجاحظ: ٢/ ٣١.

ويشدد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في توصيته لعماله في عدم اتخاذ الحجاب محذراً إياهم بأسلوب الأمر: «**إياكم والحجاب وأظهروا أمركم بالبَراز. . .**»[(١)].

ويكتب إلى عامله معاوية على الشام محذراً إياه من الاحتجاب دون الناس، قائلاً له:

«**إياك والاحتجاب دون الناس، وأْذَن للضعيف وأدنه حتى ينبسط لسانه، ويجترىء قلبه، وتعهد للغريب فإنه إذا طال حبسه وضاق إذنه ترك حقه. . .**»[(٢)].

ومما جاء في كتابه إلى عامله أبي موسى الأشعري توصيته في حُسن معاملة الرعية وتسهيل الإذن لهم:

«**آسِ بين الناس في نظرك وحجابك وإذنك. . .**»[(٣)].

وفي العصر الأموي يتحول نظام الحكم إلى مبدأ الوراثة ترافقه تغييرات في طبيعة نظام الحكم، منها اتخاذهم الحجاب وعدم السماح لأحد بالدخول عليهم إلا بعد أخذ الإذن من الحاجب الذي يقف على باب الخليفة، وذلك للتدليل على الأبهة وتعظيم السلطان الذي عرف من قبل عند ملوك الروم والفرس.

وللاستدلال على استخدام الفرس للحجاب تطالعنا وصايا كسرى أنو شروان لحجابه التي جاء بها في كتاب الشاهيني، والتي ضمنها عدة شروط لحجابة العامة وأخرى لحجابة الخاصة.

ويتواصل الخلفاء العباسيون في اتخاذ الحجاب، بل زادوا في منع الناس عن ملاقاتهم إلا في الأمور المهمة، وأصبح للحاجب في عهدهم أهمية كبيرة

---

(١) رسائل الجاحظ: ٢/ ٣١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

حيث تطورت هذه المهنة وأصبح لها شأن كبير، وهذا ما نلاحظه من خلال توصية الخلفاء العباسيين لهم... حيث أخذ الحاجب يشغل منصباً إدارياً مهماً[١]، فهو صلة الاتصال بين الخليفة والرعية وينبغي له التحلي بعدة صفات أهمها تلك التي أوردها الخليفة المنصور، بقوله:

«لا ينبغي أن يكون الحاجب جهولاً، ولا غبياً، ولا عيياً، ولا ذهولاً، ولا متشاغلاً، ولا خاملاً، ولا محتقراً، ولا جهماً، ولا عبوساً»[٢].

ويوضح الخليفة المنصور عيب كل صفة من هذه الصفات التي تسيء للخليفة قبل أن تسيء للحاجب.

ومن خلال الوصايا الموجهة من الخلفاء والأمراء العباسيين إلى الحجاب نرى اهتمامهم بأصحاب هذه المهنة، فهم الوجوه التي يلقون بها الرعية، والتي تضمنت توصياتهم جملة أمور أهمها: حسن معاملة الرعية، وتقدير مقامات الناس ومنازلهم، والوقوف عند حاجاتهم، والتي كانت معانيها مستمدة من تعاليم الدين الإسلامي الحنيف في حسن معاملة الرعية والوقوف على حاجاتهم وإجابة طلباتهم.

ومن وصايا الخلفاء العباسيين تطالعنا وصية الخليفة المنصور لحاجبه الخصيب، والتي توضح أهمية منصب الحجابة، فالحاجب عظيم المنزلة، عريض الجاه عندما يشرفه الخليفة بمنصب الحجابة، وهو لذلك يدعوه إلى الإبقاء عليها بحسن معاملة المحجوبين ومقابلتهم بالبشاشة وطلاقة الوجه وسهولة الإذن، وهو ما يكون له أوقع الأثر في قلوبهم... قال:

«إنك بولايتي عظيم القدر، وبحجابتي عريض الجاه، فبقها على نفسك، إبسط وجهك للمستأذنين، وصن عرضك عن تناول المحجوبين، فما شيء أوقع في قلوبهم من سهولة الحِجاب والإذن، وطلاقة الوجه»[٣].

---

(١) ينظر مقدمة ابن خلدون: ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٢) رسائل الجاحظ: ٢/ ٣٧ـ ٣٨.

(٣) محاضرات الأدباء: ١/ ٢٠٥.

وتناولت بعض فقرات وصايا الخلفاء، الحجابة. . . فالمنصور يرشد ابنه بالتيقظ وتفقُّد الذين يقفون على بابه، وبتسهيل الإذن لهم، والنظر في مطالبهم، يقول:

«وخذ نفسك بالتيقظ، وتفقَّد من يبيت على بابك، وسهِّل إذنك للناس، وانظر في النزاع إليك، ووكِّل بهم عيناً غير نائمة»[١].

ويوصي المهدي الفضل بن الربيع حين ولّاه الحجابة موضحاً له أهمية منصبه، فهو وجهه الذي يلقى به الناس، فعليه حسن معاملة الرعية واستقبالهم بالبشاشة والترحيب. ناصحاً إياه بتفضيل أولياء الله الصالحين على أبناء الدعوة، وتعيين وقت للعامة وتعجيل دخولهم عليه. . . يقول:

«إني مولّيك ستر وجهي وكشفه، فلا تجعل الستر بيني وبين الناس يسبب إراقة دمائهم لعبوس وجهك في وجوههم، فإن لهم دالة الحرمة وحرمة الاتصال، وقَدّم أبناء الدعوة، وثنِّ بالأولياء، واجعل للعامة وقتاً إذا وصلوا أعجلهم ضِيقةُ عن التلبث والتمكُّث»[٢].

ويوصي الخليفة موسى الهادي حاجبه بوصية يدعوه فيها إلى عدم منع الناس عنه، محذراً إياه من رفع الشكاوى الباطلة المنافية للحق، وذلك بالتحقق من صحة المظالم، وألا تكون إلا في الحق، موضحاً له خطورة هذا الأمر؛ لأنه إذا رفع إليه أمراً باطلاً على أنه حق كان داعياً إلى هلاك المملكة، يقول:

«لا تحجب الناس عني، فإن ذلك يزيل التزكية، ولا تلق إليَّ أمراً إذا كشفته وجدته باطلاً، فإن ذلك يوتغ[٣] المملكة»[٤].

ويستخدم بعض الخلفاء أسلوب الأمر في توجيه حاجبه ويأمره فيها إعطاء الإذن للناس جميعاً للدخول عليه في مجلسه، ويدعوه إلى حسن معاملة الرعية،

---

(١) تأريخ الطبري: ٨/ ١٠٦.
(٢) المحاسن والمساوىء: البيهقي ١/ ٢٦٢ـ ٢٦٣.
(٣) يوتغ: الوَتغ محركة الإثم والهلاك، القاموس المحيط: ٣/ ١١٥.
(٤) رسائل الجاحظ: ٢/ ٣٣.

وخفض الجناح لهم، ويودع وصيته جملة من النصائح في حسن التعامل مع الرعية والمساواة بينهم وتقديمهم حسب الكفاية لا على الميل والهوى، وذلك في قول المهدي:

«إذا جلست فأذن للناس جميعاً عليَّ، وابرز لهم وجهي، وسكِّن عنهم الأحراس، واخفض لهم الجناح، وأطب لهم بشرك، وألن لهم في المسألة والمنطق، وارفع لهم الحوائج، وسوِّ بينهم في المراتب، وقدمهم على الكفاية والغَناء، لا على الميل والهوى»[١].

وكان للحاجب شأن كبير عند الخلفاء لأنه على اتصال مباشر بالرعية، وهو عين الخليفة التي ينظر فيها، لذلك يسأل بعض الخلفاء حاجبه عن عمله، فيؤكد له الحاجب بأنه ينظر إلى الرعية بعين الخليفة ويقدمهم حسب مراتبهم ويبطئهم حسب مواضع استحقاقهم، ويرتبهم وفق ترتيب الخليفة، مبيِّناً أمانته في رفع مظالم الرعية إلى الخليفة، وإبلاغ الرعية بما يوجهه الخليفة من أوامر بحقهم[٢].

وتوضح وصية سهل بن هارون للفضل بن سهل أهمية مهنة الحاجب، فهو وجه الملك في الرأفة والغلظة... لذلك عليه اتخاذ حاجبه ممن عرف بطبيعته السهلة، رؤوفاً معروفاً بالبر والرحمة، جميل في هيبته، حسن في أفعاله، يفاضل الناس في الإذن حسب مراتبهم... يجمع القلوب إليه ويعاملهم حسب منازلهم.

ويروي المدائني عن زياد بن أبيه توصيته لحاجبه التي وجَّهها بأسلوب الخطاب المباشر معلناً فيها توليته الحجابة، محذراً إياه بالعزل إذا لم يلتزم بأربعة أمور حددها له وأوجب عليه طاعته فيها، وهي: ألا يحجب عنه من طرق بابه ليلاً، ورسول جاء من الثغور، والمنادي بالصلاة، وصاحب الطعام، والتي جاء فيها:

(١) رسائل الجاحظ: ٢/ ٣٣.
(٢) المصدر نفسه.

«يا عجلان قد ولّيتك بابي، وعزلتك في أربعة: طارق ليل، فشر ما جاء به أو خير، ورسول صاحب الثغر، فإنه إن تأخر ساعة بطل به عمل سنة، وهذا المنادي بالصلاة، وصاحب الطعام، فإن الطعام إذا ترك برد، وإذا أعيد عليه التسخين فسد»[١].

ويوصي خالد بن عبد الله القسري حاجبه بعدم حجب أحد عنه إذا أخذ مجلسه، ويذكر له بأن الوالي لا يحجب الناس إلا عن ثلاثة: الرجل ذو العاهة، والبخيل، ومن كانت فيه سَوُءة[٢].

٢ ــ وصايا دينية وخلقية

أ ــ وصايا الوعاظ للخلفاء:

ظهرت طبقة الوعاظ في العصر الأموي، وصدرت وصاياها الوعظية للخلفاء، سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز، هشام بن عبد الملك، وتميزت هذه الطبقة بالتقوى والورع، وعمدت إلى توجيه الخلفاء للالتزام بمبادىء الدين الحنيف والخوف من غضب الله تعالى والعمل على طاعته... وذلك بحسن معاملة الرعية والرفق بهم والعمل على تدبير حياتهم وحماية دولتهم.

ويتسع مجال الوعظ في العصر العباسي، ويشتهر عدد كبير من الوعاظ ممن عرفوا بالتقوى والزهد، ولعل ذلك يرجع إلى رد الفعل على الظواهر الاجتماعية والسلوكية الجديدة التي طرأت على واقع المجتمع العباسي نتيجة الامتزاج بالأمم الأجنبية، وعلى رأسها الفرس، والتي تتنافى مع سلوك العرب وتعاليم دينهم الحنيف... وتكفلت طبقة من الوعاظ في توجيه وصاياهم الوعظية للخلفاء العباسيين متخذة من تسامح الخلفاء وسعة صدورهم لسماع نصحهم وإرشادهم طريقاً لتوجيه وصاياهم الوعظية التي عنيت في الترغيب

(١) رسائل الجاحظ: ٢/ ٣٦.
(٢) ينظر المصدر نفسه.

بالآخرة والترهيب من الدنيا وزخرفها، والعمل من أجل الآخرة بطاعة الله تعالى، وشدة الخوف من عذابه.

وكان لحرية الفكر في العصر العباسي وتسامح الخلفاء وتقبلهم للنصح والتوجيه الديني الأثر الكبير على جرأة القول وغلظته أحياناً، والذي كان يؤدي إلى تأثر الخلفاء بأقوالهم فتعقدهم الهموم وقد يأخذهم البكاء مما يستدعي برجال الخليفة إلى منعهم من الوعظ... إلا أن الخلفاء كانوا يمنعونهم من التعرض لهم رغبة منهم في سماع توصياتهم المضمنة للوعظ الديني للاسترشاد بها والسير على منهجها لتستقيم حياتهم وتبعدهم عن مواضع الزلل والشطط.

وامتازت وصايا الوعاظ للخلفاء بفصاحة اللفظ ووضوح المعنى وكثرة الاستشهاد بآي الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف، وأقوال الصحابة والتابعين، غايتهم من ذلك إثارة المشاعر وسرعة التأثير.

وتأتي بعض وصايا الوعاظ للخلفاء بطلب من الخلفاء أنفسهم رغبة منهم في وعظهم وإرشادهم نحو سبل الخير والرشاد. فقد أورد الماوردي بأن «كثير من الخلفاء إذا أحسوا من أنفسهم بعجب أو فظاظة أو تيه أو قساوة سألواالعلماء أن ينصحوهم ويعظوهم»[١].

من ذلك ما جاء في وصية الأوزاعي للمنصور عندما أرسل بطلبه... حيث يقول:

«... فحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظراً، ولما استطاع من عوراتهم ساتراً، وبالقسط فيما بينهم قائماً، لا يتخوف محسنهم منه رهقاً، ولا مسيئهم عدواناً...»[٢].

ويوصي سفيان الثوري المنصور عندما يلقاه بمكة مخاطباً إياه بأسلوب الأمر الذي يقرب إلى التوبيخ منه إلى التنبيه والتوجيه، داعياً إياه أن يتقي الله في المسلمين وأن يكف عن حالة الإسراف التي يعيشها بينما يموت أبناء

(١) نصيحة الملوك: الماوردي ٦٣.
(٢) عيون الأخبار: ٢/ ٣٣٨.

المهاجرين والأنصار الذين لهم الفضل في مساندة الدعوة الإسلامية حتى وصلت الخلافة إليه... ونجد في غلاظة قول سفيان الثوري دلالة واضحة على الحرية التي تمتع بها الوعاظ، والتي قال فيها:

«دخلت على أبي جعفر المنصور بمنىً، فقلت له: اتق الله، فإنما أُنزلت هذه المنزلة، وصرت إلى هذا الموضع، بسيوف المهاجرين والأنصار وأبناؤهم يموتون جوعاً، حج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فما أنفق إلا خمسة عشر ديناراً، وكان ينزل تحت الشجر، فقال لي: إنما أريد أن أكون مثلك، فقلت له: لا تكن مثلي ولكن كن دون ما أنت فيه وفوق ما أنا فيه، فقال لي: أخرج، قال الثوري: فقلت له: إني لأعلم مكان رجل واحد لو صلح صلحت الأمة كلها، قال: من هو؟ قلت: أنت يا أمير المؤمنين»(١).

وتحمل توصية عمرو بن عبيد التوجيه الديني، عندما يوصي المنصور بواجب الشكر لله تعالى على ما حباه من النعم الكبيرة وفضّله على الناس كلهم، وجعله خليفة المسلمين، لذلك عليه واجب الشكر والطاعة لله تعالى... ولعل هذه التوصية جاءت لتؤكد قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ والتي جاء فيها: دخل عمرو بن عبيد على أبي جعفر فقال له: عظني، فوعظه بكلام طويل افتتحه بأن قال:

«إن هذا الأمر لو كان يدوم لمن كان قبلك لم يصل إليك، وإن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتري نفسك منه ببعضها، واعلم أنه واقفك وسائلك عن مثاقيل الذر من الخير والشر، وأن أمة محمد خُصماؤك يوم القيامة، وأن الله لا يرضى منك إلا بما ترضى لنفسك، وإنك لن ترضى لنفسك إلا بأن يُعدَلَ عليك، وأنه لا يرضى منك بالعدل على الرعية، إنَّ من وراء بابك نيراناً تأجج من الجور»(٢).

ويوجه شبيب بن شيبة توصية إلى الخليفة المنصور مذكراً إياه بفضل الله

---

(١) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار: ابن عربي ١/ ٢٤٠.
(٢) نصيحة الملوك: ٦٤.

تعالى عليه، عندما قسم الناس إلى منازل، وجعله في أعلاها وأسناها، لذلك عليه الحفاظ على هذه المنزلة العالية التي حباه الله تعالى بها في الآخرة، كما حباه بها في الدنيا. ودلالة معانيه توضح توجيهه بأسلوب الوعظ الديني إلى تقوى الله تعالى والعمل بأوامره ونواهيه لنيل ثواب الآخرة... يقول:

«يا أمير المؤمنين، إن الله تبارك وتعالى يوم قسم أقسامه بين خلقه، لم يرض لك منها إلا بأعلاها وأسناها، فلم يجعل فوقك في الدنيا أحداً، فلا ترضى لنفسك إذا فعل بك ذلك أن يكون فوقك في الآخرة أحد، واتق الله يا أمير المؤمنين، فإنها وصية الله إليكم جاءت وعنكم قبلت وإليكم ترد»(١).

ويطلب الخليفة هارون الرشيد الموعظة من ابن السماك، فيجيبه ابن السماك: «كفى بالقرآن واعظاً»، موضحاً له النهج الذي يسير عليه للاسترشاد بهدى القرآن الكريم وأحكامه والعمل بما أمر الله تعالى في محكم كتابه المبين وما نهى عنه، وبذلك يأخذ الموعظة التي فيها صلاح دينه ودنياه، وفيها الطريق والنهج الذي يسير عليه، لتستقيم حياته ويهنأ عيشه، ومعه كل المسلمين في أرجاء الأمة الإسلامية، والتي جاء فيها:

«قال الرشيد لابن السماك: عظني يا ابن السماك وأوجز، قال: كفى بالقرآن واعظاً يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى: بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ - إلى قوله: لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٢) هذا يا أمير المؤمنين وعيد لمن طفف في الكيل فما ظنك بمن أخذه كله؟»(٣).

وتأتي توصية شيبان الراعي للرشيد بطلب من الخليفة نفسه في النصح والتوجيه الديني... ومما جاء في توصيته: ضرورة ملازمة من يخوفه من الدنيا ويعظه قبل وصوله إلى مرحلة الخوف من الآخرة وأهوالها... ويسأل الخليفة

---

(١) الأخبار الموفقيات: الزبير بن بكار ٣٠٠، العقد الفريد: ١/ ٣٠٧، المحاسن والمساوىء: ٢/ ١٧٦، وفي العقد الفريد والمحاسن: أن الموصى له هو الخليفة المهدي، وكذلك في عين الأدب والسياسة: ٢٢١.

(٢) سورة المطففين: الآية ٢.

(٣) العقد الفريد: ٣/ ١٦٤.

الرشيد عن معنى قوله هذا، فيوضح له بأن الذي يدعوه إلى تقوى الله تعالى في رعيته هو الذي يريد إيصاله إلى بر الأمان وهو بتخويفه له أنصح ممن يؤمنه، ونقتطف منها قوله:

«اتق الله فإنك رجل مسؤول عن هذه الأمة، استرعاك الله عليها، وقلّدك أمورها، وأنت مسؤول عنها، فاعدل في الرعية، واقسم بالسوية، وأنفر في السرية، واتق الله في نفسك، هذا هو الذي يخوفك، فإذا بلغت المأمن آمنت، هو أنصح لك ممن يقول لك أنت من أهل بيت مغفور لهم، وأنت من قرابة نبيكم وفي شفاعته، فلا يزال يؤمنك حتى إذا بلغت الخوف عطبت»[1].

ب ــ وصايا الوعاظ لعامة المسلمين:

ازدهر الوعظ والإرشاد الديني في العصر العباسي، وشهد القرنان الثاني والثالث الهجريان ظهور عدد كبير من الوعاظ[2]، ممن توجهوا بتوصية الناس ووعظهم وتذكيرهم بما ينبغي على المسلم فعله تجاه خالقه ودينه، والذي ظهر تأثره بالقرآن الكريم والسنَّة النبويَّة الشريفة... وكان مرافقاً لتدهور الحياة السياسية، ونتيجة للفوضى وفقدان الأمن الذي أدى إلى ظهور حركات مضادة تقاوم العبث والمجون المرافق لهذه الأحداث، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

واستمر الوعظ بملامحه التي كان عليها في القرون السابقة حتى القرن السادس الهجري، حيث ازداد نشاط الوعاظ في هذا العصر، وظهر عدد كبير منهم ممن كانوا على قدر كبير من العلم والمعرفة من أمثال الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، وأبي الفداء بن عقيل (ت ٥١٣هـ)، وعبد القادر الجيلي (ت ٥٦١هـ)، وابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) وغيرهم. ولعل ذلك يرجع إلى التدهور السياسي الخطير في بغداد وضعف الخلافة العباسية، وضياع هيبتها، وتسلُّط الأجانب عليها، وبدايات حالة التداعي التي أدت إلى سقوط بغداد على

---

(١) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار: ١/ ٢١٧.

(٢) ينظر تراجم الكثيرين منهم: في تأريخ الطبري، ومروج الذهب للمسعودي، وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني، وتأريخ بغداد للخطيب البغدادي، والمنتظم لابن الجوزي، والكامل لابن الأثير، وتراجمهم موجودة في كتب الطبقات والوفيات.

أيدي التتار سنة ٦٥٦هـ. . . والذي أدى بدوره إلى زهد الناس فيما يدور حولهم من أمور الحياة والتفافهم نحو الوعاظ لسماع وصاياهم وتوجيهاتهم الوعظية. . . حتى أصبح فن الوعظ في بغداد في هذه الفترة سمَّة بارزة من سماتها، وراجت مجالسه رواجاً كبيراً فاق مجالس الوعظ في المدن الإسلامية الأخرى[١].

وتحث معاني الوصايا التي توجه بها الوعاظ لعامة المسلمين نحو سبل الخير والرشاد والالتزام بمبادىء الدين الحنيف، والتحذير من الدنيا وزخرفها وترك ملذاتها، والتخويف من عذاب الآخرة، والترغيب في الجنة ونعيمها، والدعوة إلى الأخلاق الإسلامية الفاضلة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

ومن وصايا الصالحين التي جاءت بالأسلوب المسجوع، تلك التي يدعو الواعظ فيها المسلمين إلى قبول النصيحة بالعمل من أجل الآخرة، لأن الحياة أمدها قصير والسعيد من أعد لها وتهيأ للرحيل، خاتماً وصيته بأبيات من الشعر في نفس المعنى، يقول:

«إخواني اقبلوا ناصح لكم واعملوا لآخرتكم في هذه الأيام التي تسير كأنها تطير، وتلوح كأنها ريح، فما انقضت ساعة من أمسك إلا وأخذت بضعة من نفسك، والسعيد من اعتبر بأمسه، واستظهر لنفسه، والشقي من جمع لغيره، وبخل على نفسه بخيره. قال الشاعر:

كل يوم يمرُّ يأخذ بعضي يورث القلب حسرة ثم يمضي»[٢]

وطلب رجل من بعض الصالحين الوصية، فأوصاه بتقوى الله تعالى في العلانية والسر، وفعل الخير ما استطاع إليه سبيلاً، والحفاظ على الأمانة وصدق الحديث، ومما جاء فيها قوله:

---

(١) ينظر أثر الوعظ والوعاظ في بغداد في القرن السادس الهجري في الحياة السياسية والاجتماعية: جهاد عبد حسين العلواني ٦٣ـ ٦٦، رسالة ماجستير.
(٢) عين الأدب والسياسة: ٢١٧.

«اتق الله في سرك وعلانيتك، وافعل الخير ما أمكنك، ولا تُضِع أمانة من ائتمنك، أو صدق الحديث ساءك أو أحزنك»[(١)].

ويوصي بعض الصالحين المسلمين واعظاً إياهم بالأسلوب المسجوع... داعياً باغتنام الفرص والعمل من أجل الآخرة قبل دنو الأجل، يقول:

«اغتنم تنفس الأجل، وإمكان العمل، واقطع ذكر المعاذير والعلل، فإنك في أجل محدود، ونفس معدود، وعمر غير ممدود، والطبيب معذور إذا لم يدفع المقدور»[(٢)].

ويطلب عبد الله بن إدريس[(٣)] التوصية من داود بن نصير الطائي[(٤)]، فيوصيه بالعزوف عن ملذات الدنيا وزخرفها، مشبهاً حياته كيوم صامه حتى إذا أفطر وجاء أجله مات فلم تلحقه الذنوب، وعندها ينال ثواب الآخرة... ويطلب منه المزيد من الوعظ، فيوصيه بالعمل فيما أمره الله تعالى به وترك ما نهى عنه... ويطلب منه المزيد، ويتابع قوله فيوصيه بالقناعة والرضا بما قسم الله تعالى من الرزق مع الحفاظ على الدين مشبهاً حالته هذه بحالة من طلب الرزق الكثير مع هلاك دينه، حيث يقول فيها:

«اجعل الدنيا كيوم صمته، واجعل فطرك الموت، فكأن قد، والسلام. قال: زدني، قال: لا يرك الله عند ما نهاك عنه، ولا يفتقدك عند ما أمرك به. قال: زدني، قال: إرضَ باليسير مع سلامة دينك، كما رضي قوم بالكثير مع هلاك دينهم»[(٥)].

---

(١) عين الأدب والسياسة: ٢٥٦.

(٢) المصدر نفسه: ٢١٨.

(٣) عبد الله بن إدريس، من أعلام حفاظ الحديث حجة فيما يرويه، تنظر ترجمته في تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٥٩، تهذيب التهذيب: ٥/ ١٤٤.

(٤) داود بن نصير الطائي: من أئمة المتصوفين في أيام المهدي العباسي، أصله من خراسان ومولده بالكوفة، رحل إلى بغداد فأخذ عن أبي حنيفة وغيره، ينظر عنه حلية الأولياء: ٧/ ٣٣٥، وفيات الأعيان: ابن خلكان ٢/ ٢٩.

(٥) البيان والتبيين: ٣/ ١٧٠ـ ١٧١، صفة الصفوة: عبد الرحمٰن ابن الجوزي ٣/ ٧٥.

جـ ـ وصايا المتصوِّفين لعامة المسلمين:

النثر الصوفي نوع أدبي ينتسب إلى جنس النثر الخطابي[(١)]، ومن أنواعه: الوصايا التي تدور «على إثارة المشاعر لفعل الخير، وتجنُّب الشر، وتوجيه النفوس نحو الله تعالى»[(٢)].

وغالباً ما تعتمد وصايا الصوفية على أسلوب الخطاب، وتختلط عندهم بالموعظة فتكون هذا النوع المتميز عن سواه «وهو نوع تطلبه موضوعه، وهدف قائله اللذان يصبان في محاولة التأثير في المستمع»[(٣)].

ويستعمل الصوفية مصطلح الوصية كرديف للموعظة، فثمة وصايا سبقت بطلب الوصية من الشيخ أو الأستاذ، الذي يوصي بما يعن له من معان تتعلق بالصوفية[(٤)]... وهذا يدل على «أن الوصية كانت تطلب كثيراً جداً من الصوفية»[(٥)].

وثمة وصايا أخرى لم يستعمل فيها طلب أوصني، بل عظني، كوصية الفضيل بن عياض للرشيد[(٦)]، ووصية ذي النون المصري للمتوكل[(٧)].

ومما يدل على استعمال الصوفية مصطلح الوصية للدلالة على الموعظة، ما جاء من مواعظ في أحد أبواب كتاب اللمع تحت «باب في وصاياهم التي أوصى بها بعضهم البعض»[(٨)]، وفي موعظتي أبي عبد الرحمٰن السلمي[(٩)]، وعبد الكريم القشيري[(١٠)]، اللذين أسمياها (الوصية).

وتأتي الوصايا استجابة لطلب تقترب في تركيبها من الأجوبة «ولا سيما

(١) النثر الصوفي في الأدب العربي: فائز طٰه عمر ١٣٨، أطروحة دكتوراه.
(٢) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة وكامل المهندس ٢٣٩.
(٣) النثر الصوفي في الأدب العربي: ١٥٦.
(٤) ينظر المصدر نفسه.
(٥) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق: د. زكي مبارك ٢/ ٨١.
(٦) ينظر حلية الأولياء: ٨/ ١٠٥.
(٧) ينظر المصدر نفسه: ٩/ ٣٣٧.
(٨) اللمع: أبو نصر السراج ٣٣٤.
(٩) النثر الصوفي في الأدب العربي: ١٥٧.
(١٠) الرسالة القشيرية: عبد الكريم القشيري ٢/ ٧٣١.

في الطلب وإجابته، وفي قصرها وخطابيتها وشفويتها، فقد حلت في مصنفات الصوفية عن طريق السماع والرواية الشفوية»[١]. . .

ومنها على سبيل المثال قول رجل لداود الطائي: «**أوصني، فقال: عسكر الموتى ينتظرونك**»[٢].

وقول رجل للجنيد: أوصني، فقال: «**أرض القيامة كلها نار، فانظر أين تكون رجلك**»[٣].

وتتميز وصايا الصوفية بالقصر، وقد يطول بعضها، كوصية معروف الكرخي[٤]، عندما سأله رجل فقال:

«**أوصني، فقال: توكل على الله حتى يكون جليسك، وأنيسك، وموضع شكواك، وأكثر ذكر الموت، حتى لا يكون لك جليس غيره. واعلم أن الشفاء لما نزل بك كتمانه، وأن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك ولا يعلمونك ولا يمنعونك**»[٥].

وتطلب الوصية من أبي القاسم الجنيد، فيقول:

«**أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالقرآن، فإنه نور الليل المظلم، وهدى النهار، فاعملوا به على ما كان من جهد وفاقة، فإن عرض بلاء فقدم مالك دون نفسك، واعلم أن المحروب من حرب دينه، والمسلوب من سلب نفسه، وأنه لا غنى بعد النار، ولا فقر بعد الجنة، وأن النار لا يفك أسيرها ولا يستغني فقيرها**»[٦].

وتؤكد وصية الجنيد على الالتزام بتقوى الله تعالى، والعمل بما جاء في

---

(١) النثر الصوفي في الأدب العربي: ١٥٨.
(٢) الرسالة القشيرية: ١/ ١٤.
(٣) تأريخ بغداد: الخطيب البغدادي ٧/ ٢٤٥.
(٤) معروف الكرخي: هو معروف ابن الفيرزان الكرخي ت ٢٠٠هـ من الطبقة الخامسة من المصطفين من أهل بغداد، صفة الصفوة ٢/ ٣٢٤.
(٥) المصدر نفسه: ٣/ ٣٢١.
(٦) البصائر والذخائر: أبو حيان التوحيدي ٣/ ٤٣٣-٤٣٤.

القرآن الكريم، والحفاظ على تعاليم الدين الإسلامي الحنيف لنيل الثواب في الآخرة.

ويطلب مسلم الخّواص من محمد بن علي الصوفي الوصية، فيوصيه بتقوى الله تعالى في كل أموره... وأن يؤثر رغبة الله تعالى ومرضاته على كل رغباته، فيقول:

«أوصيك بتقوى الله في أمرك كله، وإيثار ما يحب على محبتك، وإياك والنظر في كل ما دعاك إليه طرفك وشوقك إليه قلبك، فإنهما إن ملكاك لم تملك شيئاً من جوارحك، حتى تبلغ لهما ما يطالعانك به، وإن ملكتهما كنت الداعي إلى ما أردت، فلم يعصيا لك أمراً ولم يردا لك قولاً»[١].

ويدعو مسلم الخّواص إلى ترك شهوات النفس، حتى لا تتملك الإنسان، وأن يعمل على تملكها فتطيعه في أقواله وأفعاله.

ولا يسبق الكثير من الوصايا القصيرة بطلب الوصية، بل يشرع الموصي في وصيته مباشرة[٢]، كوصية أبي العباس بن عطاء لبعض إخوانه حيث يقول:

«احذروا أن يكون غمومكم من أجل ما يظهر لكم، وعليكم بما شاء الله دون أن تشاؤون»[٣].

ووصية أبي علي الدقاق التي جاء فيها:

«إلبس مع الناس ما يلبسون، وتناول ما يأكلون، وانفرد عنهم بالسر»[٤].

ووصية جعفر بن محمد لأصحابه التي يقول فيها:

«عليكم بالصبر! فإن به يأخذ الحازم، وإليه يعود الجازع»[٥].

كذلك يبدأ بعض الموصين في الوصايا الطويلة بالتوصية مباشرة، دون

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ٣/ ٨٦٧.
(٢) ينظر النثر الصوفي في الأدب العربي: ١٥٨.
(٣) اللمع: ٣٣٤.
(٤) الرسالة القشيرية: ١/ ٣٣٨.
(٥) الحكمة الخالدة: ١١٧.

طلب من أحد، كتوصية إبراهيم بن أدهم، التي جاء فيها:

«إياكم والكِبَر، إياكم والإعجاب بالأعمال، انظروا من دونكم ولا تنظروا من فوقكم، من ذلَّل نفسه رفعه مولاه، ومن خضع له أعزَّه، ومن اتقاه وقاه، ومن أطاعه أنجاه، ومن أقبل عليه أرضاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن سأله أعطاه، ومن أقرضه قضاه، ومن شكره جازاه، فينبغي للعبد أن يزن نفسه قبل أن يوزن، ويحاسب نفسه قبل أن يُحاسب، ويتزين ويتهيأ للعرض على الله العلي الأكبر»[١].

وإبراهيم بن أدهم يدعو في وصيته إلى التواضع والابتعاد عن التكبر والتفاخر، الذي نهى عنه الدين الإسلامي الحنيف، ويرسم طريق النجاة بالاعتماد على الله تعالى في أموره كلها.

ووصية أبي الحسن النووي التي أوصى بها بعض أصحابه فدعاهم إلى عشرة أمور يتوجب على المسلم اتباعها والعمل بموجبها، ومنها: أن لا يصاحب من يُشرك مع الله إلٰهاً آخر، والذي يتكل إلى غير أبناء جنسه وإلى من يطلب الرئاسة والمُلك، ومما جاء فيها، قوله:

«عشرة وأي عشرة، احتفظ بهن واعمل عليهن جهدك، فأولى ذلك: من رأيته يدعي مع الله عزَّ وجلَّ حالة تخرجه عن حد علم النوع فلا تقربن منه. والثانية: من رأيته يركن إلى غير أبناء جنسه ويخالطهم فلا تقربن منه. والثالثة: من رأيته يسكن إلى الرئاسة والتعظيم له فلا تقربن منه، ولا ترتفق به وإن أرفقك، ولا ترح له فلاحاً...»[٢].

وبأسلوب الخطاب المباشر يوصي بعض أئمة الصوفية ولده ناصحاً إياه بحسن السيرة، وعلو الهمة، والسير على طريقة الصوفية، وأن يجمع بين الشريعة والحقيقة، ويلتزم بالكتاب والسنَّة والإجماع والقياس، ويعامل نفسه وغيره بالمعروف، فيقول:

---

(١) حلية الأولياء: ٨/ ٤٠.

(٢) المصدر نفسه: ١٠/ ٢٥٢.

«يا بني، عليك بالسيرة الجميلة، والهمَّة الجليلة، والسير على الطريقة، والجمع بين الشريعة والحقيقة، ولا يظهر عليك إلا بسر مخزون، وأمر موزون، وفكر يجول فيما هو كائن ويكون، واجعل الشرع في عينيك، والعقل في شمالك، والتفويض بينهما، واحكم في شأنك كله بالكتاب والسنة، والإجماع والقياس، وعامل نفسك وغيرك بالمعروف»[١].

د ــ وصايا الحكماء:

الحكيم: هو الشيخ المجرب المنسوب إلى الحكمة. والحكمة: العدل في الأمور. والحكيم: هو المتقنُ للأمور، ويقال للرجل إذا كان حكيماً: قد أحكمته التجارب[٢]. . . ويقول ابن دريد:

«كل كلمة وعظتك، أو زجرتك، أو دعتك إلى مكرمة، أو نهتك عن قبيح، فهي حكمة»[٣].

أما صاحب العين فيذكر:

«وكل شيء منعته من الفساد فقد حكمته وأحكمته»[٤].

وبهذا تتحدد العلاقة بين الوصايا والحكم، فكلاهما يدعو إلى النصيحة المعبرة عن إرادة الخير للمنصوح له[٥]. . . وتبعاً لذلك تتضمن الوصايا المعاني الحكمية، لأنها تنقل خبرة الموصي ودربته في الحياة المتشعبة، وهذا لا يعني أن منشئها حكيم، فيما عدا الوصايا التي تنسب للحكماء، والتي أفردنا لها هذا التصنيف.

ولوصايا الحكمة أهمية بالغة لأنها تعالج بحدة بصر ورجاحة عقل مختلف ضروب الحياة الدينية والدنيوية، وذلك يعود إلى أن الحكيم قد خرج

---

(١) عين الأدب والسياسة: ٢٥٨ـ ٢٥٩.
(٢) ينظر لسان العرب: مادة حكم.
(٣) جمهرة اللغة: ابن دريد، مادة حكم.
(٤) العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، مادة حكم.
(٥) ينظر غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب: محمد السفاريني الحنبلي ١/ ٤٥.

من تجارب الحياة المختلفة بالكثير من العبر والأفكار المتنوعة التي يريد لها الذيوع والانتشار.

ومن مميزاتها: الإيجاز ودقة التعبير، وغالباً ما تكون زاخرة بالأقوال البليغة المؤثرة في النفوس، التي تفصح عن مكامن قوة المنشيء وحكمته[(١)].

ووصايا الحكماء كثيرة في مظانها، متنوعة في موضوعاتها، لا يسعها جميعاً مجال هذا التصنيف، لذلك آثرنا عرض نماذج منها للاستدلال وليس الحصر.

ومن وصايا الحكماء: ما جاء في وصية بعضهم لابنه، تلك التي ينصحه فيها بالجود بالمال والبخل في الأسرار، فيقول:

«يا بني كن جوّاداً بالمال في موضع الحق، ضنيناً بالأسرار عن جميع الخلق، فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البر، والبخل بمكتوم السر»[(٢)].

ويوصي أحد الحكماء بطلب العلم وتعليم الآخرين، ففي الأولى يعلم ما جهل، وفي الثانية يحفظ ما علم، يقول:

«علِّم من يجهل وتعلَّم ممن يعلم، فإذا فعلت ذلك حفظت ما علمت، وعلمت ما جهلت»[(٣)].

وعن تقبل العلم يوصي بعض الحكماء بقصد ما هو أقرب للنفس وأسهل على القلب، فيقول:

«اقصد من أصناف العلم ما هو أشهى لنفسك، وأخف على قلبك، فإن نفاذك فيه على حسب شهوتك له وسهولته عليك»[(٤)].

وعن حسن التأدُّب يوصي بعضهم أولاده مبيناً لهم أهميته قائلاً:

---

(١) ينظر أدب الحكمة في عصر الإسلام: محمد سعيد الجبوري ١٥٤، رسالة ماجستير.
(٢) أدب الدنيا والدين: ٢٧٩.
(٣) العقد الفريد: ٢/ ٢١٧.
(٤) المصدر نفسه: ٢/ ٢١١.

«يا بني تأدبوا، إن كنتم ملوكاً برزتم، وإن كنتم أوساطاً قُدْتُّم الناس، وإن كنتم فقراء عشتم بفضل أدبكم»(١).

ويوصي بعض الحكماء ابنه بتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن الحديث، وأن لا يسرع في قول لا يحب الرجوع عنه بالفعل... يقول:

«يا بني، تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الحديث، وليعلم الناس أنك أحرص على أن تسمع منك على أن تقول، فاحذر أن تسرع في القول فيما تحب عنه الرجوع بالفعل حتى يعلم الناس أنك على فعل ما لم تقل أقرب منك إلى قول ما لم تفعل»(٢).

ويدعو حكيم في وصية له إلى الاعتدال في طلب الأمور من غير مجاهدة أو اتكال، من ذلك قوله:

«لا تجاهد في الطلب جهاد المغالب، ولا تتكل على القدر اتكال المستسلم»(٣).

وتُعنى فقرات وصية أحد الحكماء بالتربية الأخلاقية، فتحث على مكارم الأخلاق والإيثار ومجانبة الفواحش ومساعدة الضعفاء وإجارة الملهوفين والتمسك بالأخلاق الفاضلة وإصلاح ما فسد منها، ومجانبة الكبر، يقول:

«ذلِّلوا أخلاقكم للمحاسن، وقودوها إلى المحامد، وعلموها المكارم، وعودوها الجميل، واصبروا على الإيثار على أنفسكم، وتكرموا بالغنى على الاستقصاء، وعظموا أقداركم بالتغافل عن دنيء الأمر، وامسكوا رمق الضعيف بالمعونة، وصلوا من رغب إليكم بجاهكم إن لم يكن بمالكم، ولا تقيموا على خلق تذمونه من غيركم، وأصلحوا ما بدر منكم ولو بالتخلُّق إن لم تكن حشمة، وإياكم والكِبر فإنه رأس المقت، وثوب البغضة عند الله تعالى والناس»(٤).

---

(١) نصيحة الملوك: ٣١٢.

(٢) العقد الفريد: ٢/ ٤٢٧.

(٣) الحكمة الخالدة: ١٨٠.

(٤) عين الأدب والسياسة: ٢٥٧.

وعن المزاوجة بين طلب العلم وجمع المال، ما أوصى به بعض الحكماء ولده، موضحاً له أن خاصة الناس تكرمه للعلم، وعامتهم تكرمه للمال، يقول:

«يا بني عليك بطلب العلم وجمع المال، فإن الناس طائفتان: خاصة وعامة، فالخاصة تكرمك للعلم، والعامة تكرمك للمال»(١).

وفي الصداقة يوصي أحدهم بمجانبة معاتبة الأصدقاء، فيقول:

«لا تكثرن معاتبة إخوانك فيهون عليهم سخطك»(٢).

ويوصي حكيم ابنه فينصحه باختيار الصديق قبل مصاحبته... يقول:

«اي بني إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فاغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه، وإلا فدعه»(٣).

وعن مجانبة البخل يكتب بعض الحكماء لأخ له يوصيه بالإنفاق مما أتاه الله وأمره به، مبيِّناً له مضار البخل في الدنيا والآخرة... قائلاً:

«أما بعد، فانفق مما أتاك الله، فيما أمرك الله، ولا تكن في مالك كالبخيل المتعجل للفقر الذي منه يهرب، والتارك للسعة التي إياها يطلب، ولعله يموت بين طلبه وهربه، فيكون عيشه في الدنيا عيش الفقراء، وحسابه في الآخرة حساب الأغنياء، مع أنه لم يُرَ أحد أشقى بماله من البخيل، لأنه في الدنيا يموت من همِّه، ولا ناج في الآخرة من إثمه»(٤).

ويوصي حكيم بإيثار الحق على الباطل، فيقول:

«تذلّلك للحق عز، وتعزّزك بالباطل ذل، فليكن للحق تذللك، ولا يكونن بالباطل تعززك»(٥).

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف: الإبشهيني ٢/ ٥٠.
(٢) أدب الدنيا والدين: الماوردي ١٥٦.
(٣) الحكمة الخالدة: ١٨٠، ١١٤.
(٤) نصيحة الملوك: ٤٢٣.
(٥) مختار الحكم ومحاسن الكلم: ابن فاتك ٣٤٧.

ويدعو آخر في وصيته إلى التسلح باليقين، والرضا بقضاء الله تعالى، والجد في طلب الخير، فيقول:

«ليكن اليقين أفضل سلاحك، والرضا بالقضاء من أفضل أعوانك، واجعل الجدّ في طلب الخير من مالك»[١].

ويعد ظلم الضعفاء عند أحد الحكماء من عظيم اللؤم، لذلك يوصي بمجانبته، فيقول بلفظ موجز:

«لا تظلمن الضعفاء فتكون من لئام الأقوياء»[٢].

ومن وصايا الحكماء ما توجهوا بها إلى الملوك[٣] ليرشدوهم إلى سبل الخير والرشاد، ويرسموا لهم طريقة سياسة الرعية بالعدل والحق والإحسان.

ومما ورد عنهم: وصية أحد الحكماء لملك، تلك التي يدعوه في أحد فقراتها إلى اليقظة والحذر من العدو، فيقول:

«تفقَّد أمر عدوك قبل أن يمتد باعه، ويطول ذراعه، وتكثر شكته[٤]، وتشتد شوكته، وعالجه قبل أن يعضل داؤه، ويصعب دواؤه، فكل أمر لا يداوى قبل أن يعضل ولا يدبر قبل أن يستفحل يعجز عنه مداويه، ويصعب تداركه وتلافيه، ولا تشغل نفسك بإصلاح ما بعد عنك حتى تفرغ من إصلاح ما قرب منك»[٥].

هـ ــ وصايا الآباء للأبناء:

تُعد وصايا الآباء للأبناء في العصر العباسي من الموضوعات التقليدية في

(١) مختار الحكم ومحاسن الكلم: ٣٤٦.
(٢) المصدر نفسه: ٣٤٧.
(٣) ينظر عيون الأخبار: ابن قتيبة ١/ ١١٦، العقد الفريد: ٣/ ١٥٣ـ ١٥٤، أمالي القالي: ١/ ٢٣١، ٢/ ٥٥، زهر الآداب، الخضري القيرواني: ٢/ ٩٩، ٣/ ١٩٧، لباب الآداب: ٣٦ـ ٣٧.
(٤) شكته: بكسر الشين المعجمة: السلاح.
(٥) لباب الآداب: ٦٤.

أدب الوصايا، فقد توجه الآباء بتوصية أبنائهم بدافع العاطفة الإنسانية، مشحونة بدفق الحنان والمحبة والعطف. فالأب مشفق على ولده، حريص على تنشئته تنشئة سليمة معافاة، لذلك نجده يسعى إلى توجيهه وإرشاده لمواطن الزلل، وتحذيره من الوقوع في المهالك عندما يودع وصيته خلاصة تجاربه، وعمق خبرته، ونظرته الثاقبة للأمور، ويرسم له طريق النجاة، ليعيش حياة سعيدة هانئة، وهذا هو مطلب كل الآباء على مر العصور.

واتخذت وصاياهم عدة محاور، وتناولت جوانب الحياة المختلفة، فالمأمون عندما جمع أبناءه أوصاهم بتقوية أواصر المحبة والإلفة وإشاعة روح التعاطف والتآلف بينهم، فالكبير منهم لم يعظم إلا بصغار عظموه وضعاف وعوام أطاعوه، فعليه تجنُّب الكِبر على من عظَّمه ورفع منزلته... ويتابع وصيته: فيحذرهم من عادات الفرس في اتخاذ العبيد أخوة وأولياء لهم، لأن ذلك من الأفعال الخسيسة المذومة، وهو في ذلك يقول:

«يا بني، ليعلم الكبير منكم أنه إنما عظم قدره بصغار عظَّموه، وقويت قوَّته بضعاف أطاعوه، وتشرفت همَّته بعوام أطاعوا له، فلا يدعونه تفخيم المفخم منهم إياه إلى تصغيره... ولا يؤمن بتسمية عبدانهم تسمية الأعاجم ولياً وأخاً، فإن الشيء الذي هو من أجزاء خسيسة ومعان مذمومة هو أيضاً خسيس ومذموم»[١].

ويتابع المأمون توصيته لأبنائه، فيحثهم على أخذ المشورة والرأي من أهل التجارب، ممن خبروا الحياة وخاضوا غمارها... ويختم وصيته بمأثور من كلام العرب، فيقول:

«يا بني، ارجعوا فيما أسببه عليكم من التدبير إلى آراء الحزمة المجربين، فإنهم مرايا لكم، يرونكم ما لا ترون، قد صحبوا لكم الدهر، وكفوكم التجارب. وقد قيل: إن من جرعك المر لتبرأ هو أشفق عليك ممن سقاك حلواً لتسقم، ومن خوَّفك لتأمن أبرّ ممن أمَّنك حتى تخاف»[٢].

---

(١) خلاصة الذهب المسبوك: عبد الرحمٰن الإربلي، ص ١٩١.

(٢) المصدر نفسه.

واتخذت وصية جعفر الصادق لابنه موسى الكاظم (عليهما السلام) محاور عديدة، دينية وتربوية وأخلاقية، أوجزها في أسلوب محكم رصين بين الوعظ والإرشاد والتحذير، لتصبح دليل عمل له في الحياة... ومما جاء في أحد فقراتها، قوله:

«يا بني، من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن سلّ سيف البغي قُتل به، ومن احتفر لأخيه بئراً سقط فيه، ومن داخل السفهاء حقر، ومن خالط العلماء وقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم»(١).

وبأسلوب الوعظ والإرشاد الديني يدعوه إلى قراءة القرآن الكريم، ونشر الدعوة الإسلامية، والعمل بما أمره الله تعالى به، واجتناب نواهيه، فيكون واصلاً لمن قطعه ومعطياً لمن يسأله، محذراً إياه من النميمة والتعرض لعيوب الآخرين، يقول:

«يا بني، كن لكتاب الله تالياً، وللإسلام فاشياً، وبالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً، ولمن قطعك واصلاً، ولمن سكت عنك مبتدئاً، ولمن سألك معطياً، وإياك والنميمة فإنها تزرع الشحناء في قلوب الرجال، وإياك والتعرض لعيوب الناس فمنزلة التعرض لعيوب الناس بمنزلة الهدف»(٢).

ويوصي عبد الملك بن صالح، أحد أمراء بني العباس، ابناً له، مقتدياً بالموروث القديم في صياغة وصيته التي جاءت على شكل فقرات متتالية قصيرة الفواصل مقترنة بواو العطف، شكلت مع بعضها وحدة متكاملة على المستوى الدلالي، استخدم فيها الألفاظ السهلة الخالية من التعقيد والغريب والسجع، ومما جاء فيها قوله:

«غِبّ الأدب أحمد من ابتدائه، مبادرة الفهم تورث النسيان، سوء الاستماع يعقب العي، لا تحدّث من لا يقبل بوجهه عليك، ولا تنصت لمن لا

---

(١) حلية الأولياء: ٣/ ١٩٥.

(٢) المصدر نفسه.

ينمى بحديثه إليك، البلادة في الرجل هجنة[١]، قل مالك إلا استأثر، وقلَّ عاجزٌ إلا تأخر، الإحجام عن الأمور يورث العجز، والإقدام عليها يورث اجتلاب الحظ، سوء الطعمة[٢] يفسد العرِض، ويُخلِق الوجه، ويمحق الدين، الهيبة قرين الحرمان، والجسارة قرين الظّفر، ومنك من أنصفك، وأخوك من عاتبك، وشريكك من وفى لك، وصفيك من آثرك، أعدى الاعتداد العقوق، اتباع الشهوة يورث الندامة، وفوت الفرصة يورث الحسرة، جميع أركان الأدب التأني للرفق، اكرم نفسك عن كل دنية، وإن ساقتك إلى الرغائب، فإنك لن تجد بما تبذل من دينك ونفسك عِوضاً»[٣].

ويوصي سعيد بن جبير ابنه بحسن معاملة الناس، وإيفاء الصلاة حقها من العبادة، محذراً إياه من ذلّ السؤال واليأس من رحمة الله تعالى. . . يقول:

«يا بني، إني موصيك بوصية إن لم تحفظها مني كنت جديراً أن لا تحفظها من غيري: يا بني، أظهر للناس الجميل، وإياك وطلب الحاجة فإنه فقر حاضر، وإذا صلّيت فصلِّ صلاة مودع، وأنت ترى أن لا تصلي بعدها أبداً، وإن استطعت أن تكون غداً خيراً منك أمس فافعل، إياك أن تيأس عن شيء أتى الله منه خيراً»[٤].

ومن المناقب الكريمة التي يوصي بها ابن المعلى ابنه، التشبه بأهل الفضل والتصنع للشرف، يقول:

«تشبَّه بأهل الفضل تكن منهم، وتصنَّع للشرف تدركه، واعلم أن كل امرىء حيث يضع نفسه، وحسبك الحديث الوارد: «من تشبَّه بقوم فهو منهم». وقال بعضهم: اعلموا أن مجدكم الذي بناه آباؤكم متى لم تعمروه بأفعالكم خرب وذهب»[٥].

---

(١) الهجنة: العيب، القاموس المحيط ٤/ ٢٧٧، والغب ـ بالكسر ـ: العاقبة.

(٢) الطعمة: وجه المكسب، المصدر نفسه ٤/ ١٤٤.

(٣) البيان والتبيين: ٤/ ٩٤ـ ٩٥.

(٤) عين الأدب والسياسة: ٢٥١.

(٥) المصدر نفسه: ١٠٩.

ولكي تنتظم الحياة لأبناء أبي عمرو بن عتبة، فهو يوصيهم بالعلم والدين، ووقاية دينهم بالأموال ومجانبة العقوق، وفي ذلك يقول:

«يا بني، إنكم صغار قوم لا يحتاج إليكم، ويوشك أن تكونوا كبار قوم آخرين لا يستغنى عنكم، فعليكم بالعلم والدين تنتظم لكم الدنيا، واجعلوا أموالكم واقية لأديانكم يكن الله جاراً لكم، فإن الموت في طاعة الله حياة، والفقر في رضوانه غنى، واذكروا ما خلقتم له وخلق لكم، فإنه لا ينساكم من وكّل بكم، وإياكم والعقوق فإنه يثمر العقوبة»[١].

ويوصي قتيبة بن مسلم بنيه، بمجانبة المزاح والبخل ودخول الأسواق، وقد وصف لهم ضررها، فقال:

«لا تمازحوا فيُستخف بكم، ولا تدخلوا الأسواق فترقّ أخلاقكم، ولا تبخلوا فيزدريكم أُلفاؤكم»[٢].

ويوصي ابن شبرمة ابنه الالتزام بآداب المجالسة، وعدم الإطالة فيها... فيقول:

«يا بني، إياك وطول المجالسة، فإن الأسد إنما يجترىء عليها من أدام النظر إليها»[٣].

ومن وصايا الآباء للأبناء ما جاء ضمن عرضنا لموضوعات الوصايا الأخرى، أو ضمن التي كانت غير منسوبة لقائلها، كوصايا الأعراب والرجال والحكماء وغيرهم، وحسبنا في هذا التصنيف عرضنا بعض النماذج استدلالاً لا حصراً.

٣ ـــ وصايا أدبية

أ ـــ وصايا الخلفاء لمؤدبي أولادهم:

ذهب الخلفاء العباسيون مذهب الخلفاء الأمويين في توصية مؤدبي

---

(١) عين الأدب والسياسة: ٢٥١.

(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس: الإمام القرطبي ١/ ٥٦٩.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ٤٩.

أولادهم، واتخذت وصاياهم عدة مسارات، منها ما هو تعليمي يهدف إلى تعليم أبنائهم القرآن الكريم، ومبادىء السنَّة النبويَّة الشريفة، ومأثور الكلام، وأخبار التابعين من السلف الصالح، والأشعار والسنن. ومنها ما هو تربوي تأديبي يهدف إلى توجيه أبنائهم، وفق الأسس التربوية الصحيحة، التي تؤهلهم إلى معرفة أقدار الناس ومنازلهم، وأن يستخدم المؤدِّب في تحقيق هذه الغاية أسلوب الملاينة والمداراة، فإن لم تنفع له الحرية في استخدام الشدة والقسوة مع من يؤدبه عندما يجد عنده الرغبة في العبث واللهو واستحلاء الفراغ.

وإذا ما استقصينا وصايا الخلفاء العباسيين لمؤدبي أولادهم، رأيناها توضح مدى الرقي الحضاري في العصر العباسي، وتعكس لنا جملة من التطورات الثقافية التي جاءت نتيجة اتصال العرب بغيرهم من الأمم الأخرى، والاستفادة من حضاراتهم، كما تعبر عن طبيعة التربية والتعليم التي يرغب فيها الخلفاء العباسيون، لتهيئة أبنائهم لمهام الخلافة بعدهم، وذلك بتزويدهم بمختلف العلوم والمعارف والفنون، مع الاهتمام بحسن التأدب بالآداب السلطانية، وتدبير الأمور السياسية والإدارية، والاهتمام بالتعليم الديني، واللغة العربية وعلومها.

ومن وصايا الخلفاء لمؤدبي أبنائهم، تطالعنا وصية الرشيد لمؤدِّب ولده الأمين، الأحمر النحوي[1]، تلك التي شدد فيها بتعليمه القرآن الكريم، وتبصرته بمواقع الكلام، ناصحاً إياه فيها تهيئة ولّي عهده لتولي مهام الخلافة من بعده، والتي جاء فيها:

«يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعتك عليه واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، اقرئه القرآن، وعرِّفه الآثار، وروِّه الأشعار، وعلِّمه السنن، وبصِّره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا إليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا لمجلسه، ولا تمرنَّ بك ساعة

---

(١) الأحمر النحوي: علي بن الحسن أبو المبارك المعروف بالأحمر، شيخ النحاة في عصره، أخذ العربية عن الكسائي فنبغ وأوصله الكسائي إلى الرشيد فعهد إليه بتأديب أبنائه، نزهة الألباء في طبقات الأدباء: أبو البركات الأنباري ٦٧.

إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيدها إياه من غير أن تخرق به فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيتحلى الفراغ ويألفه، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهُما فعليك بالشدة والغلظة، وبالله توفيقكما»(١).

ولم يحدد الرشيد منهاج التربية والتعليم لأبنائه فحسب، بل تعدى ذلك إلى تحديد صفات المؤدب الأخلاقية التي يجب التحلي بها، وذلك لخطورة المهمة التي يتولاها، لأنه يودعه ولده وولّي عهده وخليفة المسلمين من بعده... لذلك نراه يوصي الكسائي ويطلب منه أن يختار من الأشعار أعفها، ومن الأخبار والسير ما ينمِّي الخلق الحسن والسلوك القويم، والتزود بأخبار وسِّير الأمم الأخرى، لأن فيها الكثير من العبر والمواعظ، والتي جاء فيها:

«يا علي بن حمزة، قد أحللناك المحل الذي لم تكن تبلغه همَّتك، فرونا من الأشعار أعفها، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق، وذاكرنا بآداب الفرس والهند، ولا تسرع علينا الرد في ملأ، ولا تترك تثقيفنا في خلاء»(٢).

وترسم وصية الرشيد للأصمعي طبيعة عمله، وتظهر رغبته المستمرة في طلب العلم، مع كل المهام والمسؤوليات الملقاة على عاتقه، والتي تبين منزلة الأصمعي عنده عندما رفعه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الندماء تكريماً له، ولما توسم فيه من أخلاق في تأديب بنيه، والتي يقول فيها:

«يا عبد الملك، أنت أعلم منا، ونحن أعقل منك، لا تعلمنا في ملأ، ولا تسرع إلى تذكيرنا في خلاء، واتركنا حتى نبتدئك السؤال، فإذا بلغت من الجواب حق الاستحقاق فلا تزد ألا يستدعي ذلك منك، وانظر ما هو ألطف في التأديب، وأنصف في التعليم، وبلغ بأوجز لفظ غاية التقويم»(٣).

ويقتدي الأمراء بالخلفاء العباسيين في توصية مؤدبي أولادهم، من ذلك وصية عبد الملك بن صالح لمؤدب ولده، تلك التي وجَّهه فيها بأسلوب

---

(١) الفرج بعد الشدة: التنوخي ٣/ ١٦٣.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٥/ ٥٦.
(٣) أدب الدنيا والدين: الماوردي ٧٤ ـ ٧٥.

الخطاب المباشر في لغة قوية السبك، بليغة العبارة، خالية من التعقيد، يصدِّرها بتوجيهه بآداب المنادمة والمجالسة، ويرشده بعدة أمور ينبغي على المؤدِّب الالتزام بها. غايته من ذلك إبعاد الموصى له عن التملق والتزلف، واستكداء الملوك بالباطل، لأن مثل هذه الحالات تؤدي إلى الاستهانة بالمرء وتزري به وتحط من قدره، والتي يقول فيها:

«كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام، فإنهم قالوا: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم. يا عبد الرحمٰن، لا تساعدني على ما يقبح بي، ولا تردنَّ عليَّ الخطأ في مجلسي، ولا تكلفني جواب التشميت والتهنئة، ولا جواب السؤال والتعزية، ودع عنك كيف أصبح الأمير وأمسىٰ، وكلمني بقدر ما أستنطقك، واجعل بدل التقريظ في حسن الاستماع مني، واعلم أن جواب الاستماع أقل من صواب القول، وإذا سمعتني أتحدث فأرني فهمك في طرفك وتوقفك، ولا تجهد نفسك في تطرية جوابي، ولا تستدع الزيادة من كلامي بما تظهر من استحسان ما يكون مني، فمن أسوأ حالاً ممن يستكد الملوك بالباطل، فيدل على تهاونه، وما ظنك بالملك وقد أحلك محل المعجب بما يسمع منه، وقد أحللته محل من لا يسمع منه، وأقل من هذا يحبط إحسانك، ويسقط حق حرمة من كانت له»[١].

ب ـــ وصايا العلماء والبلغاء:

أوردت كتب الأدب وصايا نسبت إلى العلماء والبلغاء... تلك التي تحث على التعلم والمذاكرة والاجتهاد في طلب العلم والاستزادة منه، والتحلي بالأخلاق الفاضلة وتقوى الله تعالى، والخوف منه، والرضا بقضائه.

فقد جاء في أدب الدنيا والدين وصية بعض العلماء لبنيه، تحثهم على تعلم العلم حتى إذا لم ينالوا منه شيئاً في الدنيا، فذم الزمان لهم أفضل من ذمه بهم، والتي جاء فيها:

«يا بني، تعلموا العلم وإن لم تنالوا به في الدنيا حظاً فلأن يذم الزمان

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢١، زهر الآداب: ٣/ ٧١٧، شرح نهج البلاغة: ٥/ ٥٦ـ ٥٧.

لكم أحب إليَّ من أن يذم الزمان بكم»[١].

ويوصي بعض العلماء ابنه محذراً إياه من مصاحبه السفيه لأن فيه جماع الأخلاق المذمومة، وأن يباعده ما استطاع، وإذا اضطر للاجتماع به فعليه التحلي بالحلم لدفع شره، وبالصبر لقمع ضره، ويشبه هذه الحالة مثل من مر بروضة شوك وهو يسعى لتخليص جسده عنها، ولا يكترث بما علق من شوك في ثيابه، والتي جاء فيها:

«لا أحد أجمع من السفيه للخلال المذمومة، وأبعد منه من الخصال المحمودة، فإنه لا يستحي من المحال، ولا يرى العار في حال، فاحذره جهدك، وباعده عمرك، فإن اضطرك الدهر إلى الجمع به فأعد له حلماً تدفع به شره، وضرّاً تقمع به ضره، ولا تبتئس بما أعلق بك، ولا تُبال عما أصاب إليك، وكن معه كمن مر بروضة شوك يسعى في تخليص جسده عنها ولم يسأل عما تعلق بثيابه منها»[٢].

وتجمع وصية بعض العلماء لابنه جملة مبادىء في وصية طويلة على شكل فقرات، تنتهي بأبيات من الشعر مضمنة نفس المعنى، ولعل أهم ما جاء فيها: طلب الأدب والمروءة وتقوى الله تعالى والتحلي بالصبر والكرم والأخلاق الفاضلة كالوفاء والأناة والأمانة وصيانة العرض والدين والصدق وبر الوالدين، وعدم الإفراط في الحب أو الشطط في الكره، وتجنُّب الحسد والبخل والنميمة. ومما جاء في بعض فقراتها، قوله:

«اعلم يا بني، أن الأدب أفضل الأثاث، وأن المروءة أفضل الميراث، والأدب زينة الحسب، وصلة في المجالس، وأنس في الوحدة، وعون في المروءة، وإنما المرء بمروءته، وأصل المروءة: اجتناب المرء ما يشينه، واختيار ما يزينه، ولا مروءة لمن لا أدب له، ولا أدب لمن لا عقل له. قال الشاعر:

---

(١) أدب الدنيا والدين: الماوردي ٣٠.

(٢) عين الأدب والسياسة: ابن هذيل الأندلسي ٢٥٦.

وما أدَّب الإنسان شيء كعقله وما عقله إلا بحسن التأدُّب

فواظب يا بني على طلب الأدب جهدك، واشغل به عقلك، وتدبر منه في الملأ ما يزينك في الملا، قال الشاعر:

تعلم فليس المرء يُولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل

وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل»[١]

ومما جاء في وصية بعض العلماء، ما أورده بعضهم في التوصية بتعليم علمه والتعلم من علم غيره، فهو بذلك يعلم ما جهله، ويحفظ ما علمه، وفي ذلك يقول:

«علِّم علمك، وتعلَّم من غيرك، فإذا أنت قد علمت ما جهلت، وحفظت ما علمت»[٢].

وتأتي توصية بعض البلغاء بأسلوب الحكماء عندما يوصي من أراد العز والغنى في حياته، فيذكر بأن من طلب العز عليه بطاعة الله تعالى، ومن طلب الغنى عليه الالتزام بالقناعة التي تزيل الفقر وتورث الغنى... والتي يقول فيها:

«إذا أردت العز فاطلبه بالطاعة، وإذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة، فمن أطاع الله عز وجل نصره، ومن لزم القناعة زال فقره»[٣].

ويدعو بعض البلغاء في توصيته إلى الالتزام بالصمت، موضحاً فوائده التي بيَّن محاسنها التي تكسب صفو المحبة وتؤمن سوء المغبة، وتلبس صاحبها ثوب الوقار، وتكفيه مؤونة الاعتذار، والتي جاء فيها:

«إلزم الصمت فإنه يُكسبك صفو المحبة، ويؤمِّنك سوء المغبة، ويُلبسك ثوب الوقار، ويكفيك مؤونة الاعتذار»[٤].

---

(١) عين الأدب والسياسة: ٢٧١ـ ٢٧٢.
(٢) أدب الدنيا والدين: ٦٣.
(٣) المصدر نفسه: ٢٠٢.
(٤) المصدر نفسه: ٢٤٧.

جـ ـ وصايا إخوانية:

يعد مطلح الإخوانيات مظهراً من مظاهر التعبير عن الحياة الاجتماعية، والعلاقات العاطفية، بين أفراد المجتمع. . . تلك العلاقات التي توضح حالة الارتباط الاجتماعي، وتصور حالة التعاطف والمودة والأخوة بين أفراد المجتمع.

ولدراسة أدب الإخوانيات أهمية بالغة، لأنها تكشف عن جانب مهم من أخلاق الناس وطبائعهم وارتباطاتهم، وتوضح لنا عن طبيعة تلك العلاقات وأشكالها والموضوعات التي تدور فيها[١]. ولعل الوصايا إحداها، وقد حدد لنا القلقشندي مصطلح الإخوانيات في (النثر) بالمكاتبات الدائرة بين الأصدقاء، وفيها طرفان، وعد الموضوعات التي تجري فيها هذه المكاتبات عشرة، منها: التهاني والتعازي والتهادي والتشوق. . . إلخ[٢].

وأدب الإخوانيات من الموضوعات القديمة في الأدب العربي. . . إلا أنه لم يكن فنّاً مستقلاً بذاته، فقد كان مبثوثاً في أحيان كثيرة، ضمن النصوص الشعرية والنثرية ينتهي بانتهاء الفكرة المسجلة[٣].

ويرى بعض الباحثين أن بداية شعر الإخوانيات، يرجع إلى القرن الثاني الهجري[٤]، وذلك تأكيداً لما قاله الدكتور هدارة في كثرة شعر الصداقة الصديق في القرن الثاني الهجري[٥]، وما أوضحه الدكتور حسين عطوان في توسع الشعراء في العصر العباسي في معاني الصداقة، وواجبات الأخوة، والذي أوعزه إلى تأثير أجنبي يرجع إلى كتابات ابن المقفع في كتابيه الأدب الكبير

---

(١) ينظر الإخوانيات في شعر العصر العباسي الأول: رمضان صالح الجبوري ٦ـ ٧، رسالة ماجستير.

(٢) ينظر صبح الأعشى: ١٢٦/٨.

(٣) الإخوانيات في شعر العصر العباسي الأول: ٨.

(٤) ينظر الشعر والشعراء في البصرة خلال القرن الثالث الهجري: أحمد جاسم النجدي ٢٣٤، رسالة ماجستير، والشعر في الكوفة منذ أواسط القرن الثاني حتى نهاية القرن الثالث الهجري: محمد حسين الأعرجي ١٩٣، رسالة ماجستير.

(٥) ينظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: د. مصطفى هدارة ٢٠٠.

والأدب الصغير[١]، إلا أن المتتبع لأدب الإخوانيات يرى أن العرب قد عبرت عن طبيعة العلاقات الإخوانية منذ العصر الجاهلي... تلك العلاقات التي عززها الإسلام وشد عراها بمبادئه السامية، حتى إذا جاء العصر العباسي ظهرت بصورة واضحة لزيادة العلاقات والصلات في المجتمع، والتي لا يمكن ردها إلى العامل الأجنبي المتمثل بكتابات ابن المقفع، التي يمكن القول بأن تأثيرها كان عاملاً مساعداً في تطور أدب الإخوانيات.

ومن المؤلفات التي اهتمت بأدب الإخوانيات: رسالة الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي، تلك التي أورد فيها عدداً من الوصايا الإخوانية المعبرة عن مدى نمو العلاقات الاجتماعية بين الأفراد في المجتمع العباسي... وقد تضمنت موضوعاتها الحث على الترابط والتآلف الاجتماعي في معاني مشبعة بحرارة العاطفة وصدق الإحساس، من ذلك توصيته في طاعة أخيه، وعدم سماع أقوال الحساد، محذراً إياه من فقده، قائلاً:

«أطع أخاك، ولِن له، ولا تسمع فيه قول حاسد وكاشح، غداً يأتيك أجله فيكفيك فقده، كيف تبكيه بعد الموت وفي الحياة تركت وصله»[٢].

وينقل التوحيدي عن بعض السلف توصيتهم بالإخوان، مسترشدين للتدليل على قولهم بآي من الذكر الحكيم، والتي جاء فيها:

«عليك بالإخوان، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾»[٣].

وفي طلب الخلّة يوصي أبو الجلاء الزاهد أصحابه قائلاً:

«اطلبوا خلّة الناس في هذه الدنيا بالتقوى تمنعكم في الدار الأخرى، ألم تسمعوا الله تعالى يقول: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾»[٤].

---

(١) ينظر الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ٤٢٣.
(٢) رسالة الصداقة والصديق: أبو حيان التوحيدي ٢٦ ـ ٢٧.
(٣) سورة الشعراء: الآيتان ١٠٠ـ ١٠١، وينظر الصداقة والصديق: ١٧.
(٤) سورة الزخرف: الآية ٦٧، وينظر المصدر السابق ٨٩.

وينقل التوحيدي وصية رجل من قريش تحثُّ على حُسن معاشرة الناس وتقوي الترابط الاجتماعي، والتي يقول فيها:

«خالطوا الناس مخالطة، إن غبتم حنُّوا إليكم، وإن مُتُّم بكوا عليكم»[١].

ويوصي ابن المقفع بالامتناع عن معاتبة الأصدقاء والإخوان، والرضا بالعفو والمسامحة، يقول:

«انظر من صاحبت من الناس من ذوي فضل عليك بسلطان ومنزلة، ومن دون ذلك من الخلصاء والأكفاء والإخوان، فوطّن نفسك عما اعتاص مما قبله غير معاتب ولا مستبطيء، ولا مستزيد، فإن المعاتبة مقطعة للود، وإن الاستزادة من الجشع، وإن الرضا بالعفو والمسامحة في الخلق مقرب لك كل ما تتوق إليه نفسك مع بقاء العرض والمودة والمروءة»[٢].

ويوصي ابن المقفع بمصاحبة إخوان الصدق موضحاً بأنهم خير مكاسب الدنيا، وعليه عدم التفريط بهم، يقول:

«اعلم أن إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا، زينة في الرخاء، وعدّة في الشدة، ومعونة على المعاش والمعاد، فلا تفرطن في اكتسابهم وابتغاء الوصلات والأسباب إليهم»[٣].

ويوصي ابن المقفع بالصديق ويرفع منزلته حتى تصل إلى صلة الرحم، فيبذل دمه وماله دونه، فيقول:

«ابذل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رفدك ومحضرك، وللعامة بشرك وتحنُّنك، ولعدوك عدلك»[٤].

ويستشهد ابن المقفع بقول أحد الحكماء في حسن المعاشرة، ومداراة

---

(١) رسالة الصداقة والصديق: ٢٦٥.
(٢) الدرة اليتيمة: ابن المقفع ٢٨.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ٣٩.

الصديق وكسب رضاه، وذلك في قوله:

«لتكن غايتك فيما بينك وبين عدوك العدل، وفيما بينك وبين صديقك الرضا، وذلك لأن العدو خصم تضربه بالحجة وتغلبه بالحكام، وأن الصديق ليس بينك وبينه قاض فإنما حكمه رضاه»[١].

ويوصي ابن المقفع بالصديق عند النوائب كما يوصي به عندما يصيبه فضل من الله، يقول:

«إذا نابت أخاك إحدى النوائب من زوال نعمة أو نزول بلية، فاعلم أنك قد ابتليت معه أما بالمواساة، فتشاركه في البلية، وأما بالخذلان فتحتمل العار، فالتمس المخرج عند اشتباه ذلك، وآثر مروءتك على سواها، فإن نزلت الجائحة التي تأبى نفسك مشاركة أخيك فيها، فأجمل، فلعل الإجمال يسعك لقلته في الناس، وإذا أصاب أخاك فضل فإنه ليس في دنوك منه وابتغائك مودته وتواضعك له مذلة، فاغتنم ذلك واعمل فيه»[٢].

ويوصي ابن المقفع ابنه بمخالطة العقلاء، وأرباب الكياسة، والتزام طريقتهم، قائلاً:

«أي بني، أحبب العقلاء، وأرباب الكياسة، وخالطهم والتزم طريقتهم واقتد بسيرتهم، وإسع في إحراز حظك من مجالستهم ومؤانستهم ومعاشرتهم ومحاورتهم، لأن سيرتهم مبنية على قاعدة الصدق والاستقامة، وطريقتهم طبعتهم على جادة الوضوح والسداد»[٣].

ويتابع ابن المقفع توصيته لابنه فيدعوه إلى اختيار أصدقائه من أهل العفاف والمروءة والفتوة، قائلاً:

«وينبغي أن يكون أصدقاؤك وأصحابك وأقرانك وجلساؤك الذين تستعين

---

(١) الدرة اليتيمة: ٤٢.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الفكر التربوي رسالة الأدب الوجيز للولد الصغير: د. عبد الأمير شمس الدين ٢١٠.

بهم في الأمور، وتسلك معهم طريق المخالطة والمخالصة، وتتخذ معهم قاعدة المصادقة والموافقة أهل عفاف ومروءة وسداد وفتوة، ليكون منهل مصافاتهم مصفى من شوائب المداجاة، فإذا وجدوا منك منفعة شكروك عليها، وإذا أمالك منهم نفع لا يرون بذلك حقاً ثابتاً في ذمتك، ولا يطوقون عنقك بمنة بحيث إذا ما وقع من قبلك تأخر في مجازاتها ازدادوا منّاً، بل تبقى صداقتهم بغير ريبة، ومحبتهم مبرأة ومعراة من دواعي الطمع ووسائط الغرض»[١].

د ـــ وصايا فنية:

شكلت الوصايا الفنية جانباً كبيراً من الوصايا في العصر العباسي، وتولى مهمتها عدد كبير من المعلمين والمؤدبين الذين توجهوا بتوصياتهم في مجالات الشعر والنثر، ولما تباينت ثقافاتهم ومشاربهم، تنوعت أساليبهم وطرائق تعليمهم، وكانت لهم آراؤهم في مجالات التربية والتعليم والتثقيف، واستعانوا في توصياتهم بخبراتهم وخزين تجاربهم، فوضعوا المناهج السليمة والأسس القويمة، ورسموا طرقاً صحيحة في التعبير والأداء، هدفهم من ذلك إشاعة التعليم ونشر الوعي الثقافي بين المتعلمين[٢].

ومن الوصايا الفنية، الوصايا المتعلقة بالنقد والتي كانت لها أهميتها في ميدان تطور المناهج النقدية الموجهة للمتعلمين، ولعل أهمها مراعاة الشروط النفسية للكاتب والشاعر عند تخير أوقات الكتابة، كراحة البال وفراغ القلب من الهموم، وهو الباعث على جودة القريحة وتحرك العاطفة، وهو ما جاء به إبراهيم بن المدبر في الرسالة العذراء، يقول:

«وارتض لكتابك فراغ قلبك، وساعة نشاطك، فتجد ما يمتنع عليك بالكد والتكلف، لأن سماحة النفس بمكنونها، وجودة الأذهان بمخزونها، إنما هو مع الشهوة المفرطة في الشيء والمحبة الغالبة فيه، أو الغضب الباعث منه ذلك»[٣].

---

(١) الفكر التربوي رسالة الأدب الوجيز للولد الصغير: ٢٠٥ـ٢٠٦.

(٢) ينظر جمهرة وصايا العرب: ٣/ ٥٣.

(٣) الرسالة العذراء: ابن المدبر ٣٠، رسائل البلغاء: محمد كرد علي ٢٤٠.

ويطابق هذا الرأي ما جاء في صحيفة بشر بن المعتمر عن بعض الأسس والمقاييس النقدية التي يجب مراعاتها من الناظم والناثر في عملهما الأدبي[١]، حيث يقول:

«خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ قلبك وإجابتها إياك، فإن قليل من تلك الساعة أكرم جوهراً، وأشرف حسباً، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة»[٢].

ويأتي أبو تمام ليؤكد ما جاء في وصية بشر بن المعتمر، وتعد وصيته «دستوراً في صناعة الشعر كما أنها من أوائل النصوص النقدية المدونة التي استفاد منها الكثير من العلماء والنقاد، ولعل قيمتها الأدبية في الدراسات النقدية تضاهي صحيفة بشر بن المعتمر»[٣]، وقد جاء في مطلعها قوله:

«يا أبا عبادة تخير الأوقات وأنت قليل الهموم، صفر من الغموم، واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم»[٤].

ومثل ذلك يوصي عبد الله بن الحسن بمراعاة الحالة النفسية، للكاتب في الساعات التي تدعوه نفسه إلى التأليف، يقول:

«استعن على الكلام بطول الفكر في المواطن التي تدعوك فيها نفسك إلى القول، فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع الصواب»[٥].

ويوصي بكر بن عبد الله المزني بمراعاة الحالة النفسية للكاتب عند إنشاء

---

(١) ينظر النظرية النقدية: د. هند حسين طه ٢٧١ـ ٢٧٢.
(٢) البيان والتبيين: ١/ ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٣) النظرية النقدية: ٢٦٥.
(٤) زهر الآداب: ٢/ ١٥٢.
(٥) عيون الأخبار: ٢/ ١٧٨.

الكلام، يقول:

«لا تكدوا هذه القلوب ولا تهملوها، وخير الكلام ما كان عقيب جمام، ومن أكره بصره عشي، وعلو الفكرة عند نبوات القلوب، واشحذوها بالمذاكرة، ولا تيأسوا من إصابة الحكمة إذا امتحنتم ببعض الاستغلاق، فإن من أدمن قرع الباب ولج»[١].

وعن مجانبة التوعر في الكلام والموافقة بين الألفاظ والمعاني، يوصي بشر بن المعتمر المتعلمين، فيقول:

«إياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، ومن أراغ معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما»[٢].

وقول بشر هذا كان أساساً للجاحظ، بنى عليه قوله في طبقات الكلام والناس، وفي تناوله للألفاظ وتقسيمه إياها[٣]، وفي ذلك يقول:

«وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً، وساقطاً سوقياً، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً، إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي...»[٤].

كذلك يوصي أبو تمام بتقسيم الألفاظ على رتب المعاني حسب الأغراض الشعرية، فيقول:

«وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً، والمعنى رشيقاً، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، فإذا أخذت في

---

(١) جمع الجواهر في الملح والنوادر: أبو إسحٰق الحصري القيرواني: ٢.
(٢) البيان والتبيين: ١/ ١٣٧.
(٣) ينظر النظرية النقدية: ٢٢٩.
(٤) البيان والتبيين: ١/ ١٤٤.

مديح سيد ذي أياد فاشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وابن معالمه، وشرِّف مقامه»[١].

وأبو تمام في هذه الوصية «يرسم لصانع الشعر في شخصية البحتري، منهجاً يلزمه، وطريقاً يترسمه ويضع له مقاييس نقدية، يبتعد بالتزامها عن نقد النقاد»[٢].

ويدعو ابن قتيبة موصيه بأن ينزل ألفاظه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب، يقول:

«وتستحب له أن ينزل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، وأن لا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس وضيع الكلام»[٣].

ومن الوصايا النقدية تلك التي تدعو المتعلمين إلى اختيار الألفاظ وانتقائها لتلائم المعاني، وقد شملت العديد من الملاحظات النقدية، التي تعد بحق بداية لوضع الدراسات المنهجية النقدية، ومن ذلك وصايا الجاحظ للمتعلمين، التي يقول فيها:

«فاختر من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المتعقد، مغرقاً في الإكثار والتكلف، فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع بعد أن يتسق له القول»[٤].

ويدعو إلى مجانبة رسم المعنى قبل تهيئة المعنى «عشقاً لذلك اللفظ، وشغفاً بذلك الاسم، حتى صار يجر إليه المعنى جراً»[٥].

ويقرر بعد ذلك بأن «لكل معنى شريف أو وضيع هزل أو جد، وحزم أو

(١) زهر الآداب: ٢/ ١٥٢.
(٢) النظرية النقدية: ٢٧١، نقلاً عن النقد الأدبي عند العرب: محمد طاهر درويش ١٣١.
(٣) أدب الكاتب: ابن قتيبة، المقدمة ١٤.
(٤) رسائل الجاحظ: ٣/ ٣٩ ـ ٤٠.
(٥) المصدر نفسه.

إضاعة، ضرباً من اللفظ هو حقه وحظه، ونصيبه الذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصر دونه»[1].

ويدعو ابن طباطبا «إلى التجويد والتحرز من الأخطاء، ومعالجة ما عساه يوجد منها في العمل الفني، وهو ما نجده عنده من بذور البلاغة في القول»[2]. وذلك في قوله:

«إن الأديب يحضر لبه عند كل مخاطبة ووصف، فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات، ويتوقى حطها عن مراتبها أو أن يخلطها بالعامة، كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجات الملوك، ويعد لكل معنى ما يليق به، ولكل طبقة ما يشاكلها»[3].

ويوافق الجرجاني من سبقه من القدماء في التوصية بطرق التعليم، محدداً للشعراء طريق النظم، قائلاً:

«... ولا آمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحداً، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك، ولا هزلك بمنزلة جدك، ولا تعريضك مثل تصريحك، بل ترتب كلاً مرتبته، وتوفيه حقه، فتلطف إذا تغزلت، وتفخم إذا افتخرت، وتتصرف للمديح تصرف مواقعه، فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام، فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه»[4].

ويتابع الجرجاني وصيته، فيرسم طريقة النظم في النثر، فيقول:

«وليس ما رسمته لك في هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة،

---

(1) رسائل الجاحظ: ٣/ ٣٩ ـ ٤٠.
(2) النظرية النقدية: ٢٩٨.
(3) عيار الشعر: ابن طباطبا ٤٤.
(4) الوساطة بين المتنبي وخصومه: القاضي الجرجاني ٢٤.

ولا بمختص بالنظم دون النثر، بل يجب أن يكون كتابك في الفتح أو الوعيد، خلاف كتابك في التشوق والتهنئة واقتضاء المواصلة، وخطابك إذا حذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنيت»[١].

وعن ملائمة اللفظ والمعنى، يوصي التوحيدي بالموافقة بينهما، فيقول:

«ولا تعشق اللفظ دون المعنى، ولا تهوى بالمعنىٰ دون اللفظ، وكن من أصحاب البلاغة والإنشاء في جانب، فإن صناعتهم يفتقر فيها أشياء يؤاخذ بها غيرهم، ولست منهم، فلا تتشبه بهم»[٢].

ويرسم التوحيدي الطريقة المثلى في الكتابة، موصياً المتعلمين، قائلاً:

«وليكن الحديث على تباعد أطرافه واختلاف فنونه مشروحاً، والإسناد عالياً متصلاً، والمتن تاماً بيِّناً، واللفظ خفيفاً لطيفاً، والتصريح غالباً متصدراً، والتعريض قليلاً يسيراً، وتوخ الحق في تضاعيفه وأثنائه، والصدق في إيضاحه وإثباته، واتق الحذف المخل بالمعنى، والإلحاق المتصل بالهذر، واحذر تزيينه بما يشينه، وتكثيره بما يقلله، وتقليله عما لا يستغنى عنه، واعمد إلى الحسن فزد في حسنه، وعلى القبيح فانقص من قبحه»[٣].

ويعرض القلقشندي في أحد فصول كتابه صبح الأعشى لصنعة الكلام وطريقة تأليفه، والذي جاء ليخدم غايات تعليمية، موصياً وموجهاً إلى الاهتمام باللفظ والمعنى والمساواة بينهما في العمل الأدبي، فيقول:

«اعلم أن المعاني من الألفاظ بمنزلة الأبدان من الثياب، فالألفاظ تابعة، والمعاني متبوعة، وطلب تحسين الألفاظ إنما هو لتحسين المعاني، بل المعاني أرواح الألفاظ وغايتها التي لأجلها وضعت، وعليها بُنيت، فاحتياج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى أشد من احتياجه إلى تحسين اللفظ، لأنه إذا كان المعنى صواباً، واللفظ منحطاً ساقطاً عن أسلوب الفصاحة، كان الكلام

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه: القاضي الجرجاني ٢٤.
(٢) الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدي ١/ ١٠.
(٣) المصدر نفسه: ١/٨ ـ ٩.

كالإنسان المشوه الصورة مع وجود الروح فيه، وإذا كان المعنى خطأ، كان الكلام بمنزلة الإنسان الميت الذي لا روح فيه، ولو كان على أحسن الصورة وأجملها»[١].

واهتمت طبقة كبيرة من الأدباء في العصر العباسي بالمتعلمين فتوجهوا بتوصياتهم التي تحث على التعليم، وترسم لهم طريقة اتقان أدوات الكتابة، من ذلك ما جاء في رسالة ابن المدبر، والتي يرسم فيها طريقة التعليم... وذلك في قوله:

«واعلم أن الاكتساب بالتعلم والتكلف، وطول الاختلاف إلى العلماء، ومدارسة كتب الحكماء، فإن أردت خوض بحار البلاغة، وطلبت أدوات الفصاحة، فتصفح من رسائل المتقدمين ما تعتمد عليه، ومن رسائل المتأخرين ما ترجع إليه في تلقيح ذهنك واستنجاح بلاغتك، ومن نوادر كلام الناس ما تستعين به، ومن الأشعار والأخبار والسير والأسمار، ما يتسع به منطقك، ويعذب به لسانك، ويطول به قلمك»[٢].

ويوصي ابن قتيبة المتعلمين في مقدمة أدب الكاتب معرفاً بأدوات الكتابة، قائلاً:

«ولا بد له من دراسة أخبار الناس وتحفّظ عيون الحديث، ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً إذا كتب ويصل بها كلامه إذا حاور، ومدار الأمر على القطب وهو العقل وجودة القريحة، فإن القليل معهما بإذن الله كاف والكثير غيرهما مقصر»[٣].

ومما جاء في توصياتهم، توجيه المتعلمين من الكتاب بما يحتاجون إليه من الاطلاع على رسائل المتقدمين والمتأخرين ومعرفة الأخبار والسير والمقامات والخطب... وفي ذلك يقول صاحب العقد الفريد:

---

(١) صبح الأعشى: ٢/ ١٨٣.
(٢) الرسالة العذراء: ٧.
(٣) أدب الكاتب: (المقدمة) ١١.

«فإن كان لا بد لك من طلب أدوات الكتابة، فتصفح من رسائل المتقدمين ما يعتمد عليه، ومن رسائل المتأخرين ما يرجع إليه، ومن نوادر الكلام ما يستعين به، ومن الأشعار والأخبار والسير والأسمار ما يتسع به منطقك، ويطول به قلمك، وانظر في كتب المقامات والخطب، ومجاوبة العرب ومعاني العجم، وحدود المنطق وأمثال الفرس ورسائلهم، وعهودهم وسيرهم ووقائعهم ومكايدهم في حروبهم، والوثائق والصور وكتب السجلات والأمانات، وقرض الشعر الجيد، وعلم العروض، بعد أن تكون متوسطاً في علم النحو والغريب لتكون ماهراً تنتزع آي القرآن في مواضعها والأمثال في أماكنها»[1].

ومن الوصايا الفنية، تلك التي عنيت بالجوانب التعليمية الموجهة للطبقات الخاصة كوصايا الخلفاء العباسيين لمؤدبي أولادهم، التي ترشدهم إلى الطريقة المثلى للتأديب السلطاني وتعليم أبنائهم العلوم والمعارف والفنون، والتي عرضنا لها في (وصايا الخلفاء لمؤدبي أولادهم).

ومن الوصايا التعليمية الخاصة تلك التي توجه بها الخليفة أبو العباس السفاح لكاتبه موجهاً ومعلماً. . . يقول:

«قف عند مقاطع الكلام وحدوده، وإياك أن تخلط المرعي بالمهمل، ومن حلية البلاغة المعرفة بمواقع الفصل والوصل»[2].

ويدعو إبراهيم بن المهدي كاتبه إلى نبذ الغريب والوحشي من الألفاظ، فيقول:

«إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة، فإن هذا هو العي الأكبر، وعليك بما سهل من الكلام مع التحفظ من ألفاظ السفل»[3].

---

(١) العقد الفريد: ٤/ ١٧٥.
(٢) الصناعتين: أبو هلال العسكري ٤٣٨.
(٣) زهر الآداب: ١/ ١٥٩، إبراهيم بن المهدي: منير الحسامي ١١٢.

ويوصي المأمون كاتبه بتجنب الإعجام في كتابته، يقول:

«إياكم والشوتيز[(١)] في كتبكم»[(٢)].

كذلك يوصي المأمون بعض ولده بفصاحة اللسان، وقد سمع منه كلاماً أسرع فيه اللحن إلى لسانه، وفي ذلك يقول:

«ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أوده، ويزين مشهده، ويتملل مجلس سلطانه بظاهر بيانه، وينقل حجج خصمه بسنان مجلسه، أو يسير أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته، ولا يزال أسير كلمته»[(٣)].

ويوصي جعفر بن يحيى كاتبه بالإيجاز، فيقول:

«إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا»[(٤)].

ويعنى ابن العميد بآداب الكلام، لذلك يوصي عبد الله بن الطبري، بتجنب الكلام الفاسد الكثير وإذا أتى بكلمة محمودة فلا يلح عليه الإطناب ليأتي بمثلها، فلربما هدمت الأولى الثانية، يقول:

«وليكن كلامك جواباً تتحرز فيه من الخطل والإسهاب، ولا تعجبن بتأتي كلمة محمودة، فيلح بك الإطناب توقعاً لمثلها، فلربما هدمت ما بنته الأولى»[(٥)].

ويحث شبيب بن شيبة على طلب الأدب موضحاً أهميته، قائلاً:

«اطلبوا الأدب فإنه مادة للعقل، ودليل على المروءة، وصاحب في الغربة، ومؤنس في الوحشة، وحلية في المجلس، ويجمع لكم القلوب

---

(١) القاموس المحيط: وردت كلمة الشونيز بمعنى فارسي الأصل، وهي الكلام الأعجمي.
(٢) العقد الفريد: ١/ ٣١.
(٣) زهر الآداب: ٣/ ٧٧٥، المحاسن والمساوىء: البيهقي ٢/ ١٥٦ـ ١٥٧.
(٤) زهر الآداب: ١/ ١٩٩، وله وصية أخرى في فضل الإيجاز، ينظر نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر: ٩٦ـ ٩٧.
(٥) جمع الجواهر في الملح والنوادر: ١٢.

المختلفة»[١].

ويوصي ابن قتيبة العالم والأديب، فيقول:

«إذا أردت أن تكون عالماً فاطلب فناً واحداً، وإذا أردت أن تكون أديباً فتفنن في العلوم»[٢].

ويدعو بعض المهالبة بنيه بالتحلي بزي الكُتَّاب مبيِّناً فضلهم، قائلاً:

«تزيُّوا بزي الكُتَّاب، فإنهم جمعوا أدب الملوك وتواضع السوقة»[٣].

وهناك وصايا أخرى كثيرة مبثوثة في كتب الأدب تحث على طلب العلم والمواظبة على الدراسة، نذكر منها وصية بديع الزمان الهمذاني لابن أخته، والتي يقول فيها:

«أنت ابني ما دمت والعلم شأنك، والمدرسة مكانك، والدفتر أليفك، والمحبرة حليفك، فإن قصرت ـ ولا إخالك ـ فغيري خالك»[٤].

ويتوجه الهمذاني من خلال وصيته لابن أخته إلى جمهور المتعلمين، يحثهم على مواصلة التعليم... وقد زين وصيته بحلية السجع والجناس، ليسهل حفظها وتداولها.

ويرى بعض العلماء بأن للعقل صوراً مثل صور الأجسام، فإذا لم يسلك بها سبيل الأدب حارت وضلت، وذلك في قوله:

«فاسلك بعقلك شعاب المعاني والفهم، واستبقه بالجمام للعلم، وارتد لعقلك أفضل طبقات الأدب، وتوق عليه آفة العطب، فإن العقل شاهدك على الفضل وحارسك من الجهل»[٥].

---

(١) العقد الفريد: ٢/ ٤٢١.
(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٤٢٣.
(٣) المصدر نفسه: ٤/ ١٧٩.
(٤) يتيمة الدهر: الثعالبي ٣/ ٢٧٥، وينظر بلاغة الكتاب ١٢١، وجواهر الأدب، أحمد الهاشمي: ١/ ١٧٩.
(٥) زهر الآداب: ١/ ١٨٢.

ثانياً: (الوصايا والأنماط الأدبية الأخرى)

أ ـ الوصايا والرسائل:

الرسائل: هي أحد فروع الكتابة الإنشائية، ويراد بها أصلاً ما ينشئه الكاتب إلى غيره في غرض من الأغراض، وتشمل المقالات الإنشائية والمناظرات الأدبية، والرسائل الرسمية والشخصية، كما تشمل الخطاب والجواب والتوقيع، وقد أفاض القلقشندي في الحديث عن نظم الرسائل وأصنافها[١].

تنوَّعت موضوعات الرسائل، وضمت في ثناياها مجموعة من الوصايا في مواضيع مختلفة، منها السياسية والفنية والتربوية والتعليمية والوعظية والعلمية وغيرها.

ومن الوصايا التي عنيت بالجوانب التربوية والتعليمية تلك التي ضمنتها رسالة الأدب الوجيز للولد الصغير لابن المقفع، والتي شملت مجموعة من التوجيهات والإرشادات، في مناحي الحياة المختلفة، مستشهداً فيها على قوله بآيات من الذكر الحكيم، والحديث النبوي الشريف، وأقوال الحكماء، والتابعين من السلف الصالح، مشفوعة بأبيات من شعر الشعراء العرب والفرس.

ومما جاء في رسالته ضمن المحور الديني توصيته ولده بالاتكال على الله تعالى، والعمل بطاعته والخوف منه، ونبذ زينة الحياة، وطلب سعادة الآخرة، ومقابلة الشدائد بإيمان قوي وعقيدة راسخة.

وتناول المحور التربوي والأخلاقي، عدة جوانب، أهمها الإقبال على تعلم الآداب، وحسن اختيار الأصدقاء، وتجنُّب مجالسة أهل السوء، وتفقُّد مصالحه وتدبر أموره، والاقتداء بأرباب الكياسة والعقلاء، وتعويد لسانه على الصدق، وتجنب الحسد والعجب والتكبر، والاقتداء بسيرة العلماء والحكماء،

---

(١) ينظر صبح الأعشى: ١٤/ ١٣٨ـ ٢٥١، بلاغة الكتاب: ٩٤.

والتزام الخير وتجنب الشر، واستشارة أرباب الرأي والفطنة في معالجة الأمور، ومغالبة الأعداء، وتعويد نفسه على تحمل شدائد الحياة، وتحسين علاقاته مع الناس بقضاء حاجاتهم واستمالة قلوبهم، وتقبل النصيحة والوعظ وعدم مخالفة ذوي الفضل، وملازمة الجماعة. وأن لا يجعل نفسه نداً لذوي المُلك والسطوة، ويجالس العلماء والحكماء، وأن لا يتكبر على الناس بجاهه وسلطانه، ويلتزم بآداب معاشرة الناس الثقاة من الإخوان الصالحين والأصدقاء الناصحين، ويشرع في إتمام ما بدأ به من خير ويتأنى في الإقدام على الشر، ويحكِّم عقله في ذلك لأن العقل ثروته في الحياة، وعليه أن يعود نفسه على القناعة ومجانبة الطمع فيما لغيره، ويلتزم بآداب الطعام والسفر والغربة ويتجنب نكران الجميل، ويعوِّد نفسه على الحلم والسكينة والوقار والثبات، وصيانة العرض من الشوائب والمعايب، ويحّسن معاملة أقاربه ومعاشرة أصدقائه، ويحترس من مكر الأعداء، ويتعود الصمت، ويحترز متجنباً الخلق الذميم، مبتعداً عن التواكل في طلب الآمال[1].

ولما كانت الرسالة طويلة، فقد عرضنا لأهم مضامينها، وسنتناول عرض إحدى فقراتها للاستشهاد... تلك التي أوصى فيها ابن المقفع ولده بتهذيب النفس والاقتداء بسيرة العلماء والحكماء، يقول فيها:

«أي بني، انظر دائماً إلى العقلاء والأخيار بعينيك، واستمع واصغ إلى الكلام بأذنيك، واجعل ذهنك وضميرك في كلامهم، واقتفاء سيرتهم، والاقتداء بهم. واعلم أن هذا المعنى خير معين، وأحسن معاضد لك في بلوغ الخيرات وتحصيل الغايات، وإدراك المنافع والفوائد. وكل من يستمر على مناهج الخيرات ويلتزم الإحسان والمبرات لا يحرم من مزيد التوفيق وموهبة المعونة، فقد قيل: «المحسن مُعان»:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس»[2]

(١) ينظر الفكر التربوي رسالة الأدب الوجيز للولد الصغير: ٩٣ ،١٥٠.
(٢) المصدر نفسه: ٢٢١ ـ ٢٢٢.

ويوصيه في فقرة أخرى بتفقُّد مصالحه وتدبر أموره، فيقول له:

«أي بني، أوجب على نفسك تفقُّد أمورك ومصالحك، ولا تجز الإمهال في المهمات، والتزم النظر الصائب والفكر الصافي في دقيق الأمور وجليلها، واتباع المحاسن واستعمالها، وترك المساوىء واجتنابها، حتى لا تصير صغائرها كبائر، وكبائرها شنيعة ومشهورة، فتجتمع عندئذ خصلتان ذميمتان، وحالتان مذمومتان منكرتان، إحداهما: أن تتفرق وتنعدم الحسنات القليلة، والأخرى: أن تتجاوز السيئات الكثيرة حد التلافي والتدارك»(١).

ومن الرسائل التي عنيت بالناحية الصحية (الرسالة الذهبية في الطب)، لعلي بن موسى الرضا (رض)، التي بعثها إلى المأمون، والتي يوصيه فيها بحفظ صحة المزاج، وتدبيره الأغذية، والأشربة، والأدوية، والتي جاء في مطلعها:

«اعلم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى لم يبتل العبد المؤمن ببلاء حتى جعل له دواء يعالج به، ولكل صنف من الداء صنف من الدواء، وتدبير ونعت»(٢).

ويُشبِّه الرضا (رض) جسم الإنسان بالملك، فيجعل القلب ملك الجسد، وله ثواب وعذاب، فأما ثوابه فالفرح، وعذابه الحزن(٣).

ويُشبِّه الجسد بمنزلة الأرض الطيبة، متى تعوهدت بالعمارة والسقي دونما إقلال ولا إسراف دامت عمارتها وكثر ريعها، وزكا زرعها، وإن تغوفل عنها فسدت ولم ينبت فيها العشب، وكذلك الجسد يصح بالتدبير في الأغذية، وتزكو عافيته.

وينصح أمير المؤمنين بما يوافقه ويوافق معدته وتستمرئه نفسه وجسده، بأن يجعل طعامه بقدر كفايته، فيرفع يده عنه وله إليه ميل، فذلك أصح لمعدته

---

(١) الفكر التربوي رسالة الأدب الوجيز للولد الصغير ٢٠٧.

(٢) الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية: د. حسين ناعسة ٢٥٤، نقلاً عن الرسالة الذهبية في الطب، مخطوطة في كلية الآداب/ جامعة بغداد برقم ٤٣٠.

(٣) ينظر المصدر نفسه.

وبدنه، وأزكى لعقله، وأخف على جسمه.

وعلى هذا النحو يتابع وصيته فينصحه بأن يشرع حين يأكل بأخف الأغذية، ويحدد له العدد الأمثل للوجبات، وأوقاتها، ويعرض لفوائد النوم وطريقته الفضلى، والعناية بالأسنان، واستعمال الحجامة، واعتدال الجماع[(١)].

ومن الرسائل التي تغلب عليها النزعة الذاتية، رسالة ابن قتيبة لولده، تلك التي يوصيه فيها بخلال الخير، مبيِّناً له أساس الدين والتقوى، ويأمره بأن يلزمها قلبه، ويلزم العمل الصالح جوارحه، ويستمسك بالسنَّة المطهرة، ويجتنب الهوى والشهوة والرياء والمبتدعة، ويجاهد نفسه، ويصحب الفقراء والمساكين، ويخالف أبناء الدنيا ويكف أذاه عن الناس. ومما جاء فيها قوله:

«يا بني، أوصيك بوصية إن تمسكت بها رجوت لك النجاة، وإن استعملت ما فيها سعدت إن شاء الله... يا بني، قد صحبت لك طوائف من الناس، وبلوت أخبارهم، فما رأيت طائفة أجّل وأعظم قدراً من أهل الفقر إلى الله عزَّ وجلَّ، والفاقة والمسكنة إلى الله عزَّ وجلَّ، فالزمهم وجالسهم واخدمهم بنفسك، وتواضع لهم بجسمك، وتقرَّب إلى الله عزَّ وجلَّ بالنظر إليهم، وواسيهم بما قدرت عليه، وتغافل عن زلاتهم، وأحسن ظنك بهم، فإن الله عزَّ وجلَّ يؤيدهم إذا ماتوا إن شاء الله»[(٢)].

ومن الرسائل المضمنة للوصايا، تلك التي توجه بها الكتاب إلى كبار الشخصيات في العصر العباسي، ومنها رسالة الصحابة لابن المقفع، التي قدمها إلى الخليفة أبي جعفر المنصور، ورسالة المعاش والمعاد التي قدمها الجاحظ إلىٰ محمد بن أحمد بن أبي دؤاد.

وتتضمن رسالة الصحابة لابن المقفع التي قصد بها صحابة السلطان، مجموعة وصايا إلى الخليفة المنصور ليوجهه فيها إلى جانب مهم وخطير، وهو

---

(١) ينظر الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية: ٢٥٦ـ ٢٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ٢٥٤، ٤١٨، نقلاً عن ابن قتيبة وصيته إلى ولده نشر د. إسحاق الحسيني ٣ـ ١٥.

إصلاح نظام الحكم في ذلك العهد[١]، ولكي يلطف من حدتها بدأها بالدعاء للخليفة، الذي عصمه الله ومكّن له في الأرض. . . وجعل ذلك مدخلاً لأن يرفع إليه هذه الرسالة التي تضمنت بعض الأمور الهامة، التي تحتاج إلى صادق المشورة[٢].

واتخذت رسالته عدة محاور، أهمها التوصية بالجند، وخص منهم جند خراسان. . . يقول:

«فمن الأمور التي يذكر بها أمير المؤمنين أمتع الله به، أمر هذا الجند من أهل خراسان، فإنهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام، وفيهم صفة بها يتم فضلهم إن شاء الله»[٣].

ويعرض ابن المقفع لاختلاف الأحكام القضائية وتناقضها في الأمصار والنواحي، فيقول:

«ومما نظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمراً عظيماً»[٤].

لذلك يدعو الخليفة إلى وضع قانون موحد يجمع الأحكام المختلفة في جميع الأمصار، فيقول:

«ثم نظر في ذلك أمير المؤمنين وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله، ويعزم عليه عزماً، وينهى عن القضاء بخلافه، وكتب بذلك كتاباً جامعاً، لرجوت أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً.[٥]

(١) ينظر الوصايا في الأدب العربي القديم: ٥٥.
(٢) ينظر بلاغة الكتاب: ٢٢٢.
(٣) المجموعة الكاملة: ابن المقفع (رسالة الصحابة) ١٩٤.
(٤) المصدر نفسه: ٢٠٦.
(٥) المصدر نفسه: ٢٠٨.

ويستعطف ابن المقفع الخليفة بأهل الشام، يوصي بهم خيراً، معتذراً له عن سابق عداوتهم، قائلاً:

«ومما يذكر به أمير المؤمنين، أهل الشام فإنهم أشد الناس مؤونة وأخوفهم عداوة وبائقة[١]، وليس يؤاخذهم أمير المؤمنين بالعداوة»[٢].

ويعرض ابن المقفع لأهم موضوع في الرسالة، وهو أصحاب السلطان من حاشيته وبطانته ويوصيه بحسن التثبت، والتخير لهم، مبيِّناً له أهميتهم، قائلاً:

«ومما يذكّر به أمير المؤمنين أمر أصحابه، فإن من أولى أمر الوالي بالتثبت والتّخير أمر أصحابه الذين هم فناؤه، وزينة مجلسه، وألسنة رعيته، والأعوان على رأيه، ومواضع كرامته، والخاصة من عامته»[٣].

ولتلاعب الجباة في جمع الخراج، ولأهميته من الناحية الاقتصادية، دعا ابن المقفع الخليفة إلى تنظيمه وضبطه، وتحقيق العدالة في تقديره وجمعه، راجياً أن يكون في ذلك «صلاح للرعية، وعمارة للأرض، وحسم لأبواب الخيانة، وغشم[٤] العمال»[٥].

أما رسالة المعاد والمعاش للجاحظ، فتضم مجموعة وصايا، تدعو إلى التحلي بالأخلاق الحميدة، وتنهى عن الأخلاق المذمومة، مستشهداً بآيات من الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف، وأقوال الحكماء والشعراء.

ويستهل الجاحظ رسالته بتوصية محمد بن أبي دؤاد بتقوى الله تعالى، لأن فيها جماع كل خير... داعياً إياه إلى جعلها عدته وسلاحه، وأن يجعل أمر الله تعالى ونهيه نصب عينيه، يقول:

---

(١) البائقة: الداهية، القاموس المحيط ٣/ ٢١٠.
(٢) المجموعة الكاملة: (رسالة الصحابة) ٢١٠.
(٣) المصدر نفسه: ٢١٣.
(٤) الغشم: الظلم، القاموس المحيط ٤/ ١٥٦.
(٥) المجموعة الكاملة: رسالة الصحابة ٢١٩ـ ٢٢٠.

«فأول ما أوصيك به ونفسي تقوى الله، فإنها جماع كل خير، وسبب كل نجاة، ولقاح كل رشد، هي أحرز حرز، وأقوى معين، وأمنع جنة، هي الجامعة محبة قلوب العباد، والمستقبلة بك محبة قلوب من لا تجري عليهم نِعمك، فاجعلها عدتك وسلاحك، واجعل أمر الله ونهيه نصب عينيك»(١).

ويدعو إلى العمل بطاعة الله تعالى، وأن يجعل الرغبة والرهبة مثاله الذي يحتذى به، فيقول:

«فالرغبة والرهبة أصلا كل تدبير، وعليهما مدار كل سياسة عظمت أو صغرت، فاجعلهما مثالك الذي تحتذى عليه، وركنك الذي تستند إليه»(٢).

ويدعو الجاحظ من يوصيه إلى حسن مصاحبة الأصدقاء جاعلاً «العدل والنصفة والثواب والعقاب حاكماً بينه وبين إخوانه»(٣).

ويحذره من المفاخرة بالأنساب «لاشتمالها على الفساد، وقدحها البغضاء في القلوب، والعداوة بين الأدواء»(٤).

ويوصيه بالتحرز من أصدقاء السوء ومجالسة أهل الريب، لأنه موسوم بسيماء من قارن، ومنسوب إليه أفاعيل من صاحب، يقول:

«وقد جرت لك في ذلك الأمثال، وسطرت لك فيه الأقاويل فقالوا: «المرء حيث يجعل نفسه»، وقالوا: «المرء بشكله، والمرء بأليفه»(٥).

كما يوصيه برياضة نفسه حتى يذللها على الأمور المحمودة، فيقول:

«ولكني أوصيك برياضة نفسك حتى تذللها على الأمور المحمودة... فلتكن المساهلة في أخلاقك أغلب عليك من المعاسرة، والحلم أولى بك من

---

(١) رسائل الجاحظ: ١/٩٩ ـ ١٠٠.
(٢) المصدر نفسه: ١/١٠٥.
(٣) المصدر نفسه: ١/١٠٧.
(٤) المصدر نفسه: ١/١٢٦.
(٥) المصدر نفسه: ١/١٢٦.

العجلة، والصبر الحاكم عليك دون الجزع، والعفو أسبق إليك من المجازاة بالذنوب، والمكافأة بالسوء»[١].

ومن رسائل الصوفية المضمنة للوصية، تطالعنا الرسالة القشيرية للإمام أبي القاسم القشيري، التي ختمها بباب الوصية للمريدين، راجياً من الله حسن توفيقهم لاستعمالها، وأن لا يحرمه القيام بها، ولا يجعلها حجة عليه[٢]، ومما جاء في مقدمتها، قوله:

«فأول قدم للمريد في هذه الطريقة ينبغي أن يكون على الصدق ليصح له البناء على أصل صحيح، فإن الشيوخ قالوا: إنما حرموا الوصول لتضييعهم الأصول، كذلك سمعت الأستاذ أبا علي يقول، فتجب البداءة بتصحيح اعتقاد بينه وبين الله تعالى صاف من الظنون والشبه، خال من الضلال والبدع، صادر من البراهين والحجج»[٣].

أما رسائل الصوفية المضمنة للوصايا التربوية الروحية الخاصة بطريق التربية والتعليم رسالة: أيها الولد، لأبي حامد الغزالي، والتي تبدأ بالمتعلم من حيث هو، وتندرج معه في مسالك الصوفية، من تصفية القلب، وتحلية النفس بالمكارم، لتصل به إلى ما ينشده من كمال وصفاء ونقاء[٤].

ولا تنفصم الأفكار التربوية عند الغزالي عن الإسلام، وإن صبغها بصبغة التصوف، فهي منبثقة من الكتاب والسنَّة، لأن تصوُّف الغزالي كان تطبيقاً للكتاب والسنَّة، يشترك فيه الجسم والروح والقلب والنفس، وكل الجوارح الظاهرة والباطنة، وهو في هذه الرسالة يهاجم شحطات الصوفية، ويسمي الأمور الخارجة عن الكتاب والسنَّة (ترهات) أي أباطيل وخرافات[٥].

أما محاور الرسالة فتدور حول العلم والإيمان والعمل، فالعلم والعمل

---

(١) رسائل الجاحظ: ١/ ١٣٣.
(٢) الرسالة القشيرية: ١٩٧.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) ينظر الفكر التربوي عند الغزالي: د. عبد الغني حامد ٣٢ـ ٣٣.
(٥) ينظر أيها الولد: أبو حامد الغزالي ٣٤.

بلا اقتداء الشرع ضلالة، والتصوُّف عنده لا يكون إلا بالمجاهدة وقطع الشهوة. أما طرق التحصيل فتبدأ بعلم الشريعة باعتقاد صحيح وتوبة نصوح... وحقيقة النجاة عنده في ثمانية أشياء هي: حب العمل، وطاعة الله تعالى، والإنفاق في سبيل الله، والتقوى، والرخاء بما يقسم الله تعالى، وحب الناس، وعدم العداوة مع أحد إلا مع الشيطان، وقطع الطمع من غير الله تعالى، والتوكل على الله تعالى.

وأوجب للسالك أن يكون له شيخ مرشد ومربٍّ، واشترط أن يكون عالماً مُعرضاً عن حب الدنيا والجاه، مُحسناً رياضة نفسه مع قلة الأكل والقول والنوم، وكثرة الصلوات والصدقة والصوم.

ولا بد للطالب من احترام أستاذه ظاهراً وباطناً... ثم يعرض لخصال التصوُّف فيردها إلى عاملين: الاستقامة، والسكون عن الخلق، والصوفي من استقام وحَسُن خلقه مع الناس ومعاملتهم بالحلم.

أما العبودية فيُرجعها إلى ثلاثة أشياء: محافظة أمر الشرع، والرضا بالقضاء والقدر، وترك رضا النفس في إرضاء الله تعالى.

ويورد لتلميذه جملة نصائح يدعوه إليها حتى لا يكون علمه خصمه عليه يوم القيامة، وهي أن لا يناظر أحداً ولا يتكلف الوعظ والتذكير بدون عمل، ولا يخالط السلاطين والأمراء، ولا يقبل شيئاً من عطاياهم، وأن يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه[1].

ونستدل من توصيات الغزالي في رسالته لتلميذه إلى المنهج الذي يدعو فيه إلى الإرشاد لطريق العلم الموصل إلى الله تعالى، وعلم القلوب، أو علم الآخرة، وتوجيه النصح إلى الطرق الموصلة إلى غاية العلم وأهدافه الحقيقية[2] التي ذكرها الله تعالى في محكم كتابه المبين: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[3].

ومن توصياته التي جاءت في رسالته، تلك التي يدعوه فيها إلى الابتعاد

---

(١) ينظر أيها الولد: ٩٣ ـ ١٥١.
(٢) ينظر المصدر نفسه: ٣٤.
(٣) سورة فاطر: الآية ٢٨.

عن التناظر، لأن فيها آفات كثيرة فهي منبع كل خلق ذميم... ناصحاً إياه بالتجوز إذا أراد إظهار الحق، وذلك بأن لا يفرق بين أن ينكشف الحق على لسانه أو على لسان غيره، وأن يكون البحث في الخلاء أحب إليه من أن يكون في الملأ... يقول:

«أيها الولد... إني أنصحك بثمانية أشياء اقبلها مني لئلا يكون علمك خصمك يوم القيامة، تعمل منها أربعة وتدع منها أربعة. أما اللواتي تدع: فأحدها ألا تناظر أحداً في مسألة ما استطعت لأن فيها آفات كثيرة فإثمها أكبر من نفعها، إذ هي منبع كل خلق ذميم، كالرياء والحسد والكِبَر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها، نعم لو وقعت مسألة بينك وبين شخص أو قوم، وكانت إرادتك فيها أن تظهر الحق، جاز البحث، لكن لتلك الإرادة علامتان: أحدهما: ألا تفرِّق بين أن ينكشف الحق على لسانك أو على لسان غيرك. والثانية: أن يكون البحث في الخلاء أحب إليك من أن يكون في الملأ»[١].

ومن الرسائل السياسية المضمنة للوصايا، رسالة الخميس التي كتبها أحمد بن يوسف للمأمون، والتي كانت تقرأ بخراسان على شيعة بني العباس.

فقد جرت سنَّة العباسيين بأن يعهدوا إلى أبلغ كاتب في البلاط لكتابة رسالة تأييد للدعوة العباسية عامة والخليفة القائم خاصة، وأول من قام بذلك الكاتب عمارة بن حمزة كاتب المنصور[٢].

ويستهل أحمد بن يوسف رسالته بالتحميد ثم يذكر أحقية بني العباس بالخلافة، وأن الخليفة أولى الناس بها من سواه، ويقوم بتوصية الناس المجتمعين لسماعهم باستدامة الإفاضة فيما رفع الله من خساستهم وأعلى من أقدارهم بنصرة أهل بيت النبي ﷺ[٣]، وأن يتعهدوا أنفسهم بتذكر ما سهل الله

---

(١) ينظر أيها الولد: ١٣٦.

(٢) ينظر بلاغة الكتاب في العصر العباسي: ٢٣٥، ٢٤٤، وجمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة: أحمد زكي صفوت ٣/ ٣٧٧.

(٣) عصر المأمون: ٣٢.

لهم من الحزونة[١]، وذلّل لهم من الصعوبة، وحكم لهم به من النصر[٢]. محذراً إياهم من استمراء الطراءة[٣] والركون إلى راحة الدعة. ومما جاء فيها، قوله:

«ما قد رأيتم وباله عاد إلى أهله، وأورثتهم عواقبه طول الندم والحسرة، فإنكم قد كنتم في حال المراقبة لعدوكم، والخوف لبائقته مستيقظين متحفظين لما كان يرومكم به من ختله وحيله، ثم أفضيتم إلى الحج وقد جهدكم السعي ومسكم النصب، وسيلقي الشيطان في أمانيكم أن قد اكتفيتم بإلف ما قاسيتم، ويجد من ضعف العزائم معيناً داعياً إلى اغتنام الخفض، والإخلاد إلى الأرض، ما لم تعتصموا بما عانيتم من الاعتبار»[٤].

ثم نراه ناصحاً بأول ما يتعهدون به أنفسهم ويثابرون عليه من صالح أدبهم وتناصف الحق بينهم، وذلك «بتقديم أهل الفضائل والآثار المحمودة منكم وتفخيم أمركم، فقد علمتم أن منكم المبرر الفائت الذي لا يدرك شأوه ولا يوازى بلاؤه، حين كشف الإبلاء ضمائر القلوب وجلا مشتبهات الظنون، فصرح بالمحاربة بعد التقدم في الحجة، وفاء بمؤكد العهد ركوباً منه لهائل الخطر، غير هائب مع صحبة الحق ما برق لديه الناكس المخلوع ووعد، ولا مستوحش فيما تفرد به إلى من تولى وأدبر حتى أتى الغاية التي أجرى إليها في الله عزَّ وجلَّ وفي خليفته»[٥].

ومن الرسائل التي تضمنت وصايا ولم نعرض لها في هذا التصنيف، تلك التي عرضناها ضمن الوصايا الفنية كرسالة المعلمين للجاحظ، والرسالة العذراء لابن المدبر، ومنها ضمن الوصايا المهنية كرسالة الحجاب للجاحظ،

---

(١) الحزانة: قدمة العرب على العجم في أول قدومهم الذي استحقوا به ما استحقوا من الدور والضياع، القاموس المحيط: ٤/ ٢١٣.
(٢) عصر المأمون: ٣٣.
(٣) الطراءة: شيء طريٌّ أي غضّ بين الطراوة والطراءة، مختار الصحاح ٣٩١ مادة طرآ.
(٤) عصر المأمون: ٣٣.
(٥) المصدر نفسه: ٣٤.

والتي كانت ضمن الوصايا الإخوانية كرسالة الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي.

ب ــ الوصايا والخطب:

لما كانت هناك مناسبة بين الخطب والوصايا... «لما يجمع بينهما من مشافهة المخاطبين، والحرص على إقناعهم في أسلوب قوي محكم»[١]، لذلك وجدنا خطب العباسيين تتناول في جوانبها مجموعة من الوصايا التي تدعو إلى تقوى الله تعالى والعمل بطاعته والانتهاء عن معصيته، من ذلك وصية المنصور في خطبة له لعامة الناس، تلك التي يدعوهم فيها إلى الإلفة واجتماع الكلمة، محذراً إياهم من الفرقة، ناهياً عن اختلافهم، مستشهداً على قوله بآي من الذكر الحكيم... والتي جاء في إحدى فقراتها:

«... أما بعد، فإني أوصيكم بالإلفة، وأحذركم الفرقة، وآمركم بالاجتماع، وأنهاكم عن الاختلاف، قال الله جلَّ وعزَّ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[٢]، فأمر بالجماعة في أول الآية ثم لم ينقص حتى نهى فيها عن الفرقة توكيداً للحجة وقطعاً للمعذرة...»[٣].

وبأسلوب الوعظ الديني يوصي المهدي في خطبة له إمام الناس بتقوى الله تعالى وإجلال عظمته واجتناب عذاب اليوم الآخر، والتي جاء في إحدى فقراتها، قوله:

«... أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن الاقتصار عليها سلامة، والترك لها ندامة. وأحثكم على إجلال عظمته، وتوقير كبريائه وقدرته، والانتهاء إلى ما يقرب من رحمته، وينجي من سخطه، وينال به ما لديه من كريم الثواب، وجزيل المآب، فاجتنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب، وأليم العذاب، ووعيد الحساب، يوم توقفون بين يدي الجبار، وتعرضون فيه على النار، يوم

---

(١) أساليب النثر الفني: ١٠٥.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.
(٣) الوزراء والكتاب: ٢٠٩.

لا تكلم نفس إلا بإذنه...»[(١)].

ويأخذ المحور الديني متسعاً كبيراً في وصايا الرشيد التي تضمنتها إحدى خطبه، فبعد حمد الله تعالى والتوكل عليه والتشهد، يوصي الرشيد المسلمين بتقوى الله تعالى، محذراً إياهم من يوم البعث، ناصحاً بتحصين إيمانهم بالأمانة ودينهم بالورع وصلاتهم بالزكاة، مستشهداً بقول الرسول ﷺ، وناصحاً بالإسراع إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى، وإلى الهدى بالإنابة، مستشهداً على قوله بآي من الذكر الحكيم، والتي جاء في إحدى فقراتها:

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن التقوى تكفير السيئات، وتضعيف الحسنات، وفوز بالجنة، ونجاة من النار، وأحذركم يوماً تشخص فيه الأبصار، وتبلى فيه الأسرار، يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاق ويوم التناد، يوم لا يستعتب من سيئة، ولا يزداد في حسنة، يوم الآزفة، إذا القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم، ولا شفيع يطاع، يعلم فيه خائنة الأعين وما تخفي الصدور، واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، عباد الله، إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تتركوا سدى، حصنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء في الخبر: أن النبي ﷺ قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، ولا صلاة لمن لا زكاة له»[(٢)]**. إنكم سفر مجتازون، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة، وإلى الرحمة بالتقوى، وإلى الهدى بالإنابة، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين، ومغفرته للتائبين، وهداه للمنيبين. قال الله عزَّ وجل وقوله الحق:** ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾»[(٤)].

---

(١) العقد الفريد: ٤/ ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) مسند ابن حنبل: ٣/ ١٣٥، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٤) سورة طه: الآية ٨٢، العقد الفريد: ٤/ ١٠٣.

وبأسلوب الإرشاد والنصح الديني يوصي المأمون في خطبة له يوم الجمعة جماعة المسلمين بتقوى الله تعالى والعمل بطاعته والخوف من وعيده، وترك ملذات الحياة الدنيا والعمل لليوم الآخر والتزود لذلك بالأعمال الصالحات. . . والتي جاء في بعضها قوله:

«أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده، والعمل لما عنده، والتنجز لوعده، والخوف لوعيده، فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه، وعمل له وأرضاه، فاتقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى، وترحّلوا عن الدنيا، فقد جَدَّ بكم، واستعدوا للموت فقد أظلّكم، وكونوا كقوم صِيح فيهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا»[١].

جـ ـــ الوصايا والعهود:

يأتي تعريف الوصية في اللغة بمعنى: العهد، يقال: أوصى الرجل ووصاه أي عهد إليه[٢]. ووصيته أي: عهدت إليه القيام بأمر[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾[٤].

لذلك فالعهود هي وصايا. . . تختلف باختلاف المعهود بها، وهي تشبه إلى حد بعيد بالدستور الذي يرسم الخطة لمن يناط به العمل من الاستمساك بالدين وتحقيق العدالة والحزم في الأمور، والعفة إن كان عهداً بالولاية، وتحث على التحلي بالصفات الحربية، كالشجاعة والإقدام والتضحية لمن يتولى أمارة الجيش، وعلى الالتزام بالعدالة والتقوى والنزاهة والعلم لمن يختص بالقضاء[٥].

---

(١) العقد الفريد: ٤/ ١٠٤.
(٢) لسان العرب: مادة وصى.
(٣) العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي مادة عهد.
(٤) سورة يٰس: الآية ٦٠.
(٥) بلاغة الكتاب: ١١٣.

ومن العهود التي اختصت بالولاة عهد الرشيد لهرثمة بن أعين حين ولّاه خراسان وأعمالها وخراجها، فأمره بتقوى الله تعالى وطاعته والعمل بأحكام القرآن الكريم في جميع ما هو بسبيله، فيحل حلاله ويحرِّم حرامه، ويقف عند متشابهه ويسأل عنه أهل الفقه والعلم في دين الله وكتابه، أو يرده إلى إمامه... يقول:

«آمره بتقوى الله وطاعته، ورعاية أمر الله ومراقبته، وأن يجعل كتاب الله إماماً في جميع ما هو بسبيله، فيحلّ حلاله، ويحرِّم حرامه، ويقف عند متشابهه، ويسأل عنه أولي الفقه في دين الله، وأولي العلم بكتاب الله، أو يرده إلى إمامه، ليريه الله عزَّ وجلَّ فيه رأيه، ويعزم له على رشده»[١].

ويتابع توصيته، فيأمره بأن يستوثق من عمل علي بن عيسى وولده، ويستخرج منهما الخراج والفيء، ويستوفي حقوق المسلمين، فإذا ثبت إهمالهم أقام عليهم الحد وساقهم إلى باب أمير المؤمنين[٢]، ويختم وصيته ناصحاً إياه العمل بما عهد إليه، قائلاً:

«فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك، فإني آثرت الله وديني على هواي وإرادتي، فكذلك فليكن عملك، وعليه فليكن أمرك، ودبر في عمال الكور الذين تمر بهم في صعودك ما لا يستوحشون معه إلى أمر يريبهم، وظن يرعبهم، وابسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم، ثم اعمل بما يرضي الله منك وخليفته ومن ولاك الله أمره إن شاء الله»[٣].

ويعهد الموفق بالله إلى أحد الولاة حين ولّاه الصلاة بأهل كورة الري فيوصيه بأسلوب الوعظ والإرشاد الديني بتقوى الله تعالى والعمل بأوامره والانتهاء عما نهى عنه، وأن يكون أول ما يعنى به ويقدمه إقامة الصلاة لمواقيتها، وأن يحسن لأهل الولاية، فيكثر الجلوس معهم والنظر في أمورهم، ويفيض العدل والنصفة فيهم، ويتفقد من معه من موالي أمير المؤمنين وأوليائه،

---

(١) تأريخ الطبري: ٨/ ٣٢٧، جمهرة رسائل العرب: ٣/ ٣٢٨.
(٢) المصدر نفسه: ٨/ ٣٢٧ـ ٣٢٨.
(٣) المصدر نفسه، جمهرة رسائل العرب: ٣/ ٣٢١.

ويقدم أهل الفضل والصلاح والموالاة للسلطان ويدنيهم ويقربهم...»[١].

ومما جاء في أحد فقراتها... قوله:

«وأمره أن يحسن الولاية لأهل عمله، والسياسة لمن استرعى أمره، ويكثر الجلوس معهم، والنظر في أمورهم، ويفيض العدل والنصفة فيهم، ويكف العدو الظالم عنهم، ويسوي الحق بين كافتهم، ولا يميل إلى شريف في شرفه، ولا على خامل لسقوط منزلته، وأن يختار لولاية أعماله حاضرها ونائيها، وقريبها وبعيدها، ذوي العفاف والشهامة والكفاية، ويوعز إليهم في الرفق بأهلها لمن حسنت طاعته واستقامت طريقته، والشدة على من خالف الحق مذهبه»[٢].

ويعهد الخلفاء للقضاة بتولي منصب قاضي القضاة، كعهد الخليفة المسترشد بالله، والخليفة الناصر لدين الله، والخليفة الطائع لله، والتي تناولت محاورها التوصية بتقوى الله تعالى والإكثار من تلاوة القرآن الكريم والاسترشاد بهدى آياته الكريمة، وأن يقوم القاضي بمجالسة العلماء، ومباحثة الفقهاء في الأمور المشكلة لتستبين سبيل الصواب، وأن يرجع في أصول المترافعين إليه إلى كتاب الله تعالى والسنَّة النبوية الشريفة، وما أجمع عليه فقهاء المسلمين إضافة إلى عمله واجتهاده، وأن ينظر في أحوال اليتامى ويرعى أموالهم وأملاكهم، وأن يستصحب معه كاتباً درياً بالمحاضر، عالماً بالشروط والحدود، وأن يحفظ ما في ديوانه من السجلات ويوجب حراستها، وأن يمضي ما أمضاه الحكام، وأن يقوم بأمر الحسبة[٣].

وللاستدلال على ما جاء في هذه العهود، نورد إحدى فقرات عهد المسترشد بالله، لقاضي القضاة أبي القاسم علي بن الحسين الزينبي، يقول:

«وأمره أن يتأمل أحوال المترافعين إليه، والخصوم لديه، ويتطلب ما وقع

---

(١) جمهرة رسائل العرب: ٣/ ٣٣٤ ـ ٣٤٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣/ ٣٣٥ـ ٣٣٦، نقلاً عن اختيار المنظوم والمنثور: ابن طيغور ١٣/ ٣٤٦.

(٣) صبح الأعشى: ١٠/ ٢٦٨.

نزاعهم لأجله في نص الكتاب، ويعدل إلى السنة عند عدمه من هذا الباب، فإن فقد من هذين الوجهين، فليرجع إلى ما اختاره السلف المهتدون، وأجمع عليه الفقهاء المجتهدون، فإن لم يلق فيه قولاً ولا إجماعاً، ولا وجد إليه طريقاً مستطاعاً، اعمل رأيه واجتهاده، وامتطي ركاب وسعه وجياده، مستظهراً بمشورة الفقهاء في هذه الحال، ومستخلصاً من آرائهم ما يقع عليه الاتفاق إلا من الاعتلال ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾»[(١)].

ويعهد الطائع لله لأبي محمد بن موسى العلوي بولاية الصلاة فيوصيه بتقوى الله تعالى والمواظبة على تلاوة القرآن الكريم، وتهذيب عقله من الوساوس، وتطهير قلبه من الهواجس، لتصح شروط صلاته، وتقبل مرفوع دعواته، وبالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، وبكثرة التحفظ والتيقظ في خطبته، وأن يقيم الدعوة على منابر أعماله لأمير المؤمنين[(٢)].

ومما جاء في توصيته، مراعاة المساجد وتعهد الجوامع، وفي ذلك يقول:

«وأمره بمراعاة المساجد، وتعهد الجوامع، وسد خللها، ولمِّ شعثها، فإنها مقاوم عزه وفخره، ومحاضر صيته وذكره، ومراكز أعلام الدين الخافقة، ومطالع شموس الإسلام الشارقة، ومواقف الحق المشهودة، وقواعد الإيمان الموطودة، مما لا يتضعضع أحدهما إلا تضعضع من أركان الإسلام له ركن، ولا التات[(٣)] بعضها إلا التات من أعضاء الدين عضو. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾»[(٤)].

ويعهد الطائع لله للحسن بن موسى العلوي النظر في الأوقاف فيوصيه بعمارتها وحسن استغلالها وتثميرها، وتولية كاتب معروف بالسداد على ديوانها

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤، صبح الأعشى: ١٠/ ٢٦٠.
(٢) ينظر المصدر نفسه ١٠/ ٢٥٤ ـ ٢٥٩.
(٣) التات: اللت: الفت والسحق، واللُّتات بالضم: ما فُتّ من قشور الشجر ومالت به، القاموس المحيط ١/ ١٥٦.
(٤) سورة التوبة: الآية ١٨، وينظر صبح الأعشى ١٠/ ٣٥٩ـ ٣٦٢.

وخازن أمين لخزن حججها وسجلاتها والتعهد لها بالرعاية والاهتمام... ومما جاء في إحدى فقراتها قوله:

«وأمره بالاشتمال على ما أسنده إليه أمير المؤمنين من هذه الوقوف مستنفذاً طوقه في عمارتها، مستفرغاً وسعه في مصلحتها، دائباً على استغلالها وتثميرها، مجتهداً في تدبيرها وتوفيرها، وأن يصرف فاضل كل وقف منها بعد الذي يخرج منه للنفقة على حفظ أصله»(١).

ويعهد المطيع لله إلى الحسين بن موسى العلوي النظر في المظالم، فيوصيه بتقوى الله تعالى، وتلاوة القرآن الكريم، وأن يفتح بابه ويسهل حجابه، ويبسط وجهه، ولا يرد للقضاء حكماً يمضونه بفسخ أو نقض، وأن يستظهر على معرفته بمشاورة القضاة والفقهاء للاسترشاد بأحكامهم... ومما جاء فيها من واجبات صاحب المظالم قوله:

«وأمره أن يجلس للخصوم جلوساً عاماً، ويقبل عليهم إقبالاً تاماً، ويتصفح ما يرفع إليه من ظلاماتهم، وينعم النظر في أسباب محادثاتهم، فما كان طريقه طريق المنازعة المعلقة بنظر القضاة وشهادات العدول رده إلى المتولي للحكم، وما كان طريقه الغصوب المحتاج فيها إلى الكشف والفحص، والاستشفاف والبحث، نظر فيه نظر صاحب المظالم، وانتزع الحق ممن غصب عليه، واستخلصه ممن امتدت له يد التعدي والتغرر إليه، وأعاده إلى مستحقه، وأقره عند مستوجبه، غير مراقب كبيراً لكبره، ولا خاصاً لخصوصه، ولا شريفاً لشرفه، ولا متسلطناً لسلطانه، بل يقدم أمر الله جل ذكره في كل ما يأتي ويذر، ويتوخى رضاه فيما يورد ويصدر، ويكون على الضعيف الحق حدباً رؤوفاً حتى ينتصر وينتصف، وعلى القوي المبطل شديداً غليظاً حتى ينقاد ويذعن، قال الله جلّ وعزّ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾»(٢).

---

(١) صبح الأعشى: ١٠/ ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٢) سورة ص: الآية ٢٦، وصبح الأعشى: ١٠/ ٢٤٤ـ ٢٤٥.

ومن العهود التي نالت شهرة واسعة في عصرها، وتناقلتها كتب الأدب والتاريخ، عهد طاهر بن الحسين إلى ولده عبد الله، عندما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما، فكان هذا العهد أشبه بدستور عمل متماسك الأطراف، شمل جوانب الحياة المختلفة، وعرض لشخصية الحاكم في أمور دينه ودنياه، وما عليه أن يؤديه بينه وبين ربه، ثم موقفه من الرعية وتدبر أمورها في فئاتها المختلفة[١].

واتخذت وصايا طاهر بن الحسين في هذا العهد عدة محاور وتناولت أمور الحياة المختلفة، دخلت في تفاصيلها الدقيقة، لترسم منهجاً متكاملاً لسياسة الحاكم مع الرعية، لذلك شاعت بين الناس فكتبوها وتدارسوها حتى سمع بها المأمون... فلما قرأها قال:

«ما أبقى أبو الطيب شيئاً من أمر الدين والدنيا، والتدبير والرأي، والسياسة وإصلاح الملك والرعية، وحفظ البيعة، وطاعة الخلفاء، وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم فيه»[٢].

وأمر بكتابة العهد وإرساله إلى جميع العمال في نواحي الأعمال، للاسترشاد به والعمل بمقتضاه[٣].

ويستهل طاهر بن الحسين عهده بالوعظ والإرشاد الديني، فيوصي ولده بتقوى الله تعالى واتباع شرائعه، والأخذ بسنن نبيه محمد ﷺ، والعمل بالفرائض وإيثار الفقه والدين والتزام البر والحق والعدل وصلة الرحم، والتمسك بفضائل الأخلاق وإصلاح الملك والرعية، وطاعة الخلفاء، وحفظ بيضة الإسلام[٤].

ويوصي طاهر بن الحسين في إحدى فقرات عهده ابنه بالابتعاد عن

---

(١) ينظر الوصايا في الأدب العربي القديم: ١٣، جمهرة وصايا العرب: ٣/ ٣٩.
(٢) تأريخ بغداد: ابن طيفور ٢٩.
(٣) ينظر المصدر نفسه.
(٤) ينظر تأريخ الطبري: ٨/ ٥٨٢ـ ٥٩١، جمهرة خطب العرب: ٣/ ١٣٤.

الشره، والتزام البر والتقوى والعدل، والاهتمام بالرعية وإعمار بلادهم، وتفقُّد أمورهم، وحفظ عامتهم، وإغاثة ملهوفهم، يقول:

«ودع عنك شره نفسك، ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكنز البر والتقوى والمعدلة، واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم، والتفقُّد لأمورهم، والحفظ لدهمائهم، والإغاثة لملهوفهم»[١].

ويدعوه في فقرة أخرى إلى أخذ العبرة من أهل السلطان في الأمم البائدة والقرون الخالية، والاعتصام بأمر الله تعالى والعمل بشريعته وسنته، وتجنب مخالفته، يقول:

«واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبته، والعمل بشريعته وسنته وإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله»[٢].

د ــ الوصايا والمقامات:

المقامة: المجلس والجماعة من الناس، ومقامات الناس مجالسهم[٣]، والمقامات المجالس، واحدتها: مقامة، والحديث يجتمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلس، لأن المستمعين ما بين قائم وجالس... وأن بديع الزمان الهمذاني هو أول من ابتكر تسمية المقامة وأطلقها على فنه الذي يدور حول الكدية وأصحابها الذين يتجولون في البلاد المختلفة، يتكسبون بالأدب تارة والاحتيال تارة أخرى[٤].

ومن المقامات التي أنشئت في الكدية وتحمل في جوانبها النصح والتوجيه، المقامة الوصية، والتي يوصي فيها أبو الفتح الإسكندري ابنه وقد

---

(١) تأريخ الطبري: ٨/ ٥٨٥.

(٢) المصدر نفسه: ٨/ ٥٩٠.

(٣) ينظر معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: ٢٠٧، الفن ومذاهبه في النثر العربي: د. شوقي ضيف ٢٤٦ وما بعدها.

(٤) ينظر بديع الزمان الهمذاني: مصطفى الشكعة ٢١٩.

جهزه للتجارة. . . «وهي تشهد لبديع الزمان البراعة المتناهية في فن الكدية، إذ المعروف أن الكدائين على جانب عظيم من البخل في الغالب، والنصيحة هنا لا تخلو من الحكم المضحكة، فأبو الفتح يحث ولده على الحرص في أعظم صوره، وعلى البخل في أبشع حالاته»[١].

وبالأسلوب المسجوع يحذر أبو الفتح الإسكندري ابنه من سلطان نفسه وشيطان شهوته، ناصحاً إياه بالصوم في النهار والنوم في الليل، ويحذره من الكرم والقرم ويعدهما لصّين مبيناً مضارهما، ويشدد على أن الكرم هو الذي يزيده، لا الذي ينقصه وينصحه بأن لا ينفق من ماله شيئاً إلا الربح، كما ينصحه بالاقتصاد في الأكل مبيِّناً له بأن واقية القوت الأكل على الجوع، وداعية الموت الأكل على الشبع، خاتماً وصيته بنصحه بأن يأخذ من الناس كل ما معهم مع الحفاظ على ماله. . . والتي جاء فيها:

«يا بني، إني وثقت بمتانة عقلك وطهارة أصلك، فإني شفيق والشفيق سيىء الظن ولست آمن عليك النفس وسلطانها، والشهوة وشيطانها، فاستعن عليهما نهارك بالصوم، وليلك بالنوم، إنه لبؤس طهارته الجوع، وبطانته الهجوع[٢]، وما لبسهما أسد إلا لانت سورته، أفهمتهما يا ابن الخبيثة!. وكما أخشى عليك ذاك فلا آمن عليك لصّين أحدهما الكرم واسم الآخر القرم[٣]، فإياك وإياهما، إن الكرم أسرع في المال من السوس، وإن القرم أشأم من البسوس. ودعني من قولهم: إن الله كريم، إنها خدعة الصبي عن اللبن، بلى إن الله كريم ولكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه، وينفعنا ولا يضره، ومن كانت هذه حاله فلتكرم خصاله، فأما كرم لا يزيدك حتى ينقصني، ولا يريشك[٤] حتى يبريني[٥] فخذلان، لا أقول عبقري ولكن بقري[٦]، أفهمتهما يا ابن

---

(١) بديع الزمان الهمذاني: ٢٢٩.
(٢) الهجوع: النوم ليلاً، القاموس المحيط: ٣/ ٩٨.
(٣) القرم: محركة شدة شهوة اللحم، المصدر نفسه: ٤/ ١٩٣.
(٤) يريشك: الرِّيش: الخصب والمعاش، المصدر نفسه: ٢/ ٢٧٦.
(٥) يبريني: أي يضعفني كما يُبرى العود، المصدر نفسه: ١/ ٨.
(٦) بقريّ: التبقر، التوسع في العلم، مختار الصحاح: ٥٩ مادة بقر.

المشؤومة!. إنما التجارة تنبطّ من الحجارة، وبين الأكلة والأكلة ريح البحر. . . . . أفتتركه وهو معرض ثم تطلبه وهو معوز، أفهمتهما لا أم لك!. إنه المال عافاك الله فلا تنفقن إلا من الربح، وعليك بالخبز والملح، ذلك من الخل والبصل رخصة ما لم تذمهما ولم تجمع بينهما، واللحم وما أراك تأكله، والحلو طعام من لا يبالي على أي جنبه يقع، والواجبات عيش الصالحين، والأكل على الجوع واقية القوت، وعلى الشبع داعية الموت. ثم كن مع الناس كلاعب الشطرنج خذ كل ما معهم واحفظ كل ما معك»[(١)].

ولئن غلبت الكدية على مقامات بديع الزمان الهمذاني إلا أنها تحتوي أغراضاً أخرى كالتوجيه والوعظ الديني، كما جاء في المقامة الوعظية التي التزمت السجع التزاماً تاماً، وليس السجع بالأمر الغريب حينما يلتزم في مواطن الوعظ، فللسجع رنة موسيقية تسهل لمعاني الألفاظ سرعة التأثير في النفوس[(٢)].

ويبدو بديع الزمان في مقاماته الوعظية متديناً كل التدين، عندما يجعل بطله أبا الفتح الإسكندري، يوصي واعظاً المسلمين بالعمل من أجل الآخرة، ومحذراً من الدنيا ومكايدها وزينتها. . . فهي لا محالة زائلة، لذلك توجب الاستعداد للرحيل وذلك بالأعمال الصالحة الباقية.

ويظهر التصوف والزهد في هذه المقامة، وليس بعيداً أن يكون بديع الزمان قد أقبل على التصوف، لأن هذا النوع من العبارة كان منتشراً في القرن الرابع الهجري نتيجة لظلم الحكام وجورهم، فهو يستملح الفقر ويدعو إليه، ويستقبح الغنى ويحمل عليه، ونراه يزهد في الدنيا وما فيها من أسباب الترف والنعيم، ويحبِّب الآخرة ويحض على البدار بعقبى الدار[(٣)]. والتي جاء فيها:

«أيها الناس إنكم لم تتركوا سدىً، وإن مع اليوم غداً، وإنكم وارِدوا

---

(١) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

(٢) ينظر بديع الزمان الهمذاني: ٢٢٥..

(٣) ينظر المصدر نفسه: ٢٥٦، والبدار: المبادرة والإسراع.

هوّة، فأعدوا لها ما استطعتم من قوة. وأن بعد المعاش معاداً، فأعدوا له زاداً، ألا لا عذر فقد بيَّنت لكم المحجة، وأخذت عليكم الحجة من السماء بالخير، ومن الأرض بالعبر، ألا وإن الذي بدأ الخلق عليماً يحيي العظام رميماً، ألا وأن الدنيا دار جهاز، قنطرة جواز، من عبرها سلم، ومن عمرها ندم. ألا وقد نصبت لكم الفخَّ ونثرت لكم الحبَّ، فمن يرتع يقع... ومن يلقط يسقط. ألا وإن الفقر حيلة نبيكم فاكتسوها، والغنى حلة الطغيان فلا تلبسوها. كذبت ظنون الملحدين، الذين جحدوا الدين، وجعلوا القرآن عضين. وإن بعد الحدث حدثاً، وإنكم لم تخلقوا عبثاً، فحذار حر النار، وبِدار عقبى الدار. ألا وإن العلم أحسن على علاته، والجهل أقبح على حالاته، وأنكم أشقى من أظلَّته السماء إن شقي بكم العلماء، الناس بأئمتهم، فإن انقادوا بأزمتهم نجوا بذمتهم. والناس رجلان: عالم يرعى، ومتعلم يسعى. والباقون هامل[1] نعام[2] وراتع[3] أنعام[4]. ويلٌ عالٍ أمِرَ من سافله، وعالم شيء من جاهله»[5].

ويلائم بديع الزمان بين الشعر والنثر في مقاماته الوعظية حيث أنشأ قصيدة طويلة وجزأها على مجموعة من الأبيات، يأتي بفقرات من النثر ثم يكملها بأبيات من الشعر في نفس المعنى، وذلك لتوكيد كلامه وترسيخه في ذهن المتلقي. والتي جاء في أحد فقراتها، قوله:

«يا قوم الحذر الحذر، والبدار البدار من الدنيا ومكايدها وما نصبت لكم من مصايدها، وتجلت لكم من زينتها، واستشرفت لكم من بهجتها.

وفي دون ما عانيت من فجعاتها إلى رفضها داع وبالزهد آمر
فجد ولا تغفل فعيشك بائد وأنت إلى دار المنية صائر

(١) هامل: أهملت الإبل تهمل فهي هامل، أي تركت ليلاً ونهاراً، القاموس المحيط: ٤/ ٧١.
(٢) نعام: الإبل، المصدر نفسه ٤/ ١٨٢.
(٣) راتع: رتع، رتع، فلان مرتع، أي مخصب لا يعدم شيئاً يريده، المصدر نفسه: ٣/ ٢٧.
(٤) إنعام: النعيم، المصدر نفسه: ٤/ ١٨٢.
(٥) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ١٣٠ـ ١٣٢.

ولا تطلب الدنيا فإن طلابها وإن نلت منها رغبة لك ضائر»[(١)]

ثالثاً: (وصايا أخرى في موضوعات متفرقة)

أ ـ وصايا الطفيليين:

التطفيل من اللؤم، وهو التعرض إلى الطعام من غير أن يدعى إليه[(٢)]. ونسب التطفيل إلى طفيل العرائس[(٣)]، ورجل طفيل: هو الذي يدخل مع القوم فيأكل كل طعامهم من غير أن يدعى، وهو منسوب إلى طفيل المذكور[(٤)].

ولعل أشهر من نسب إليه التطفيل، وكثرت عنه الحكايات، بنان الطفيلي[(٥)]، الذي نقل له البغدادي عدداً من الوصايا في كتابه التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم.

إن وصايا التطفيل هي إحدى أنواع الوصايا في العصر العباسي، ولعلها استجدت مع التحول الكبير في الحياة الاجتماعية أو نتيجة اتصال العرب بغيرهم من الأمم الأخرى، وذلك لما تحمله وصايا هذه الفئة من الناس من عادات وتقاليد بعيدة كل البعد عن طبائع العرب وعاداتهم وأخلاقهم، حيث التوصية بالبخل والدعوة إلى العيش على موائد الآخرين، واتخاذ أساليب كثيرة للتحايل على أصحاب دعوات الأعراس والولائم، والدخول إليها من غير أن توجه إليهم الدعوة، وهو ما يرفضه الطبع العربي المجبول على الكرم والإباء وعزة النفس.

إن أهم موضوعات هذه الوصايا هي التوصية بحضور الولائم والأعراس في وقت مبكر، واختيار مواقع الجلوس على صدر الموائد، واختيار أفضل

---

(١) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ١٣٤.

(٢) نهاية الأرب: النويري ٣/ ٣٢٨، العقد الفريد: ٦/ ٢٠٤.

(٣) جاء في لسان العرب: أن طفيل العرائس رجل من أهل الكوفة من بني عبد الله بن غطفان... كان يأتي الولائم دون أن يدعى إليها: ١١/ ٤٠٤.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) بنان الطفيلي: هو عبد الله بن عثمان، ويكنى أبا الحسن، ولقبه بنان، وأصله مروزيّ، أقام ببغداد، ينظر نهاية الأرب: ٣/ ٣٢٨.

أنواع الطعام والشراب.

وتنبىء هذه الوصايا عن واحدة من صور الحياة الاجتماعية في العصر العباسي، حيث تجسد طبائع وعادات هذه الشريحة من الناس، وتصور أخلاقهم المجبولة على التحايل والطمع والبخل، والتي عادة ما تمتزج فيها الفكاهة بالتندر، وتكاد تخلو من العبرة والموعظة الحسنة، لذلك فهي تبتعد عن الهدف الأساس للوصايا محور الدراسة، تلك التي تدعو إلى تهذيب الأخلاق وتوجيه السلوك، وتحذر من مغريات الحياة ومزالقها.

ومن وصايا الطفيليين التي تصور عاداتهم ولؤم طبعهم... دعوتهم بالابتعاد عن مصاحبة أحد على مائدة الطعام، فهذا بنان الطفيلي يوصي رجلاً، وقد طلب منه ذلك، بأن لا ينادم أحداً لأنه إن فعل فإنه سوف يستأثر بالطعام لنفسه فيمنع عنه جزء من الأكل، لذلك يوصيه متخذاً من التظرف والمفاكهة لوناً للتعبير عن قصده بأن يبتعد عن كل من ينافسه على الطعام اللذيذ، وينصحه بالابتعاد عن مصاحبة الشره الذي يستولي على الطعام ولا يبالي بمن يأكل على المائدة، يقول:

«لا تنادم أحداً، فإن كنت لا بد فاعلاً فنادم من لا يستأثر عليك بالمخ، ولا ينهب بيضة البقلية[(١)]، ولا يلتقم جلد الدجاجة، ولا يختطف كلية الجدي، ولا يزدرد قانصة[(٢)] الكركي، ولا يقتطع سرة الشصان[(٣)]، ولا يعرض لعيون الرأس، ولا يستولي على صدر الدراج، ولا يتناول إلا ما بين يديه، ولا يلاحظ ما بين يدي غيره، وإن أتي بجدي شواء، كشح كل شيء عليه لا يرحم ذا سن لضعفه، ولا يرقّ على حدث لحدة شهوته، ولا ينظر للعيال، ولا يبالي كيف دارت بهم الحال»[(٤)].

---

(١) البقلية: هو كل نبات اخضرت له الأرض، القاموس المحيط: ٣/ ٣٣٦.
(٢) القانصة: القوانص للطير كالمصارين للغير، المصدر نفسه: ٣/ ٣١٥.
(٣) الشصان: الناقة الغليظة اللبن، المصدر نفسه: ٢/ ٣٠٦.
(٤) التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم: الخطيب البغدادي ٧٠ـ ٧١.

ويعد التحايل أحد أساليب الطفيليين لدخول الولائم والأعراس. . . لذلك يوصي طفيل العرائس ابنه بأحد هذه الأساليب، قائلاً:

«إذا دخلت عرساً فلا تلتفت تلفُّت المريب، وتخيّر المجالس، فإن كان العرس كثير الزحام فأمر وآنه؛ ولا تنظر في عيون أهل المرأة، ولا في عيون أهل الرجل، ليظن هؤلاء إنك من هؤلاء، ويظن هؤلاء أنك من هؤلاء، فإن كان البواب غليظاً فابدأ به ومره وانهه من غير أن تعنِّفه، وعليك بكلام بين النصيحة والدلال»[1].

ولما كان التطفيل لؤماً وشحاً في طبع المتطفلين، لذلك وجدناهم يؤثرون كل شيء لأنفسهم. . . وهذا ما تؤكده وصية أحد المتطفلين لغلامه، عندما يدعوه للاحتيال على الجالس بقربه ليتسع له المكان على المائدة، ناصحاً إياه بأن يأكل كل ما يصادف من الطعام، وأن يتزود منه، كأنه لم يره أبداً. . . يقول:

«. . . وإذا قعدت على مائدة وكان موضعك ضيقاً فقل للذي إلى جانبك: يا أبا فلان لعلي قد ضيّقت عليك، فإنه يتأخر إلى خلف ويقول: سبحان الله، لا والله موضعي واسع، فيتسع عليك موضع رجل، ولا تصادفن من الطعام شيئاً فترفع يدك عنه، وتقول: لعلي أصادف ما هو أطيب منه، وإذا وجدت خبزاً فيه قلة فكل الحروف، فإذا كان كثيراً فكل الأواسط، ولا تكثر شرب الماء وأنت تأكل فإنه يمنعك من الأكل، وهذا عين الحماقة. وإذا وجدت الطعام فكُل منه أكل من لم يره قط، وتزود منه زاد من لا يراه أبداً»[2].

ويوصي ابن دراج الطفيلي بأسلوب مسجوع بعدم التخوف عند دخول الولائم من البواب والحجاب، وأن يستخدموا أسلوب التحايل والمراوغة حيناً، والتملق حيناً آخر، حتى إذا وصلوا إلى مرادهم فعليهم باحتكار الطعام

---

(١) التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم: الخطيب البغدادي: ٦٨.
(٢) المصدر نفسه: ٧١ـ ٧٢.

لأنفسهم، لأنهم أحق بالطعام من غيرهم، ممن دعي إليه ووُضِع له، مستشهداً بقول أبي نواس في أثناء وصيته:

«لا يهولنَّكم غلق الأبواب، ولا شدة الحجاب، ولا عنف البواب، وتحذير العقاب، ومبارزة الألقاب، فإن ذلك صائر بكم إلى محمود النوال، ومغن لكم عن ذلّ السؤال، واحتملوا الوكزة[١] الموهنة، واللطمة المزمنة، في جنب الظفر بالبغية، والدرك للأمنية، والزموا الطوزجة[٢] للمعاشرين، والخفة بالواردين والصادرين، والتملق للملهين والمطربين، والبشاشة بالخدم والموكّلين، فإذا وصلتم إلى مرادكم فكلوا محتكرين، وادخروا لعذركم مجتهدين، فإنكم أحق بالطعام ممن دُعي إليه، وأولى ممن صُنع له، فكونوا لوقته حافظين، وفي طلبه متمسكين، واذكروا قول أبي نواس:

ليخمس مال الله من كل فاجر   وذي بطنة للطيبات أكول»[٣]

ب ــ وصايا البخلاء:

وهو نوع جديد من الوصايا يختلف عما تعارف عليه الموصون العرب... فالمعروف أن العرب تشيد بالكرم وتفخر به، وتكاد لا تخلو الوصايا التربوية التي تحث على مكارم الأخلاق من إشادة بالكرم، ودعوة للتحلي بهذه الصفة النبيلة.

ومن الراجح أن هذه الوصايا تعكس طبيعة العادات والتقاليد الدخيلة على المجتمع العباسي عن طريق الاختلاط بالعناصر الفارسية التي عرفت بالبخل والشح، ولعل منشئيها من الفرس، لأن العرب تأنف هذه الصفة وتعيبها، وتجعلها سبة على صاحبها.

أما موضوعاتها فتدور حول الاقتصاد في الأموال، والتحذير من تبذيرها،

---

(١) الوكزة: الطعن، الضرب بجميع الكف، القاموس المحيط: ١٩٦/٢.

(٢) اللطم: ضرب الخد وصفحة الجسد، المصدر نفسه: ١٧٦/٤، والطوزجة: التصرف الجيد معرب المصدر نفسه: ١٩٨/١.

(٣) جمع الجواهر في الملح والنوادر: ٣٣٨.

والتخفيف من الأكل، وعدم تبذير الأموال عليه. . . وإيراد الأسباب والعلل لتبرير هذه الظاهرة.

وينقل لنا الجاحظ في كتاب البخلاء عدداً من وصايا البخلاء التي تحث على الاقتصاد في الأموال وعدم تبذيرها، والحرص كل الحرص عليها من الضياع، وتنهى عن الإسراف والجود، من ذلك وصية أسد بن جاني لعياله، التي يوصيهم فيها الاقتصاد في الأكل والتخفيف من الزاد، ناصحاً ببلع نوى التمر وقضم الشعير واعتلاف القت، مبيِّناً فوائدها للصحة ودوام العافية. ولعل في ذلك تبريراً لحالة البخل والشح التي يدعو إليها، ليحرم نفسه وعياله من الزاد، فتحمل وصيته تبريراً في ظاهرها ووصفات طبية وصحية تحمي البدن وتحافظ على الصحة، ويرمي باطنها إلى غرض خفي في نفسه مفاده: الاقتصاد والشح في الأكل وعدم تبذير الأموال عليه. . . يقول:

«لا تلقوا نوى التمر والرطب، وتعودوا ابتلاعه، وخذوا حلوقكم بتسويغه، فإن النوى يعقد الشحم في البطن، ويدفيء الكليتين بذلك الشحم، واعتبروا ذلك ببطون الصفايا[١] وجميع ما يعتلف النوى. والله لو حملتم أنفسكم على البزر والنوى، وعلى قضم الشعير واعتلاف القت، لوجدتموها سريعة القبول، وقد يأكل الناس القت قداحاً[٢] والشعير فريكاً[٣] ونوى البسر[٤] الأخضر، لو رغبتم في الدفء لالتمستم الشحم، وكيف لا تطلبون شيئاً يغنيكم عن دخان الوقود، وعن شناعة السكر، وعن ثقل الغرم، والشحم يفرج القلب، يبيض الوجه، والنار تسود الوجه، أنا أقدر أن أبتلع النوى، وأعلفه الثراء، ولكني أقول ذلك بالنظر مني لكم»[٥].

(١) الصفايا: النوق الغزيرة، ومن هذا سمي النخيل الكثير الحمل صفايا، القاموس المحيط: ٤/ ٣٥٢.

(٢) القت: نوع من النبات تأكله الحيوانات، القاموس المحيط: ١/ ١٥٢، القداح: أطراف النبات الغض.

(٣) فريكاً: حان أن يفرك، واستفرك من السنبلة سمن واشتد، المصدر نفسه: ٣/ ٢١٥.

(٤) البسر: التمر قبل إرطابه، والبسرة واحدتها، المصدر نفسه: ١/ ٣٧٢.

(٥) البخلاء: الجاحظ ١٠٣.

وينصح أبو عبد الرحمٰن الثوري ابنه بالاقتصاد في صرف الأموال، موضحاً له خطورة الإنفاق الذي يبدأ بالقراريط التي تفتح عليه أبواب الدوانيق، فالدراهم، فالدنانير، والعشرات، والمئات، فالآلاف، حتى ينفذ كل ما عنده فلا يبقى عنده شيء... ومما جاء منها قوله:

«أي بني، إن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق، وإنفاق الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم، وإنفاق الدراهم يفتح عليك أبواب الدنانير، والعشرات تفتح أبواب المئين، والمئون تفتح عليك أبواب الألوف، حتى يأتي ذلك على الفروع والأصل، ويطمس على العين والأثر، ويحتمل القليل والكثير»[١].

ويبالغ الثوري في تأويل صرف الدرهم والدينار... فعنده تأويل صرف الدرهم إلى دار الهم، لأنه إذا أنفقه من غير تعويض دار الهم على صاحبه. أما تأويل صرف الدينار، فلأنه يدني من النار إذا هو أخرجه من غير تعويض، فأصبح معدماً فيضطر إلى الأعمال الرديئة التي تذهب بالمروءة وتوجب الحد فيدخل النار... يقول:

«أي بني، إنما صار تأويل الدرهم إلى دار الهمّ، وتأويل الدينار يدني إلى النار، فالدرهم إذا خرج إلى غير خلف، وإلى غير بدل، دار الهم على دانق مخرجه، وقيل: إن الدينار يدني إلى النار لأنه إذا أنفقه من غير خلف وأخرج إلى غير بدل بقي مخفقاً معدماً، وفقيراً مبلطاً، متخرج المخارج، وتدعوه الضرورة إلى المكاسب الرديئة، والطعم الخبيثة، والخبيث من الكسب يسقط العدالة، ويذهب بالمروءة، ويوجب الحد، ويُدخل النار»[٢].

جـ ــ وصايا المسافرين:

يحتاج المسافر إلى النصائح الخالصة والمواعظ الحسنة التي تعينه في رحيله وترحاله، عندما يترك أهله ليحلّ في أرض أخرى ويختلط بأناس

---

(١) البخلاء: ١٠٦.

(٢) المصدر نفسه.

غرباء... وعبرت الوصايا عن مضمون هذه النصائح عندما يعتزم المسافر السفر، تلك التي عبرت عنها عاطفة الأم المشفقة على ولدها من مصاعب السفر ووحشة الغربة، أو التي يخلص الصديق النصيحة لصديقه عندما يعتزم السفر، فيودعه بجملة من التوجيهات التي تعينه على مواجهة صعوبات السفر وترشده إلى الطريقة المثلى في التعامل مع الناس، وتجنبه الوقوع في المزالق، وترسم له طريق النجاة من المهالك.

ومن الوصايا الموجهة للمسافرين، تطالعنا وصية أعرابية لابنها وقد أراد السفر... تلك التي رواها لنا الأصمعي عن أبان بن تغلب، والتي حذرت فيها ولدها من النميمة التي تورث الأحقاد، ورسمت له طريق الخير باجتناب الوقوع في الزلل حتى لا يكون هدفاً لأحد ويصحب من حسنت سيرته ويقتدي بفعاله... محذرة إياه من اللئيم عند النوائب، واللجوء إلى الرجل الكريم الذي يهّب لنجدته... وتنهي وصيتها بالتحذير من قبيح الصفات كالغدر والخيانة والبخل، داعية إياه الالتزام بالوفاء والكرم والسخاء والحلم، تقول:

«اجلس أمنحك وصيتي وبالله توفيقك، وقليل إجدائها، عليك أنفع من كثير عقلك: إياك والنمائم فإنها تزرع الضغائن، ولا تجعل نفسك غرضاً للرماة، فإن الهدف إذا رمي لم يلبث أن ينثلم، ومثل لنفسك مثالاً، فما استحسنته من غيرك فاعمل به، وما كرهته منه فدعه واجتنبه، ومن كانت مودته بشره كان كالريح في تصرفها. ثم نظرت فقالت: كأنك يا عراقي أعجبت بكلام أهل البدو؟ ثم قالت لابنها: إذا هززت فهز كريماً، فإن الكريم يهتز لهزتك، وإياك واللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها، وإياك والغدر فإنه أقبح ما تعومل به، وعليك بالوفاء ففيه النّماء، وكن بمالك جواداً، وبدينك شحيحاً، ومن أعطي السخاء والحلم فقد استجاد الحلة، ريطتها وسربالها، انهض على اسم الله»[1].

ويوصي بعض الحكماء صديقاً له وقد أراد سفراً، بحسن الأخلاق

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٧٢ـ ٧٣، أمالي القالي: ٢/ ٧٩. وردت الوصية مع وجود اختلاف بسيط في زهر الآداب: ١/ ٣٨٥، جواهر الأدب: ١/ ١٨٤، جمهرة خطب العرب: ٣/ ٢٤٤ـ ٢٤٥.

وجمال الهيئة، بنظافة الملابس وطيب الرائحة مشفوعاً بجميل الأدب الذي يرفع قدره وشأنه، ويزينه في عيون الناس، فيكسب محبتهم، يقول:

«عليك بحسن الشمائل، فإنها تدل على الحرية، ونقاء الأطراف فإنها تشهد بالملوكية، ونظافة البزة فإنها تشهد عن النشيء في النعمة، وطيب الرائحة فإنها تظهر المروءة، والأدب الجميل فإنه يكسب المحبة، وليكن عقلك دون دينك، وقولك دون فعلك، ولباسك دون قدرك، والزم الحياء والإنفة فإنك إن استحييت من الغضاضة اجتنبت الخساسة، وإن أنفت عن الغلبة لم يتقدمك نظير في مرتبة»(١).

وتحذِّر أعرابية ابنها وقد أراد السفر، من الغربة والغرباء وتوصيه بحسن المعاشرة وزاد التقوى، ومما جاء فيها قولها:

«يا بني، إنك تجاور الغرباء، وترحل عن الأصدقاء، ولعلك لا تلقى غير الأعداء، فخالط الناس بجميل البشر، واتق الله في العلانية والسر»(٢).

ويروي لنا الأصمعي عن أعرابي أراد السفر، فقالت له أمه توصيه بحسن الشمائل ومرافقة الكرماء ومجانبة البخلاء المكدين، محذرة إياه من الجزع عند المصائب، ومجانبة النمائم لأنها تورث الأحقاد وتذهب بالوفاء، وتدعوه بعدم لبس حلل المتكبرين المدللين، لأنها تسوء صاحبها، تقول:

«قف عليَّ كي أوصيك وَعِ وصيتي فإنك إن وعيتها كنت محبباً محفوظاً، عليك بحسن الخلق ولين الجانب ومرافقة السمحاء المعطين، ومجانبة البخلاء المكدين، وعد عن الجزع وإله عن النمائم، فإنها تزرع الضغائن، وتزيل الوفاء، واطرح حلل العزيز فإنها منغصة، والتخلق بها شين، وأستودعك الله والسلام عليك»(٣).

ويسمع الأصمعي أعرابياً يوصي آخر، وقد أراد السفر، بأن يدخر عمله

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ١/ ٣٨٤، شرح مقامات الحريري: ١/ ١٦٧.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الفاضل في صفة الأدب الكامل: ٢/ ٨٨.

لآخريته ويترك شهوات نفسه ويحبس هواه عن الرذائل ويطلقه في المكارم، ويحكّم عقله الذي يرشده إلى الصلاح ويبعده عن الهلاك، ومما جاء فيها قوله:

«آثر بعملك معادك، ولا تدع لشهوتك رشادك، وليكن عقلك وزيرك الذي يدعوك إلى الهدى، ويجنبك من الردى، واحبس هواك عن الفواحش، وأطلقه في المكارم، فإنك تبر بذلك سلفك، وتشيد به عن شرفك»(١).

ويطلب ملك من حكيم الوصية وقد أراد سفراً، فيدعوه إلى الالتزام بالتأني والحلم والعفو وتجنب الشدة مع الرعية وكسب مودتهم بالإحسان إليهم حتى يضمن بعد ذلك محبة الرعية له، ومما جاء في أحد فقراتها، قوله:

«قفني على أشياء من حكمتك أعمل بها في سفري. فقال: اجعل تأنيك أمام عجلتك، وحلمك رسول شدتك، وعفوك مالك قدرتك، وأنا ضامن لك قلوب رعيتك، ما لم تحرجهم بالشدة عليهم أو تبطرهم»(٢).

د ــ وصايا أخرى:

عرضنا فيما تقدم لموضوعات الوصايا في العصر العباسي، ووقع اختيارنا على نماذج من كل صنف، لصعوبة عرضها جميعاً في هذا التصنيف، ولا سيما وأن تمثيلنا لها كان للاستدلال على أنواعها، وليس لإحصائها، ولذلك يبقى مجال البحث فيها مفتوحاً، لغزارة مادتها واتساع موضوعاتها.

وهناك وصايا أخرى كثيرة لم نعرض لها ضمن تصنيفنا، لكونها غير منسوبة ولم نعرف قائلها، كوصايا الأعراب، ووصايا الرجال، إلا أن بعضها ينتمي من ناحية اللغة والأسلوب إلى العصر العباسي، والبعض الآخر وصلنا مروياً عن طريق الأعلام المعروفين مثال ذلك وصية أعرابي نقلها الأصمعي إلينا، يقول فيها:

«حججت مرة فإذا أعرابي قد كوَّر عمامته على رأسه، وقد تنكب قوساً

---

(١) زهر الآداب: ١/ ٣٨٤، وردت الوصية بنفس المعنى مع اختلاف في الألفاظ في أمالي القالي: ١/ ١٩٧.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ٣٨٤ـ ٣٨٥.

فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنما الدنيا دار ممر، والآخرة دار مقر، فخذوا من ممركم لمقركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم»[١].

ويحذِّر الأعرابي في وصيته من الدنيا وزخرفها، فهي لا محالة زائلة، والدار الآخرة هي الباقية، ويدعو إلى العمل من أجل الفوز بها.

أما وصايا الحكماء فمعظمها غير منسوبة لقائليها، نستدل عليها من لغة وأسلوب المنشيء أو عن طريق الرواية، ومنها ما جاء في حديث أبي بكر بن دريد رحمه الله، حيث يقول:

«حدثنا أبو حاتم عن الأصمعي، قال بعض الحكماء لابنه: يا بني اقبل وصيتي وعهدي، إن سرعة ائتلاف قلوب الأبرار كسرعة اختلاط قطر الماء بماء الأنهار، وبعد قلوب الفجار من الائتلاف كبُعد البهائم من التعاطف وإن طال اعتلافها على آري[٢] **واحد. كن يا بني بصالح الوزراء أغنى منك بكثرة عدتهم، فإن اللؤلؤة خفيف محملها، كثير ثمنها، والحجر فادح حمله قليل غناؤه»**[٣].

ويتخذ الموصي من التشبيه وسيلة لتوضيح فكرته، عندما يوصي ولده بمصاحبة الأبرار والابتعاد عن الفجار، والاتكال على الوزراء الصالحين لا على عدتهم.

ومن الوصايا التي لم نعرض لها فيما تقدم، وصية القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، صاحب الإمام أبي حنيفة، التي قدم بها كتاب الخراج، والتي وجهها إلى الخليفة الرشيد ناصحاً إياه بأسلوب الوعظ الديني بحسن سياسة الرعية، قائلاً:

---

(١) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار: ١/ ٣٢٤و وينظر الأخبار الموفقيات: الزبير بن بكار بنفس المعنى مع اختلاف بسيط ٧٣ـ ٧٤.

(٢) آري: الدابة إلى الدابة انضمت وأَلِفَت معها معلفاً واحداً، القاموس المحيط: ٤/ ٢٩٩.

(٣) أمالي القالي: ١/ ٢٣٥ـ ٢٣٦.

«لا تؤخر عمل اليوم إلى غد، فإنك إذا فعلت ذلك أضعت. . . إن الأجل دون الأمل، فبادر الأجل بالعمل، فإنه لا عمل بعد الأجل. إن الرعاة مؤدون إلى ربهم ما يؤدي الراعي إلى ربه. فأقم الحق فيما ولّاك وقلّدك ولو ساعة من نهار، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته، ولا تزغ فتزيغ رعيتك، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب، وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى»(١).

والقاضي أبو يوسف يوجه الرشيد إلى أهمية عمله وهو خليفة المسلمين، وأمر الرعية معقود به، فعليه رعايتهم، متوخياً في ذلك أمر الآخرة على الدنيا.

ويوصي في فقرة أخرى الخليفة الرشيد، برعاية أموال المسلمين والمحافظة عليها، وقد بيَّن له أهمية وخطورة المهمة التي يتولاها، محذراً إياه من العواقب السيئة إن لم يفعل ذلك، حيث يقول:

«وإني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استخلفك الله، ورعاية ما استرعاك الله، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله. فإنك إن لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى، وتعمى في عينيك، وتتعفى رسومه ويضيق عليك رحبه، وتنكر منه ما تعرف وتعرف ما تنكر»(٢).

وهناك وصايا أخرى في موضوعات متفرقة، نقلها لنا القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، والتي توزعت على عدد من المهن المعروفة في العصر العباسي، فأوصى كل ذي مهنة بما يناسب عمله، فهناك وصية لنائب سلطنة، ووصية لنقيب الأشراف، ووصية أتابك المجاهدين، ووصية أستاد الدار، ووصية أمير خور، ووصية مقدم المماليك، ووصية جامعة لقاضي، ووصية لقاضي العسكر، ووصية محتسب، ووصية وكيل بيت المال، ووصية خطيب،

---

(١) كتاب الخراج: القاضي أبو يوسف المقدمة ٣ ـ ٤.
(٢) المصدر نفسه: ٥.

ووصية مدرس، ووصية مقرىء، ووصية محدِّث، ووصية نحوي، ووصية وزير، ووصية كاتب السر، ووصية ناظر الجيش، ووصية ناظر خزانة، ووصية مستوفي الصحبة، ووصية متطبب طبائعي، ووصية رئيس اليهود، ووصية رئيس السامرة، ووصية بطرك اليعاقبة، ووصية نائب قلعة، ووصية لأمير مكة، ووصية لأمير المدينة(١).

ولما كان من الصعب عرض هذه الوصايا جميعاً في تصنيف الوصايا المهنية، رأينا الإشارة إليها ضمن الموضوعات المتفرقة للتعريف بها والاستدلال على مصادرها.

(١) ينظر صبح الأعشى جـ١١، جـ١٢.



الفصل الثاني

التطور والتجديد

(الموضوعات ــ المعاني ــ اللغة ــ الأسلوب)

١ ــ الموضوعات:

أ ـ دينية ـ سياسية ـ حربية ـ إدارية ـ تعليمية ـ أخلاقية ـ فنية.

ب ـ موضوعات أخرى.

٢ ــ المعاني:

(الحث على الفضائل ـ تقويم السلوك ـ تنظيم العلاقات الاجتماعية).

٣ ــ اللغة:

(البناء اللغوي ـ اللغة وسيلة اتصال ـ الألفاظ).

٤ ــ الأسلوب: العلاقة بين الألفاظ والمعاني.

ـ التفاوت بين منشيء وآخر.

٥ ـ اختلاف الأساليب:

(تقريري ـ تعبيري ـ خطابي ـ إنشاء طلبي: أمر ـ نهي ـ نداء ـ تحذير...)



الفصل الثاني
(التطور والتجديد)

الموضوعات

اتسعت موضوعات الوصايا في العصر العباسي لسعة الحياة نفسها، فقد شهد هذا العصر نهضة كبيرة شملت جوانب الحياة المختلفة، مما كان له تأثير على موضوعات الأدب عامة، وعلى الوصايا بوجه خاص... فقد تنوعت موضوعاتها، واتخذت محاور عديدة، أهمها معالجة الموضوعات التربوية والتعليمية والأخلاقية والاجتماعية والدينية والسياسية والحربية والفنية، في حين ظهرت موضوعات أخرى انحرفت عن الأهداف الإيجابية للوصايا، مخالفة بذلك القيم والتعاليم العربية والإسلامية، تلك التي عبرت عما استجد في العصر العباسي من علاقات اجتماعية، وعادات وتقاليد جديدة متأثرة بالعناصر الأجنبية، أو نتيجة لحالة الترف التي حظيت بها بعض الطبقات في المجتمع العباسي، كوصايا البخلاء والطفيليين.

وتتفق الموضوعات الرئيسة للوصايا في العصر العباسي، مع الوصايا في العصور السابقة، من ناحية التركيز على الجوانب الإيجابية في الحياة، وفي مقدمتها الجوانب الأخلاقية والنفسية، تلك التي تدعو إلى مكارم الأخلاق، وتحث على السلوك القويم، وذلك باتباع المثل الأخلاقية الأصيلة، والانتهاء عن الرذائل واجتناب مواضع الزلل.

كذلك اتفقت الوصايا في عصورها المختلفة في تصويرها لواقع الحياة ومعطياته من خلال المعاناة والتجارب الذاتية، ملتزمة بالصدق الفني المعبر عن كل ما يعتمل في نفوسهم ويجول في خواطرهم، والتي توزعت على موضوعات الوصايا كلٌ حسب تجربته المعاشة، ومناسبتها ومقام القول.

وشكلت المحاور الدينية جانباً كبيراً من موضوعات الوصايا في العصر العباسي، سواء كانت في الوصايا ذات الطابع الوعظي أو الإرشادي أو التربوي وغيرها.

ويعد المحور الديني أحد الركائز الأساسية في وصايا الخلفاء العباسيين الأوائل، تلك التي تمثلت في وصاياهم للأفراد والجماعات، فهم يدعون إلى الإيمان بالله تعالى، وتقواه، وعبادته، والفوز برضاه، والقرب إليه، وحمده، واستغفاره[١]. ولعل ذلك يعود إلى تدينهم واصطباغ دعوتهم بالدين، أو نتيجة تأثرهم بوعظ الوعاظ والنساك لهم، وتمثلها في وصاياهم.

ومن وصايا الخلفاء العباسيين المتأثرة بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وصية المهدي العباسي، تلك التي يحذر فيها من الدنيا وغرورها، قائلاً:

«. . . إن وعد الله حق، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، فإن الدنيا دار غرور، وبلاء وشرور، واضمحلال وزوال، وتقلُّب وانتقال، قد أفنت من كان قبلكم، وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم، ومن ركن إليها صرعته، ومن وثق بها خانته. . .»[٢].

كذلك وصية الخليفة الرشيد التي تضمنت الوعظ والتوجيه الديني، والتي جاء فيها:

«إنكم سفر مجتازون، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين، ومغفرته للتائبين، وهداه للمنيبين»[٣].

والمحور الديني يشكل جانباً كبيراً من موضوعات الوصايا الوعظية والزهدية. . . تلك التي استجدت في عصر صدر الإسلام، وامتدت إلى العصر العباسي، بل شهدت تطوراً كبيراً في نهاية العصر العباسي، وأصبحت فناً له أصوله الخاصة به، وهي على الدوام مع الدين في تهذيب النفس، والعمل على اجتثاث الرذيلة وإشاعة الفضيلة، والحث عليها من أجل سعادة المجتمع،

---

(١) ينظر الفكر التربوي في وصايا الخلفاء العباسيين: نوال إبراهيم ٢٠٣-٢٠٦، أطروحة دكتوراه.

(٢) العقد الفريد: ٤/١٠٢.

(٣) المصدر نفسه: ٤/١٠٣.

ومنها على سبيل المثال: ما جاء في وصية الربيع بن خثيم، التي يقول فيها:

«أقلُّوا الكلام إلا بتسع: تكبير، وتهليل، وتحميد، وسؤالك الخير، وتعوُّذك من الشر، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءة القرآن، وأن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفتقدك من حيث أمرك»(١).

ومما جاء في وصية بعض الصالحين، قوله:

«اغتنم تنفس الأجل، وإمكان العمل، واقطع ذكر المعاذير والعلل، فإنك في أجل محدود، ونفس معدود، وعمر غير ممدود، والطبيب معذور إذا لم يدفع المقدور»(٢).

ومن الموضوعات التي جاءت ضمن وصايا الوعاظ والنساك والمتصوفة، الوصايا التأملية أو النظرية في فلسفة الحياة والموت، تلك التي تدعو إلى خير الأعمال، وتخوِّف وتنّفر من الشرور، لأن فيها المهالك في الدنيا والآخرة... ويأتي تركيز هذه الوصايا على فكرة الموت والحياة من خلال الترهيب بالموت والحساب والعقاب.

وفكرة الموت عند هؤلاء الموصين لها دلالاتها النفسية المعبرة عن خلجات النفس الطافحة بالإيمان بالبعث والنشور، وزوال الحياة الدنيا، وأن التذكير الدائم في الموت له دلالاته المعنوية من خلال التأمل والتفكير اللذين صيرهما النص وصية تدعو إلى عدم الانغماس بملذات الحياة الدنيا وزينتها، مثال ذلك: ما جاء في وصية عبد الرحمٰن بن الجوزي، حيث يقول:

«يا هذا، هوِّن بأمر الدنيا تهن، وقدر أنها قط لم تكن، واحفظ دينك من مكرها وصن، فمتى وفت؟ ومتى لم تخن؟»(٣).

ومن وصاياه التي يحذر فيها من النوائب مخوفاً من عاقبة النار، وفوات

---

(١) عين الأدب والسياسة: ٢٢٥.
(٢) المصدر نفسه: ٢١٨.
(٣) المدهش: عبد الرحمٰن ابن الجوزي ٥٤٩.

دار الأبرار في اليوم الآخر، قوله:

«فخذوا حذركم قبل النوائب، فقد أتيتم من كل جانب، وتذكروا سهر أهل النار، واحذروا فوت دار الأبرار، وتخوفوا يوم الفصل بين الفريقين، أن يصيبكم من البين البين»[١].

أما الوصايا الأخلاقية التعليمية، فهي من أكثر موضوعات الوصايا شيوعاً على ألسنة الموصين في العصر العباسي، فقد شغلت معظم وصاياهم، سواء كان ذلك في بنائها العام أو في إحدى فقراتها، فقد نجدها في وصايا الخلفاء لولاة العهد، أو من الآباء للأبناء، أو بين الأصدقاء، وغيرها مما عرضنا له في تصنيف الوصايا.

وإن هذا النوع من الوصايا كان غاية معظم الموصين على اختلاف مشاربهم وثقافاتهم، لما له من هدف تأثيري بالغ الأهمية... ألا وهو بناء الشخصية المتكاملة، وذلك عن طريق نبذ الرذائل والسلوك السيء، وبيان ضرره على الفرد والمجتمع، ومدح السلوك القويم وتحبيبه في النفوس، والتشجيع على تمثيله، وبذلك يكون الموصي أشبه بالمصلح الاجتماعي الذي يحاول جهده إشاعة القيم الفاضلة التي تحث على الخير، وتنبذ الرذيلة التي تدعو إلى الشر.

ولقد ضمت الوصايا العباسية موضوع الدراسة العديد من القيم الفاضلة والشمائل الحسنة، من الصدق والمروءة والحلم والشجاعة والكرم واختيار القرين المناسب، وغيرها من مكارم الأخلاق التي تنادى بها الموصون ومجدوها ودعوا إلى التمثل بها.

هذا وربما يطول البحث إذا عرضنا لموضوعاتها جميعاً أو حاولنا استقصائها والتمثيل لها بشكل مفصل، لذلك سيقتصر البحث على التعريف ببعضها على سبيل الاستدلال لا الحصر، من ذلك وصية الشعبي التي تدعو إلى

---

(١) المدهش: عبد الرحمٰن ابن الجوزي ٥٤٩، والبين الأولى الفصل والثانية الفراق وهي من الأضداد، مختار الصحاح: ٢.

الصدق، وتحذر من الكذب، والتي يقول فيها:

«عليك بالصدق حيث تظن أنه يضرك، فإنه ينفعك، وإياك والكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك، واعلم أنه لا جنة أوقى من الصدق، ولا شيء أقوى من الحق، ولا سبيل أخوف من الكذب، ولا حادث أقبح من الزور، وقد يفتح الله للصادق النجاة العظيمة وإن لم ينوها، والخلاص من النازلة وإن لم يتوهمها»[١].

ويحث بعض الصالحين بنيه على الكرم والسخاء وإعطاء ذوي الحاجة، قائلاً:

«يا بني، لا تبخلوا برزق الله على عباد الله، تفوزوا بالشكر، وتحصلوا على الأجر، ويوسع عليكم الرزق، فإن لم تجدوا فكلمة طيبة فإنها صدقة، وإن مر بكم ذو فاقة فلا تحوجوه إلى السؤال، فإنه مقام إذلال، فإن لم تقدروا فتحية مباركة فإن فيها أنساً»[٢].

والحلم والأناة من مكارم الأخلاق التي ينبغي التحلي بها، لذلك نجد بعض الحكماء يوصي بصد قوة الغضب بالحلم، قائلاً:

«لا تغضب، فينبغي لذي اللب السويّ، والحزم القوي، أن يتلقى قوة الغضب بحلمه فيصدها، ويقابل عوادي شره بحزمه فيردها؛ ليحظى بانجلاء الحيرة، ويسعد بحميد العاقبة»[٣].

ومن الشيم العربية الأصيلة التحلي بالصبر ومجانبة الجزع عند المصائب، تلك التي جاءت في وصية أحد الحكماء لأبنائه، يقول فيها:

«يا بنيّ، إياكم والجزع عند المصائب، فإنه مجلبة للهمّ، وسوء ظن بالرب، وشماتة للعدو، وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمنين، فإني

---

(١) عين الأدب والسياسة: ٢٦٦.
(٢) المصدر نفسه: ٢٥٦.
(٣) أدب الدنيا والدين: ٢٣١.

والله ما سخرت من شيء إلا نزل بي مثله، فاحذروها، وتوقعوها...»[١].

والصدق من مكارم الأخلاق العربية النبيلة، ونجد ابن المقفع يوصي ابنه بالتحلي به قائلاً:

«يا بنيّ، عوّد لسانك الصدق، واصبر على ذلك، واثبت حتى يصير لك ملكة، وتطمئن نفسك إليه، وتصبح أنت معدن الصدق والسداد، وتعتاد ذلك، وتؤثر الصدق، وإن كان سيؤدي إلى مضرتك على الكذب الذي يعود بمنفعتك»[٢].

ومن الشيم الإسلامية الرفيعة المروءة والتقوى، والتي يوصي بها بعض العلماء قائلاً:

«اتق مصارع الدنيا بالتمسك بحبل المروءة، واتق مصارع الأخرى بالتعلق بحبل التقوى، تفز بخير الدارين، وتحل أرفع المنزلتين»[٣].

في حين يوصي بعض الحكماء بعدم مفارقة الصبر والمروءة، قائلاً:

«لا تفارق الصبر فتعظم عليك البلوى، ولا المروءة فتشمت بك الأعداء»[٤].

وعن حسن اختيار القرين المناسب يوصي ابن المقفع ولده، قائلاً:

«... وينبغي أن يكون أصدقاؤك وأصحابك وأقرانك وجلساؤك الذين تستعين بهم في الأمور، وتسلك معهم طريق المخالطة والمخالصة، وتتخذ معهم قاعدة المصادقة والموافقة، أهل عفاف ومروءة وسداد وفترة، ليكون منهل مصافاتهم مصفّى من الشوائب المداجاة، فإذا وجدوا منك منفعة شكروك عليها، وإذا طالك منهم نفع لا يرون بذلك حقاً ثابتاً في ذمتك، ولا يطوقون

(١) العقد الفريد: ٣/ ١٥٣.
(٢) الفكر التربوي رسالة الأدب الوجيز للولد الصغير: ٢٠٧.
(٣) عين الأدب والسياسة: ١٣١.
(٤) المصدر نفسه: ١٣٢.

عنقك بمنة، بحيث إذا ما وقع من قبلك تأخر في مجازاتها ازدادوا منّاً، بل تبقى صداقتهم بغير ريبة، ومحبتهم مبرأة ومعراة من دواعي الطمع ووسائط الغرض. . . »[١].

في حين يوصي سعيد بن أبي أيوب إلى مجانبة صديق السوء، قائلاً:

«لا تصاحب صاحب السوء، فإنه قطعة من نار، ولا يستقيم وده، ولا يفي بعهده»[٢].

وصلة الرحم من الأخلاق العربية الفاضلة، التي أكد عليها الإسلام وحث على تمثلها، والتي جاءت في توصية بعض البلغاء يقول:

«صلوا أرحامكم، فإنها لا تبلى عليها أصولكم، ولا تهضم عليها فروعكم»[٣].

ومن الشمائل العربية، التحبب إلى الناس ومداراتهم، والمسالمة لهم وملاقاتهم بالبشر، وإلى ذلك يشير الخليفة المنصور العباسي، فيقول:

«إن أحببت أن يكثر الثناء الجميل عليك من الناس بغير نائل، فألقهم ببشر حسن»[٤].

وفي ذلك يوصي بعض الحكماء، فيقول:

«استشعروا السلامة للناس، والبسوا لهم اللين، والقوهم بالبشاشة، وعاشروهم بالتودد. . . »[٥].

والصمت وعقل اللسان من العادات الحسنة التي دعا إليها بعض الفصحاء في وصيته، قائلاً:

---

(١) الفكر التربوي رسالة الأدب الوجيز للولد الصغير: ٢٠٥.
(٢) روضة العقلاء: أبو حاتم البستي ١١٩.
(٣) أدب الدنيا والدين: ١٣٣.
(٤) عين الأدب والسياسة: ١٥٤.
(٥) المصدر نفسه: ١٥٦.

«اعقل لسانك، إلا عن حق توضحه، أو باطل تدحضه، أو حكمة تنشرها، أو نعمة تذكرها»[1].

والدهاء والمكر من الأخلاق المذمومة التي توجب التحذير منها، والتي وردت في وصية ابن حزم، حيث يقول:

«احرص على أن توصف بسلامة الجانب، وتحفظ من أن توصف بالدهاء، فيكثر المتحفظون منك حتى ربما أضر ذلك بك، وربما قتلك»[2].

والوفاء من الشيم العربية الأصيلة، لذلك يوصي بعض العلماء ابنه إلى تمثله قائلاً:

«يا بني، عليك بالوفاء فيما يدعو إلى التقى، واعلم أنه لا يتم كرم المرء إلا بحسن وفائه»[3].

ويوصي رجل ابنه ببذل المودة الصادقة، ومجانبة اللئام والابتعاد عن الأخلاق المذمومة والحسد، والزهو، والعجب، والبخل، قائلاً:

«يا بني، ابذل المودة الصادقة تستعبد إخواناً، وتتخذ أعواناً، فإن العداوة موجودة عتيدة، والصداقة مستعذرة بعيدة، وجنب كرامتك اللئام، فإنهم إن أحسنت إليهم لم يشكروا وإن نزلت معضلة لم يصبروا، واعلم أن الحسد ماحق للحسنات، والزهو جالب لمقت الله عزَّ وجل، ومقت عباده، والعجب صارف للازدياد من العلم، داعٍ إلى الجهل والتخبط، والبخل أذم الأخلاق وأجلبها لسوء الأحدوثة»[4].

ومن موضوعات الوصايا الأخلاقية، القناعة بالرزق... تلك التي تدعو إلى النظرة المتوكلة على الله تعالى، فالله هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء،

---

(١) أدب الدنيا والدين: ٢٤٧.
(٢) رسالة الأخلاق ـ باب الأخلاق والسير، ابن حزم الأندلسي: ٢٣.
(٣) عين الأدب والسياسة: ٢٧٤.
(٤) المصدر نفسه: ٢٥٣.

وهذا ينسجم تماماً مع القيم الدينية، والأهداف الإسلامية التي تدعو إلى الإيمان المطلق بالله تعالى، ومنها ما جاء في وصية جعفر بن محمد الصادق لابنه موسى الكاظم (عليهما السلام) يقول في مطلعها:

«يا بني، اقبل وصيتي، واحفظ مقالتي، فإنك إن حفظتها تعيش سعيداً، وتموت حميداً. يا بني، من رضي بما قسم له استغنى، ومن مد عينه إلى ما بيد غيره مات فقيراً، ومن لم يرض بما قسمه الله له اتهم الله في قضائه...»[١].

واهتمت الوصايا التعليمية في بعض جوانبها على إشاعة القيم الأخلاقية الفاضلة، لغرس القيم الإنسانية النبيلة في النفوس، ومنها على سبيل المثال، وصية بعض البلغاء، تلك التي توجه المتعلمين إلى أهمية التعليم التربوي، فالعلم يقوِّم الإنسان ويسدد خطاه عندما يكون صغيراً حتى إذا كبر جعله سيداً مقدماً، إضافة إلى أهميته من الناحية الأخلاقية... ومما جاء فيها، قوله:

«... تعلم العلم فإنه يقومك ويسددك صغيراً، ويقدمك ويسددك كبيراً، ويصلح زيغك وفاسدك، ويرغم عدوك وحاسدك، ويقوِّم عوجك وميلك، ويصحح همتك وأملك»[٢].

ومن الموضوعات المستحدثة في وصايا العصر العباسي، الوصايا الإخوانية، التي عبرت عن طبيعة العلاقات والأواصر الاجتماعية السائدة في العصر العباسي، وأهميتها في شد أواصر المحبة والتعاون والأخاء بين أفراد المجتمع، لذلك دعا الموصون إلى حسن اختيار الأصدقاء من الذين يتحلون بالأخلاق الفاضلة، والسيرة الحسنة، وحذروا من صديق السوء.

ولا شك أن موضوع الوصايا الإخوانية تطور تطوراً كبيراً في العصر العباسي، نتيجة التأثر بالآداب الفارسية المترجمة، التي تولي أهمية كبيرة للعلاقات الإخوانية، مما كان له الأثر الكبير في ذيوع الإخوانيات وتطورها كموضوع مستقل.

---

(١) حلية الأولياء: ٣/ ١٩٥.
(٢) أدب الدنيا والدين: باب أدب العلم ٢٠.

واشتهر ابن المقفع بنقل الفكر الفارسي وترجمته، وهو بلا شك نقل الكثير من وصايا الفرس التي تصور العلاقات الاجتماعية والإنسانية، كالوصايا الإخوانية. ومنها على سبيل المثال، توصيته في مؤاخاة الصديق، يقول:

«اجعل غاية تشبثك في مؤاخاة من تؤاخي، ومواصلة من تواصل، توطين نفسك على أنه لا سبيل لك إلى قطيعة أخيك، وإن ظهر لك منه ما تكره، فإنه ليس كالمرأة التي تطلقها إذا شئت، ولكنه عرضك ومروءتك، فإنما مروءة الرجل إخوانه وأخدانه...»[١].

وعن موافقة الإخوان وحسن مطاوعتهم يوصي ابن المقفع قائلاً:

«وقر من فوقك، ولن لمن دونك، واحسن موآتاة أكفائك، وليكن آثر عندك موآتاة الأكفاء، فإن ذلك هو الذي يشهد لك أن إجلالك من فوقك ليس بخضوع منك لهم، وإن لينك لمن دونك ليس لالتماس خدمتهم»[٢].

وتعد وصايا الطفيليين والبخلاء من الموضوعات الجديدة في أدب الوصايا في العصر العباسي، وهي تشكل لوناً جديداً في فن الوصايا النثرية... ويتعدى تجديدها في الموضوعات إلى الأهداف والمضامين التي ترمي إليها الوصايا موضوع الدراسة، وهو النصح والتوجيه والإرشاد، فهي تتناول الموضوعات السلبية التي يرفضها المجتمع العربي الإسلامي، كالدعوة إلى التطفل والتحايل والبخل، وهي صفات يرفضها الطبع العربي المجبول على الفضائل الأخلاقية والمثل العليا، مثال ذلك: ما جاء في وصية طفيل العرائس لابنه عبد الحميد، والتي يرشده فيها إلى طريق التحايل لدخول ولائم الأعراس، قائلاً له:

«إذا دخلت عرساً فلا تتلفت تلفت المريب، وتخيّر المجالس، فإن كان العرس كثير الزحام، فأمر وانْهِ، ولا تنظر في عيون أهل المرأة، ولا في عيون

---

(١) آثار ابن المقفع (الأدب الكبير) باب الصديق: ٣٠٠.
(٢) آثار ابن المقفع (الأدب الصغير): ٣٣٤.

أهل الرجل، ليظن هؤلاء أنك من هؤلاء، ويظن هؤلاء أنك من هؤلاء، فإن كان البواب غليظاً وقاحاً، فابدأ به، ومره وانهه، من غير أن تعنفه، وعليك بكلام بين النصيحة والدلال»[١].

ومن موضوعات وصايا البخلاء، الشح بالأموال والطعام، والدعوة إلى الاقتصاد فيهما، ومن أمثلتها: وصية أبي عبد الرحمٰن الثوري لابنه، يوصيه بالاقتصاد في الأكل، قائلاً له:

«أي بني، عوِّد نفسك الأثرة ومجاهدة الهوى والشهوة، ولا تنهش نهش الأفاعي، ولا تخضم خضم البراذين[٢]**، ولا تدم الأكل إدامة النعاج، ولا تلقم لقم**[٣] **الجمال...»**[٤].

ولا أحسب هذه الوصايا من باب التجديد في الموضوعات، لأنها لا تتصل بنهج الوصايا موضوع الدراسة، وهي لا ريب تعبر عن مظاهر الانفتاح الحضاري في العصر العباسي، والمتصل اتصالاً وثيقاً بالعادات والتقاليد الفارسية، التي تدعو إلى البخل والشح، وتشجع على تمثله، أو أنها رويت للتندر والتفكه.

ومن موضوعات الوصايا المستحدثة في العصر العباسي، وصايا المسافرين، تلك التي يتزود بها المسافر بزاد النصيحة، فتعينه على مواجهة صعاب السفر والغربة، وتقيه من الوقوع في المهالك.

وتناولت موضوعاتها الجوانب التربوية والأخلاقية، وعرضت بعضها لآداب السفر في صحبة الرفاق والأصدقاء، والتي جاءت في وصية ابن المقفع لابنه، يقول:

---

(١) التطفيل وحكايات الطفيليين: ٦٨.

(٢) خضم البراذين: خضم الأكل بأقصى الأضراس أو ملء الفم، البرذون: الدابة، القاموس المحيط: ٤/ ١٠٧، ٢٠١. وفي مختار الصحاح قال الكسائي: الأنثى من البراذين: برذونة.

(٣) لقم: سرعة الأكل، المصدر نفسه: ٤/ ١٧٦.

(٤) البخلاء: ١٠٩.

«أي بني، إذا قصدت السفر في صحبة جماعة من الرفاق، ورفقة قوم من الصحاب، وكنت راغباً وعازماً على قصد ناحية، فينبغي أن لا ترى نفسك أولى بالأمر والنهي، وتقلد مصالح الطريق ممن هو أقل شأناً من زمرة المرافقين، فإن لخامل الذكر ونازل المرتبة في حسن المصاحبة وشرط المرافقة عين الحق الذي لرفيع القدر وعالي الدرجة، ولهذا قالوا: الرفيق ثم الطريق»[1].

ويوصي ابن المقفع في موضع آخر من رسالته ابنه التحلي بآداب الغربة، يقول:

«أي بني، إذا نزلت ببلدة غريبة وبقعة أجنبية ليس لك بأهلها سابق معرفة ووسيلة، ولا اتصال لك بأحد من تلك الزمرة، فيمِّم محفلاً واقصد مكاناً يكون معيناً لاجتماع أهل المدينة والتقائهم، وتأمل حاضري المجلس متحلياً متوشحاً بحسن الصورة وزي الحسن وصفة أرباب الحجا والتميز، وتجد له منزلة عند أهل ذلك المقام، فتوسل به وتمسك بأذيال مخالصته بيد الانتساب، واستعن به في حوائجك ومهامك، والتزم ما دمت هناك مجالسته ومحاورته، فأنت لن تجد بأي حال ذلك المجلس والمقام خالياً وعاطلاً من طالب أجر وثواب، أو راغب مدح وثناء، وبسبب واحدة من هاتين الخصلتين يميل إلى الترهيب بك وتقريبك، ويعينك على نجح المطلوب ودرك المقصود»[2].

وشكلت موضوعات الوصايا الفنية رافداً جديداً من روافد التربية والتعليم، ولعلها كانت تعبر عن تطور الحياة الثقافية والفكرية وازدهارها في العصر العباسي، ومنها على وجه الخصوص الوصايا النقدية، تلك التي أنارت الطريق أمام الأدباء عندما وضعت لهم الأسس النقدية والمنهجية التي يستندون إليها في إنشاء كتاباتهم، أو الوصايا التعليمية التي تكفل للمتعلمين معرفة وسائل التعليم وطرائقه. ومن أمثلة الوصايا النقدية، ما جاء في وصية أبي تمام للبحتري والتي دعت إلى مراعاة الشروط النفسية للكاتب أو الشاعر عند تخير

---

(١) الفكر التربوي رسالة الأدب الوجيز للولد الصغير: ٢٣٤.
(٢) المصدر نفسه: ٢٣٥.

أوقات الكتابة، يقول:

«يا أبا عبادة، تخيّر الأوقات وأنت قليل الهموم، صفر من الغموم، واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر، وذلك لأن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم»[١].

ومن الموضوعات الجديدة المتأثرة بالثقافات الأجنبية في العصر العباسي، وصايا الوزراء، تلك التي تأثرت بوصايا الفرس في حسن اختيار الوزراء، كوصية أبرويز لابنه شيرويه[٢] ووصية أردشير لابنه[٣]، ووصية بزرجمهر في اختيار الوزير وبيان أهميته في تنظيم الحكم[٤].

وكذلك الوصايا التي توجهت للوزراء أنفسهم، تلك التي تحثهم وترشدهم إلى اتقان عملهم كوصية أبرويز لوزيره[٥]، أو عهد أردشير لوزرائه[٦].

ولعل أهمية ودور الوزير في تثبيت دعائم الحكم عند الأمم الأجنبية كالفرس والهنود واليونان وغيرها من الأمم، هي التي دعت إلى توصيتهم، وهي التي كان لها تأثيرها على وصايا الوزراء في العصر العباسي، مثال ذلك ما جاء في وصف المأمون العباسي لشخصية الوزير عند اختياره لأحد وزرائه[٧]، وقول أبي زيد البلخي في صفة الوزير الكامل[٨].

ولا بد من الإشارة إلى أن التأثير الأجنبي كان من ناحية الجوانب

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب: ٢/ ١٥٢.
(٢) الوزراء والكتاب: ١٠، العقد الفريد: ١/ ٢٧.
(٣) المصدر نفسه: ٥ ـ ٦.
(٤) تحفة الوزراء: ١٤٠.
(٥) الوزراء والكتاب: ٨ ـ٩، العقد الفريد: ٤/ ٤٥ـ ٤٦.
(٦) المصدر نفسه: ٧ ـ٨، عهد ردشير: ١٠٩ـ ١١٠.
(٧) الأحكام السلطانية: ٢٢.
(٨) تحفة الوزراء: ٦٢.

المظهرية والتنظيمية والسلوكية، لأن اهتمام العرب بمظهر الوزير وزيه، كان نتيجة تأثرهم بنظم الحكم الفارسية[١].

أما الجوانب الأدبية واللغوية، فكانت من نصيب الموروث الثقافي والفكري العربي، الذي لا يمكن لأي موصٍ الاستغناء عنه أو إغفاله.

ومن موضوعات الوصايا الموجهة للوزراء، تلك التي أوردها الماوردي في كتابه أدب الوزير، والتي جاء في أحد فقراتها توصية الوزير باختبار الأعوان وحسن اختيارهم، يقول:

«حق عليك أيها الوزير أن تكون لأعوانك مختبراً ولأحوالهم متطلعاً، وبهما على نفسك وعليهم مستظهراً، لأنهم من بين من تسوسه وتستعن بهم لتعم ما فيهم من فضل ونقص، وعلم وجهل، وخير وشر، وتتحرز من غرور المشتبه وتدليس المتصنع، فتعطي كل واحد حقه، ولا تقصر بذي فضل، ولا تعتمد على ذي جهل»[٢].

ونجد مما تقدم، أن التأثير الأجنبي في الوصايا كان محدوداً في جوانب ضيقة، في حين يبدو تأثير الموروث العربي واضحاً وفعالاً في معظم الوصايا سواء كان ذلك من ناحية المعاني والأسلوب أو البناء اللغوي.

مثال ذلك: ما جاء في بعض فقرات وصية المهدي لولده الهادي... التي أفاد فيها من وصية عمر بن هبيرة لمسلم بن سعيد لما وجهه إلى خراسان[٣]، فقد جاء في وصية عمر بن هبيرة، قوله:

«أوصيك بثلاثة: حاجبك، فإنه وجهك الذي به تلقى الناس، إن أحسن فأنت المحسن، وإن أساء فأنت المسيء. وصاحب شرطتك، فإنه سوطك وسيفك، حيث وضعتها فقدر ضِعتَها. وعمال القدر، قال: وما عمال القدر؟ قال: أن تختار من كل كورة رجالاً لعملك، فإن أصابوا فهي التي أردت، وإن

---

(١) ينظر الوصايا في الأدب العربي القديم: ٤٠.
(٢) أدب الوزير: ١٤٤.
(٣) ينظر جمهرة وصايا العرب: ٣/ ٣١.

أخطأوا فهم المخطئون، وأنت المصيب»[١].

وربما وجد المهدي في قول عمر بن هبيرة، رأياً سديداً وصائباً، لما يحمله من بعد سياسي واجتماعي بعيد الأثر، جعله يتمثل قوله في وصيته لابنه[٢]، حيث يقول:

«**واجعل عمال العُذْر**[٣]**، وولاة الحج، مقدمة بين يدي عملك، ونصفةً منك لرعيتك، وذلك أن تأمر قاضي كل بلد وخيار أهل كل مصر أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم، وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم، فإن أحسن حُمدت، وإن أساء عُذرت»**[٤].

وهذا دليل على أن «المهدي لم يتأثر بثقافة عصره بقدر تأثره بالموروث الفكري والحضاري لأمة العرب، وهو ما نلمحه في سيرته وكلامه الآخر غير الوصايا»[٥].

ورغم اتساع الثقافة في العصر العباسي، وكثرة الكتب المترجمة عن اللغات الأجنبية، وبلا شك فإن المنصور قد اطلع عليها، إلا أنه لم يتأثر بها قدر تأثره بالموروث الفكري والثقافي العربي، الذي أفاده في إنشاء ثقافته، وعزز عنده ملكة البيان والقدرة على التعبير في أسلوب جزل قوي التأثير[٦]، ممثلاً في وصاياه الكثيرة لابنه المهدي.

ويبدو تأثره بالموروث العربي القديم من خلال تمثله لأمثال أكثم بن صيفي، وهو من حكماء الجاهلية ومعمريهم، كقوله: «رضا الناس غاية لا

---

(١) العقد الفريد: ١/ ٢٤.

(٢) ينظر جمهرة وصايا العرب: ٣/ ٣١.

(٣) عمال العذر: هم من لديهم عذر، فأما أن يكونوا على حق أو يكونوا على غير حق... هكذا وردت في النص ولعل المهدي أفاد من وصية عمر بن هبيرة التي جاءت تسميتهم بعمال القدر، وهم أهل الرفعة والحسب والشرف، وهي رواية أصح.

(٤) العقد الفريد: ١/ ٥٧، جمهرة خطب العرب: ٣/ ٧٥ ـ ٧٧.

(٥) جمهرة وصايا العرب: ٣/ ٣١.

(٦) ينظر المصدر نفسه: ٣/ ٢٤.

تُدرك»، وقوله: «كن عند رأس كل أمر لا عند ذنبه»، والتي جاءت في إحدى فقرات وصيته التي يقول فيها:

«واعلم أن رضا الناس غاية لا تُدرك، فتحبَّب إليهم بالإحسان جهدك، وثبِّت فيما يرد من أمورهم عليك، ووكِّل همومك بأمورك، وتفقَّد الصغير تفقدك الكبير، وخذ أهبة الأمر قبل حلوله، فإن ثمرة التواني الإضاعة، وكن عند رأس كل أمر لا عند ذنبه»[1].

ولعل بعض الوصايا تأثرت تأثراً كبيراً بالموروث الثقافي العربي القديم، الذي يمتد بأصوله إلى عصر ما قبل الإسلام من ناحية الأسلوب والمعاني وطريقة النظم[2]، كوصية عبد الملك بن صالح لابنه، والتي يقول في إحدى فقراتها:

«. . . وعوِّد نفسك السماح، وتخيَّر لها من كل خلق أحسنه، فإن الخير عادة، والشر لجاجة، والصدود آية المقت، والتعلل آية البخل، ومن الفقه[3] كتمان السر، ولقاح المعرفة دراسة العلم. . .»[4].

وقد جاءت هذه الوصية على شكل فقرات قصيرة متتالية انتقلت من معنى لآخر دون تمهيد، وقد غلبت عليها الحكمة.

ومن ملامح التأثر بالموروث العربي القديم، ما جاء في وصية المأمون لأبنائه، والتي ضمنها بعض الحكم العربية القديمة، والتي جاء فيها:

«يا بني، ارجعوا فيما أسببه عليكم من التدبير إلى آراء الحزمة المجربين، فإنهم مرايا لكم، يرونكم ما لا ترون، قد صحبوا لكم الدهر، وكفوكم التجارب، وقد قيل: إن من جرعك المر لتبرأ هو أشفق عليك ممن سقاك حلواً لتسقم، ومن خوفك لتأمن أبرّ ممن أمَّنك حتى تخاف»[5].

---

(١) سياسة المنصور أبي جعفر الداخلية والخارجية: ٥٤٥.

(٢) ينظر جمهرة وصايا العرب: ٣/ ٤١ ـ ٤٣، ينظر الوصايا في الأدب العربي القديم: ٢١.

(٣) الفقه: العلم بالشيء والفهم له.

(٤) البيان والتبيين: ٤/ ٩٤.

(٥) خلاصة الذهب المسبوك: ١٣٩.

ونلاحظ تأثير الموروث الثقافي العربي في وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله، والتي تضمنت محاورها جملة أمور يتوجب على الوالي اتباعها، من الأمن والعدل والإحسان والمساواة وغيرها، والتي جاءت متأثرة إلى حد بعيد بوصية الإمام علي (رضي الله عنه) للأشتر النخعي[١]. مثال ذلك: ما جاء في وصية الإمام علي (رضي الله عنه)، يقول:

«اعلم أنه ليس شيء أدعى إلى حسن ظن والٍ برعيته من إحسانه إليهم وتخفيف المؤونات عنهم»[٢].

وما جاء مطابقاً في وصية طاهر بن الحسين، يقول:

«واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة، وتكفي به من أحبب كفايته من أمورك، وتدعو به الناس إلى محبتك، والاستقامة في الأمور كلها لك»[٣].

وفي فقرة أخرى يقول الإمام علي (رضي الله عنه):

«وتفقَّد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن صلاحهم وصلاحه صلاح لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله»[٤].

وفي نفس المعنى يقول طاهر بن الحسين:

«وانظر هذا الخراج قد استقامت عليه الرعية وجعل الله للإسلام عزّاً ورفعة، وأهله سعة ومنفعة»[٥].

وبعد، فإنه لا يمكن تعميم مفهوم التطور والتجديد على الوصايا العباسية، لأن موضوع الوصايا يعنى بالعلاقات الإنسانية والنفسية، وهي في

---

(١) ينظر جمهرة وصايا العرب: ٣/ ٤٢ـ ٤٣.
(٢) نهاية الإرب: ٦/ ٢٢.
(٣) تأريخ الطبري: ٨/ ٥٨٤، جمهرة خطب العرب: ٣/ ١٣٧.
(٤) نهاية الإرب: ٦/ ٢٥.
(٥) تأريخ الطبري: ٨/ ٥٨٨، جمهرة خطب العرب: ١٤٠.

الغالب متقاربة على مر العصور والأزمان، وعند جميع الأمم باستثناء بعض الاختلاف في العادات والتقاليد. . . وإذا كان هناك تطور في أحد موضوعات الوصايا نتيجة الاتصال بالأمم الأجنبية، فهو في حدود ضيقة، لا تتعدى الأخيلة والأفكار، حيث نجد المزاوجة قائمة بين التأثير الأجنبي والموروث العربي الإسلامي، بل نجد في بعضها غلبة الأخير على كل ما هو جديد، كما في موضوعات الوصايا الإخوانية على سبيل المثال، أو ظهور موضوعات جديدة كوصايا البخلاء والطفيليين، فهي كما نرى لا تتصل بأهداف الوصايا التربوية والتعليمية والأخلاقية. . . وإنما ظهرت نتيجة تأثرها بالحياة المادية، وما رافقها من حالة الترف واللهو، وليس للعظة والعبرة، وهي بذلك لا تعد تطوراً أو تجديداً لمفهوم الوصايا الذي نعنيه في دراستنا.

وخلاصة القول: فإن تأثر الوصايا بالآداب الأجنبية كان ضئيلاً ومحدوداً، إذا ما قورن بمدى تأثرها بالموروث العربي القديم والدين الإسلامي الحنيف، وسنَّة نبيه محمد ﷺ، وأقوال الصحابة والتابعين، وبالحكم والأمثال والأشعار، وأقوال الزهاد والوعاظ والمتصوفة، لذلك فالوصايا النثرية في العصر العباسي تغلب عليها الصبغة العربية الإسلامية، سواء كان ذلك من ناحية اللغة والأسلوب، أو من ناحية المعاني والموضوعات، وكان التطور والتجديد فيها محدوداً لا يتعدى بعض الأفكار والمضامين التي أشرنا إليها، وهي بعد ذلك لا تشكل علامة مميزة في أدب الوصايا في العصر العباسي.

المعاني

لما كانت الوصايا تعالج السلوك بمختلف جوانبه الأخلاقية والنفسية والتربوية، كانت لذلك معانيها الإنسانية متضمنة الشيم العربية، والمثل الأخلاقية العليا، ولذلك أبانت عن صفاتها، وشجعت على تمثلها، والعمل بموجبها.

ومعاني الوصايا بشكل عام في عصورها المختلفة تكاد لا تختلف في الحث على الفضائل وتقويم السلوك وتنظيم العلاقات الاجتماعية والروابط

الأسرية، أو ما يتعلق بالجوانب التربوية والتعليمية.

فالوصايا في العصر الجاهلي غالباً ما كانت تتصل بالحكم والأمثال، مضمنة معانيها للعظة والعبرة، وحاول بعضهم أن يبث في وصاياه الأبيات الشعرية التي اجتلبها للنصح والإرشاد، لإشاعتها بين الناس، وسرعة تأثيرها فيهم.

أما الوصايا في العصر الإسلامي، فهي متأثرة في معانيها ومضامينها بالقرآن الكريم والسنَّة النبويَّة الشريفة، مستلهمةً أفكارها مما جاء في آيات الله البيِّنات ومن أحاديث الرسول الكريم محمد ﷺ.

وكان للقيم والمبادىء الإسلامية السامية التي جاء بها الإسلام أثرها الكبير على معاني وأفكار الموصين في العصرين الراشدي والأموي، حتى إذا جاء العصر العباسي، وهو الحقبة مدار البحث، سار فيه الموصون على نفس النهج الذي سار عليهم سلفهم في تأثرهم بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وإذ حاول بعضهم التجديد في المعاني والأفكار التي طرقوها، فمن خلال تأثرهم بما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وما توارثوه من الأقوال المأثورة، إضافة إلى تأثرهم بالثقافة العربية الخالصة، والقيم الروحية الإسلامية، وما شاع في المجتمع العربي من عادات وتقاليد، وقيم أخلاقية رفيعة... إن كل هذه الروافد غذت ثقافة الموصي، وأمدت أفكاره ومعانيه بمعين لا ينضب، ودخلت في بناء وصيته، فضلاً عن تأثرهم بالثقافات الأجنبية نتيجة النقل والترجمة التي شاعت في عصرهم، والتي لا بد أن يكون لها أثر في ملامسة عقول بعضهم، فأثرت بشكل أو بآخر على تفكيرهم، فانعكس ذلك في تأملاتهم ومعانيهم التي أفرغت في نتاجهم الفكري.

والوصية بعد ذلك كله متأثرة في مختلف مضامينها التي عالجتها بما جاء في القرآن الكريم من حِكم ومواعظ، وما تضمنته من قيم أخلاقية، ومعاني روحية غدت قانوناً ملزماً أخذ به الموصون. فلم تخلُ منه معانيهم وأفكارهم طلباً للعبرة والعظة، وهما الهدف الأساس في التوجيه.

ومعاني الوصايا في العصر العباسي تتبع موضوعاتها، فمنها معاني دينية تتصل بالوعظ والزهد والتصوف، ومنها ما يتعلق بالجوانب التربوية والتعليمية، وأخرى حربية تتصل بمعاني الحرب ومعداتها ومتطلباتها، ومنها ما جاء متعلقاً بالسياسة والإدارة ممثلاً في وصايا الخلفاء والأمراء والولاة، أو تلك التي عنيت بمعاني الإخوة والصداقة كما في الوصايا الإخوانية، أو التي تعلقت بالروابط الأسرية كوصايا الآباء للأبناء وغيرها.

وينبغي لنا ونحن ندرس المعاني والموضوعات للموصين في العصر العباسي من التعرف على المنابع الفكرية، والروافد الثقافية لمنشىء الوصية... تلك التي شاركت في بناء شخصيته الثقافية والفكرية، فغذّت ووسعت مداركه وآفاقه، وصقلت ذوقه الفني، وفتحت آفاقاً واسعة لعقله وتأملاته.

ولعل أهم المكونات الثقافية التي رفدت منشىء الوصايا العباسية، هو التراث العربي لعصر ما قبل الإسلام ممثلاً في الموروث الفكري الكبير من الأمثال والحكم[١]، تلك التي تدل على منازعهم العقلية، فقد كان بينهم حكماء مشهورون قدموا النصيحة والرأي الصائب من خلال وصاياهم، فكان لهم صيتهم في البيان والفصاحة وشهرتهم التي ذاعت في الخطابة والحكمة، من أمثال أكثم بن صيفي وقس بن ساعدة وعامر بن الضرب[٢]، وآخرين غيرهم ممن أشرنا إلى وصاياهم في التمهيد لهذه الدراسة.

أما المحور الآخر في ثقافة الموصي العباسي، فهو التراث الإسلامي، فقد كان العرب في غالبيتهم مسلمين مؤمنين بالقرآن الكريم وسنَّة رسوله محمد ﷺ، لذلك كانوا يتمثلون المبادىء الإسلامية والمثل العليا التي جاء بها الإسلام، وتبعاً لذلك تأثرت أفكارهم ومعانيهم بهذه الآثار الإسلامية العظيمة، وظهرت بشكل واضح في معظم أنواع الوصايا التي عرضنا لها فيما تقدم... ولعل ذلك يظهر بشكل خاص في الوصايا الوعظية والصوفية والحكمية.

---

(١) ينظر مجمع الأمثال: الميداني، على سبيل الاستدلال.
(٢) ينظر: المعمرون والوصايا على سبيل الاستدلال.

ولا نجد حرجاً من القول بأن الإسلام حوَّل معاني الوصايا نحو الدين، فقد أخذ منشيء الوصية يقتدي ببلاغة القرآن الكريم، ويغرف من معينه، فكان تأثره كبيراً من جانب الأفكار والمعاني الإسلامية، كالجنة والنار، والعقاب والثواب، والتقوى والزهد، والقضاء والقدر. إلى جانب تأثره بالمعاني الأخلاقية السامية التي عرفها العربي من قبل وأبقاها الإسلام وحث عليها، كالصدق والأمانة والعفة والحلم وصلة الرحم... وما إليها، وهي في مجملها عظات ووصايا، وفي ذلك يقول الدكتور شوقي ضيف: «بل نستطيع القول أن كل ما كسبته العربية من عظات... إنما هو من نبض القرآن ومعينه الغزير»[١].

فالقرآن الكريم مملوء بالعظة التي تدعو إلى الفضيلة، وتنهى عن الرذيلة، وهو لم يكن كتاب عقيدة فحسب، بل كان كتاب هداية، يدعو إلى تهذيب السلوك، وتعليم المسلم وإرشاده إلى السلوك القويم، وإنقاذه من كل ضلالة... ونلمس في وصايا العباسيين انعكاساً لتلك المثل الإسلامية السامية التي دعا إليها الإسلام، فمثلت في جانبها العملي، تلك الأصداء القرآنية التي شاعت في أجواء المعاني والأفكار والأخيلة.

ومن الأمثلة التي توضح تأثر الموصي العباسي بالقرآن الكريم، ما جاء في وصية المنصور لولده المهدي، والتي استوحى أفكاره فيها من آيات الله البينات... نجتزىء منها هذه الفقرة على سبيل الاستدلال، وفيها يقول:

«إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد، والعمل بطاعته في العباد، ويحذرك الحسرة والندامة، والفضيحة في يوم القيامة، قبل حلول الموت، وعاقبة الفوت، حين تقول: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾[٢]، هيهات أين منك المهل، وقد انقضى عنك الأجل، وتقول: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾[٣]، فحينئذ ينقطع عنك أهلك، ويحل بك عملك...»[٤].

ونلمس في وصية طاهر بن الحسين أنه استوحى أفكاره ومعانيه من القرآن

(١) تأريخ الأدب العربي العصر الإسلامي: شوقي ضيف ٢/ ٣٢.
(٢) سورة المنافقون: الآية ١٠.
(٣) سورة المؤمنون: الآيتان ٩٩ ـ ١٠٠.
(٤) تأريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٩٢.

الكريم، وصاغها في فقرات وصيته، التي يقول فيها:

«واعلم أن الملك لله، يعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء[١]، ولن تجد تغير النعمة، وحلول النقمة إلى أحد أسرع منه إلى حملة النعمة من أصحاب السلطان...»[٢].

وإذا كان الموصون قد استقوا بعض معانيهم من القرآن الكريم، فهم أيضاً قد أخذوا من بعض معاني الحديث النبوي الشريف، وضمنوا وصاياهم بعضاً منها، كما في وصية الأوزاعي التي وعظ بها أبا جعفر المنصور، والتي يقول فيها:

«... أنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذي أصبحت به، والله سائلك عن صغيرها وكبيرة، وفتيلها ونقيرها، ولقد حدثني عروة بن رويم أن رسول الله ﷺ قال: «ما من راع يبيت غاشاً لرعيته إلا حرَّم الله عليه رائحة الجنة»[٣]، فحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظراً، ولما استطاع من عوراتهم ساتراً، وبالقسط فيما بينهم قائماً...»[٤].

وإذا كان القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، من الروافد الأساسية في ثقافة منشيء الوصية، فهناك روافد إسلامية أخرى، تمثلت في أقوال الصحابة والتابعين، تلك التي جاءت في خطبهم ومواعظم التي تحث على القيم الإسلامية الرفيعة، والتي تدعو إلى السلوك القويم، في الحث على المكارم واجتناب الرذائل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومن أمثلتها ما جاء في وصية الأوزاعي، وهو يعظ الخليفة المنصور مستشهداً في إحدى فقرات وصيته بقول للخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، ومما جاء فيها قوله:

---

(١) مقتبسة من سورة آل عمران: الآية ٢٦، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾.

(٢) تأريخ الطبري: ٨/ ٥٨٥.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ورد بلفظ: «أيما راع استرعى رعيته فغشها فهو في النار» ٥/ ٢٥.

(٤) الأخبار الموفقيات: ٢/ ٣٣٨.

«يا أمير المؤمنين، ولو أن ثوباً من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لأذاهم فكيف من يتقمصه! ولو ذنوباً[١] من صديد أهل النار صب على ماء الأرض لأجنه[٢]، فكيف بمن يتجرعه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف من سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه!، وقد قال عمر بن الخطاب: «لا يقوِّم أمر الناس إلا حصيف العقدة، بعيد العزة، لا يطلع الناس منه على عورة، ولا يحنق في الحق على جرة[٣]، ولا تأخذه في الله لومة لائم»[٤].

ولانتشار الوعظ والزهد والتصوف، وذيوعه بين الناس في العصر العباسي، تكفل به عدد كبير من الوعاظ والنساك والمتصوفة[٥]، الذين كان لهم تأثيرهم من خلال وعظهم وخطبهم وأدبهم على ثقافة الموصين الفكرية والنفسية، لما بين الوعظ والوصية من مشابهة في توجيه الفرد والمجتمع نحو فضائل الأخلاق، والالتزام بمبادىء الدين الحنيف، والدعوة إلى الخير ونبذ الشر.

وليس أدل على تأثر ثقافة الموصين بالوعاظ والنساك في العصر العباسي، من تأثر الخليفة أبي جعفر المنصور، فقد كان مكبراً للعلماء، محيطاً بهم، ومن هؤلاء مالك بن أنس، وعمرو بن عبيد، وأبو حنيفة، والأوزاعي[٦]، «وكان قد صحب عمرو بن عبيد قبل تولّيه الخلافة، وأخذ عنه العلم والدين، وكان أحرص الناس على الاستكثار منه في حال الخلافة، وله معه آثار معروفة وأخبار مشهورة»[٧].

ولهذا أثره الكبير في كثرة عدد وصاياه التي اتسمت بطابع الوعظ

---

(١) الذنوب: بفتح الذال الدلو الذي فيه ماء. القاموس المحيط: ١/ ٦٩.
(٢) الأجن: الماء المتغير الطعم واللون، المصدر نفسه: ٤/ ١٩٥.
(٣) أي لا يضمر الكره والحقد، والجرة من الخزف، وجمعها: جرار، المصدر نفسه: ١/ ٣٨٨.
(٤) عيون الأخبار: ٢/ ٣٤٠، العقد الفريد: ١/ ٣٠٥.
(٥) ينظر حلية الأولياء، للاطلاع على تراجم عدد كبير منهم.
(٦) ينظر الإمامة والسياسة: ابن قتيبة الدينوري ١٣٩ـ ١٥٠.
(٧) نصيحة الملوك: ٣٤.

والتوجيه الديني، تلك التي أوصى بها ولّي عهده المهدي، ومنها وصيته التي يقول فيها:

«احفظ يا بني محمداً ﷺ في أمته، يحفظ الله عليك أمورك، وإياك والدم الحرام، فإنه حوب عند الله عظيم، وعار في الدنيا لازم ومقيم، والزم الحلال، فإن فيه ثوابك في الآجل، وصلاحك في العاجل، وأقم الحدود، ولا تعتد فتبور، فإن الله لو علم أن شيئاً أصلح لدينه وأجزر عن معاصيه من الحدود لأمر به في كتابه، واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فساداً، مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم، فقال: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾[١]».

ورافد آخر كان له دوره الكبير على ثقافة الموصي في العصر العباسي... ألا وهو طبقة المؤدبين والمعلمين الذين كان لهم أثرهم الكبير في ثقافة الموصين على اختلاف طبقاتهم، فعندما كانت العامة تتلقى التعليم في الكتاتيب، كان الخلفاء العباسيون يستقدمون المؤدبين والمعلمين لتعليم أبنائهم ممن يختارونه لتأدية هذه المهمة، والتي وجدنا في وصايا الخلفاء لمؤدبي أولادهم أهمية الدور الذي قاموا به في تهيئة ولّي العهد من الناحية الثقافية والتربوية والتأديب السلطاني، ومن ذلك وصية الرشيد للأحمر النحوي مؤدب ولده الأمين التي يقول فيها:

«أقرئه القرآن، وعرِّفه الآثار، وروِّه الأشعار، وعلِّمه السنن، وبصِّره مواقع الكلام وبدأه، وامنعه الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه...»[٢].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣٣، تأريخ الطبري: ٨/ ١٠٥.

(٢) مروج الذهب: ٣/ ٣٦٢، الفرج بعد الشدة: ٣/ ١٦٣، وردت للرشيد يوصي الأصمعي، وفيها اختلاف في الألفاظ.

وبعد، فإن الأفكار والمعاني في الوصايا العباسية تأثرت بالروافد الثقافية العربية والإسلامية، وكان إلى جانب ذلك رافد الثقافة الأجنبية، التي تعد أحد مصادر الثقافة الأدبية في هذا العصر، نتيجة الانفتاح الحضاري على الأمم التي حرروا بلادها في هذا العصر... إلا أن تأثيرها لم يكن كبيراً، فالأمة العربية «لم تعرف من آداب الأمم الأخرى شيئاً يذكر، ولم تخالط هذه الأمم الأجنبية من الوجهة الأدبية والعقلية إلا مخالطة ضيقة جداً، فلم تعرف من آثارها إلا شيئاً من العلم والفلسفة، ونتفاً من الحكم والأمثال، فجهلت الأمة العربية جهلاً يوشك أن يكون تاماً آداب الأمة اليونانية مع أنها أخذت من علم اليونان فلسفتهم بالنصيب الموفور، ولم تكد تأخذ عن الفرس إلا الحضارة المادية، وروايات مشوهة في الحكم والأمثال، وسياسة الملوك، ولم تكد تعلم من أمر الهند إلا شيئاً من النجوم وقليلاً من المواعظ والوصايا»[١].

ويبدو من خلال ذلك أن تأثير الثقافة الأجنبية في ثقافة الموصي العباسي كان ضئيلاً ومحدوداً، مقارنة بتأثير الثقافة العربية الإسلامية، الذي هو الرافد الأساس والأصيل في ثقافة الموصين، وهو على الرغم من محدوديته في التأثير على الأدب بشكل عام، يبقى تأثيره ضئيلاً على الوصايا بشكل خاص، لارتباط معاني وأفكار الوصايا بحياة العرب، ومثلهم العليا السامية، وفي عاداتهم وتقاليدهم المتصلة اتصالاً وثيقاً بتراثهم العربي الأصيل ودينهم الحنيف وسنّة نبيهم المصطفى الكريم.

اللغة

تعد اللغة آداة التعبير عن الأفكار والمعاني، وتعتمد عناصر التعبير على الدلالة اللغوية للألفاظ والعبارات والإيقاعات الموسيقية للكلمات والتراكيب، يرافقها قسط من الوعي في عملية الخلق الفني، ولكنه يزيد وينقص حسب نوعية التجربة المعاشة وقوتها، وطبيعة المنشيء وموهبته[٢].

---

(١) من تأريخ الأدب العربي: د. طه حسين ٢/ ١٢٠.
(٢) ينظر النقد الأدبي أصوله ومناهجه: سيد قطب ٥٤ـ ٥٥.

وفضلاً عن كون اللغة آداة التعبير الفكري والمعنوي، فهي: «تأريخ فكرة الأمة في تطور مدلولاتها، ومرآة عقل التراث في رموزها وإشاراتها، وواسطة تخاطب عقول الناس ومشاعرهم في أبنيتها»[١].

ولدراسة اللغة في أي من الموضوعات الأدبية أهمية كبيرة، لأن اللغة «كائن حي له كيانه، وله خصائصه الفنية، وفلسفته التي يعيش بها في أي مجتمع منفعلاً ومتفاعلاً معه، فإذا فصلنا بين اللغة ومقوماتها، غدت روح اللغة أو عبقريتها نفساً لا يتمثل، ومقوماتها أو ذوقها جماداً لا يحس، لأنه لا يتأتىٰ لمفكر أن يفصم عرى الوحدة القائمة بين الفكر والتعبير اللغوي»[٢].

وتعتمد اللغة في بنائها على الألفاظ، «واللفظة في واقع أمرها صورة صوتية، وتصور ذهني، أما صورتها الصوتية فتتمثل في مجموعة الأصوات التي تتكون منها اللفظة، وأما التصور الذهني فهو مدلول اللفظة أو معناها الذي ينطبع عادة في الذهن»[٣].

واللفظ الذي استعمله الموصون على اختلاف أزمانهم وثقافاتهم للتعبير عن أفكارهم، هو اللفظ العربي الفصيح الذي وضع في سياق تعبيري يمثل استعمالاً قريباً من المعتاد، واللفظ في سياقه اللغوي يستند إلى أن له «في السياق اللغوي قوى روحية تملأ ما يتطلع إليه القصد المعنوي»[٤]، الذي يريده المنشيء، وهو ينسجم مع قصده وفهمه لمعاني الألفاظ[٥]، تلك التي تمثلها الوحدات الكلامية في اللغة، وهي تعتمد في تفسيراتها على السياق الذي تستخدم فيه[٦].

---

(١) بناء الصورة الفنية في البيان العربي: د. كامل حسن البصير ٢٨.
(٢) النقد التطبيقي والموازنات: د. محمد الصادق عفيفي ٧٥.
(٣) ينظر علم اللغة العام: فردنان دي سوسور، ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز ١٣٢، وينظر تشريح النص: د. عبد الله محمد الغذامي ١٢.
(٤) التركيب اللغوي للأدب: د. لطفي عبد البديع ٧٤.
(٥) ينظر اللغة والمعنى والسياق: جون لاينز، ترجمة د. عباس صادق الوهاب ١٥.
(٦) ينظر المصدر نفسه: ١٤.

وتتجه الألفاظ عادة في الوصايا إلى السهولة والسلاسة، وتبتعد عن التوعر والإغراب، لأنها تعالج تجارب حياتية في كثير من ملامحها، فلا بد أن يشترك الموصون في الألفاظ المعبرة عن هذه التجارب، لأنها خالطت كيانهم، وأصبحت جزءً من مشاعرهم وأحاسيسهم، لأن «للألفاظ وجودها المستقل فهي مشحونة بالقيم المعنوية المستمدة من أصولها وباستعمالها التقليدي وبالارتباطات العاطفية والحسية»[١].

ولبيان التطور والتجديد في البناء اللغوي للوصايا في عصورها المختلفة بدءً من العصر الجاهلي، وحتى العصر العباسي موضوع الدراسة، نشير إلى أن بناءها اللغوي يعتمد في الأغلب على الجمل القصار، المرتبطة مع بعضها البعض بأدوات العطف، أو بوساطة العلاقة الذهنية التي تجعل منها وحدة متكاملة على المستوى الدلالي، وتتجه ألفاظها عادة إلى السهولة والسلاسة، والبعد عن التكلف والإغراب والتعقيد، لأنها تعالج تجارب حياتية في كثير من ملامحها، فلا بد أن يشترك الموصوف في الألفاظ المعبرة عن هذه التجارب بأيسر السبل، لأن الهدف الأساس منها هو إيصال المعنى إلى المتلقي والتأثير فيه، والكلمة الواضحة المألوفة من أفضل وسائل التعبير عن الهدف المباشر عندما تحدث استجابة سريعة لدى المتلقي.

والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها ما جاء في وصية المنصور لولده المهدي، تلك التي عبرت عن أفكاره بلغة سهلة ميسورة، وهي مع سهولتها قوية محكمة السبك، فصيحة، ومما جاء فيها، قوله:

«يا بني، لا تبرم أمراً حتى تفكر فيه، فإن فكرة العاقل مرآة تريه حسناته وسيئاته، واعلم أن الخليفة لا تصلحه إلا التقوى، والسلطان لا تصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلاً من هو دونه»[٢].

---

(١) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه: إليزابيث دور، ترجمة د. أحمد إبراهيم الشوش ٨٣.
(٢) تأريخ الطبري: ٨/ ٧١، نهاية الإرب: ٦/ ٤١.

وعبرت لغة الوصايا في بعض جوانبها عن متطلبات العقل الذي تعارض مع النوازع النفسية وحاجاتها، فلم تخل الألفاظ في بعض مواقعها من القدرة على تحريك خيال الموصى إليه، فتجعله يعيش تجربة الموصي بكل تفاصيلها، وربما كانت هذه التجارب قريبة من نفسه، حتى أصبحت في بعض الأحيان كأنها تجاربه الخاصة.

وبهذا فإن لغة الوصية وسيلة اتصال بين تجربة الماضي المعاش ممثلة في شخصية الموصي واستشراف الآفاق المستقبلية للحاضر في شخصية الموصى إليه، لذلك نستطيع القول: إن لغة الوصية استخدمت بكفاءة بالغة من الموصين، عندما جعلت الماضي المعاش يمتد إلى الحاضر فالمستقبل(١).

فهذا المنصور يرسم لولده المهدي حين عهد إليه، بعبارات موجزة خلاصة تجاربه في حياته، والتي يريد لولّي عهده الاسترشاد بها والسير على هديها، لتنير له طريق المستقبل المشرق، والتي جاء فيها:

«يا أبا عبد الله، استدم النعمة بالشكر، والقدرة بالعفو، والطاعة بالتآلف، والنصر بالتواضع، ولا تنسى مع نصيبك من الدنيا نصيبك من رحمة الله»(٢).

وبذلك تكشف الوصايا عن المتغيرات النفسية التي تحددت داخل الإنسان نتيجة إحساسه بإيقاع الزمن الماضي في حياته الطويلة، والتي غالباً ما تكون مشحونة بالانفعالات والعواطف، مرسلة على شكل رسائل أخلاقية وتهذيبية، تعليمية ووعظية وسياسية إلى الموصى إليه.

ولغة الوصايا بعد ذلك هي أداة توصيل تيار الحياة المتدفق عبر الزمن، لأنها تحكي أحداث الماضي المعيش حاضراً في ذهن المتلقي، لذلك توجب على الموصي اختيار الكلمات التي تصلح لأن تكون إشارات ورموزاً مناسبة تماماً للتجربة المعاشة(٣)، وهذا يتوقف على مقدرته وحذقه للغة في اختيار ما

---

(١) ينظر نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة: د. نبيلة إبراهيم سالم ٤٢ـ ٤٥.
(٢) تأريخ الطبري: ٨/ ٧١.
(٣) ينظر نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة: ٢٩.

يجمع بين الكلمات من وحدة دلالية شاملة[1]، معبرة عن وحدة الانسجام الدلالي الذي يؤكده السياق المعنوي للوصية، مما دعا المنشيء إلى مراعاة الانسجام بين الكلمات، من خلال التعارض كالتضاد أو الترادف والتوازن والسجع بهدف إحداث الإيقاع والجرس الموسيقي، واستعملوا التكرار والجناس والطباق، وتمكنوا من جعل اللغة لينة مطواعة ذات طاقات تعبيرية تستوعب معانيهم الدقيقة مما كان له الأثر الكبير في تطور لغة الوصية.

ومن أمثلة التضاد والمقابلة، ما جاء في وصية العتبي لابنه أبي عبد الرحمٰن، والتي يقول فيها:

«. . . واجعل دنياك صلة لآخرتك، ولا ترضى لها بها عوضاً من الآخرة، فإن الله لم يرضها عقاباً لمن سخط عليه، ولا ثواباً لمن رضي عنه. . .»[2].

ويأتي استخدام فعل الشرط وجوابه مع حلية السجع لأحداث النغم والجرس الموسيقي، والذي جاء في وصية بعض العلماء، التي يقول فيها:

«إذا ابتليت فثق بالله ولا تجزع، وإذا عوفيت فاشكر الله ولا تقطع، وإذا وقف بك أمر فلا تيأس ولا تطمع، وفوِّض أمرك إلى الله، فنعم الملجأ ونعم المرجع، فإذا فعلت، فقد فزت بخير الدارين أجمع»[3].

ولجأ الموصون على اختلاف أساليبهم وموضوعاتهم التي طرقوها إلى استعمال الكلمة المألوفة الواضحة الدلالة، التي تحدث استجابة سريعة في النفس، لقربها من القلوب وإطرابها الأسماع، فابتعدوا عن الكلمة المتوعرة الوحشية، تلك التي نبه إليها الجاحظ بقوله:

«وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً ولا ساقطاً سوقياً، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً. . .»[4].

---

(١) ينظر نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة: ٣٨.
(٢) الأخبار الموفقيات: ١٤١.
(٣) عين الأدب والسياسة: ٢٥٥.
(٤) البيان والتبيين: ١/ ١٤٤، العمدة: ١/ ١٣٣.

ولذلك وجدنا معظم الموصين يعمدون إلى استخدام المفردة السهلة التي تمتاز بالإبانة والوضوح لكونها قريبة من النفوس، مأنوسة، خالية من تنافر الحروف ومخالفة القياس، وغرابة الاستعمال، والكراهة في السمع.

ولجأ بعض الموصين من خلال توصياتهم لشخص معين إلى توجيه وصاياهم لكل الناس، فعمدوا إلى اختيار المفردة التي تتمثل فيها السهولة والوضوح، والتي قد تصل إلى حد الاستعمال اليومي، متوخين من وراء ذلك شيوع وصاياهم، وإذاعة توجيهاتهم الأخلاقية ونصحهم الديني، فاتخذت وصاياهم طابعاً شعبياً يوائم أذواق ومدارك عموم الناس، كما نجد ذلك واضحاً في وصايا الآباء للأبناء أو وصايا الوعاظ والنساك، على سبيل المثال لا الحصر، ومنها ما جاء في وصية الربيع بن خيثم الوعظية التي يقول فيها:

«أقِلوا الكلام إلا بتسع: تكبير وتهليل، وتحميد، وسؤالك الخير، وتعوُّذك من الشر، وأمرك بالمعروف والنهي عن المنكر...»[١].

وكان لاستعمال الموصين للألفاظ الشائعة والمتداولة أثره الكبير على فنية لغة الوصايا، فعلى الرغم من فصاحة الألفاظ وسلامتها من الناحية الصرفية والنحوية، وخلوها من اللحن... إلا أنها فقدت جدتها، فهي تكاد تكون في بعض الوصايا مستهلكة لكثرة استعمالها ودورانها على ألسنة الموصين، على الرغم من اختلاف توظيف الموصين لها أو تباين استعمالها من وصية لأخرى. مثال ذلك وصية أحد الحكماء لابنه، يقول فيها:

«يا بني، إني موصيك بوصية، فإن لم تحفظ وصيتي عني، لم تحفظها من غيري: اتق الله ما استطعت، وإن قدرت أن تكون اليوم خيراً منك أمس، وغداً خيراً منك اليوم فافعل، وإذا عثر عاثر من بني آدم فاحمد الله ألا تكون، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس، فإنك لن تيأس من شيء إلا أغناك الله عنه...»[٢].

---

(١) عين الأدب والسياسة: ٢٢٥.

(٢) أمالي اليزيدي: ١٤٢، العقد الفريد: ٣/ ١٥٣ـ ١٥٤، مع اختلاف بسيط في الألفاظ لم يغير المعنى العام للوصية.

وعبرت لغة الوصايا عند بعض الموصين عن أفكارهم ومعانيهم بدقة، فقد عملوا على المزاوجة بين الألفاظ الحقيقية والألفاظ الموحية، والذي أدى إلى إثارة معاني أخرى في ذهن المتلقي... إلا أن بعض الموصين انفرد في استعمال بعض المفردات الغريبة التي تحتاج إلى تفسير معانيها، مثال ذلك: وصية خالد بن يزيد لابنه عند موته، تلك التي أوردها الجاحظ في كتابه البخلاء والتي جاء في أحد فقراتها قوله:

«... وأنا أول من شرب الغربيّ[(١)] حاراً، والبزيل[(٢)] بارداً، وأول من شرب بالعراق بالكبرة[(٣)]، وجعل القنقل[(٤)] قرعة[(٥)]، وأول من ضرب الشّاهبرم[(٦)] على ورق القرع، وأول من لعب باليرمع[(٧)] في البدو...»[(٨)].

وتقرب لغة بعض الوصايا من اللغة العامية، وهو قليل جداً، كما جاء في وصايا الطفيليين، حيث وردت لفظة (إيش) العامية، وهي منحوتة من كلمة (أي شيء) مثال ذلك ما جاء في وصية بنان المتطفل، والتي تكررت فيها هذه اللفظة عدة مرات، ومما جاء فيها قوله لرجل:

«إذا دعيت إلى وليمة إن شاء الله، فإياك ثم إياك أن تتأخر إلى آخر الوقت، وتشاغل وتسترخي وتثاقل، وتقول الساعة، وإلى الساعة، وإيش فاتني، وبعد ما جاء أحد، وما لي أكون من السبق...»[(٩)].

وعن المواءمة بين الألفاظ والموضوعات، فقد نجح الموصون في اختيار

---

(١) الغربي: نوع من الزهر له حب يشبه حب البقدونس، القاموس المحيط: ١/ ١١٠.
(٢) البزيل: الشراب المصفى، المصدر نفسه: ٣/ ٣٣٤.
(٣) الكبر: الطبل أو ما كان له وجه واحد ذو رأسين، معجم متن اللغة مادة كبر.
(٤) القنقل: المكيال الضخم، المصدر نفسه: ٤/ ٤٢.
(٥) القرع: حمل اليقطين، الواحدة: قرعة، المصدر نفسه: ٣/ ٦٦.
(٦) الشاهبرم: ضرب الشيء بالشيء: خلطه وهي كضربه.
(٧) اليرمع: حجارة رخوة إذا فتتت انفتت.
(٨) البخلاء: ٥٠.
(٩) التطفيل وحكايات الطفيليين: ٩٤.

الألفاظ ذات القدرة على الإيحاء مع ما يشوبها من ظلال أو جرس أو صوت لتحرك النفوس وتثير الأحاسيس وتدفع بتداعي المعاني، واعتمد الموصون في سبيل تحقيق هذه الغاية الجرس الصوتي للألفاظ، من حيث تآلف الحروف وتتابعها في نسق خاص، لأن اللفظة الفصيحة ذات أثر نفسي خاص لدى المتلقي، تجعله يشعر بلذة فنية متأتية من عذوبة اللفظة نفسها، مثال ذلك وصية أحد الحكماء لابنه، يقول فيها:

«إياك والعجلة، فإن العرب تكنيها أم الندامة، لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويقطع قبل أن يقدر، ويحمد قبل أن يُحرِّب، ويذم قبل أن يخبر، ولن يصحب هذه الصفة أحد إلا صحب الندامة، واعتزل السلامة»[١].

أما تحديد ألفاظ الوصايا فهي كثيرة، يصعب حصرها، فإذا حاولنا وضع معجم لألفاظ الوصايا فإننا سنجد صعوبة التعميم، إذ إن لكل نوع من أنواع الوصايا ألفاظه الخاصة به، فالوصايا التي تعنى بالجوانب الأخلاقية والسلوكية مثلاً، تعول على الألفاظ التي لها علاقة بالقيم الأخلاقية والمثل العليا، كالكرم والشجاعة والمروءة والصدق والإخلاص وغيرهما، مثال ذلك وصية أحد الحكماء لبنيه ناصحاً إياهم بالتحلي بالأدب، قائلاً:

«الأدب أكرم الجواهر طبيعة، وأنفسها قيمة، يرفع الأحساب الوضيعة، ويفيد الرغائب الجليلة، ويعز بلا عشيرة، ويكثر الأنصار بغير رزية، فالبسوه حلة، وتزينوه حلية، يؤنسكم في الوحشة، ويجمع لكم القلوب المختلفة»[٢].

ولهذه القيم العليا ألفاظ أخرى تضادها حاول الموصون تشخيصها، ليعطوا لهذه الألفاظ مدلولاتها اللغوية من جهة، ولشحنها بالإيحاء من جهة أخرى.

مثال ذلك ما جاء في وصية طاهر بن الحسين لابنه، والتي يدعوه فيها إلى

---

(١) زهر الآداب: ٣/ ١٩٧.

(٢) العقد الفريد: ٢/ ٤٢٠.

مجانبة الأخلاق المذمومة، كالكذب والنميمة والجور والطيش والغرور، ومما جاء فيها، قوله:

«... واشدد لسانك عن قول الكذب والزور، وابغض أهله، واقصي أهل النميمة، فإن أول فساد أمرك في عاجل الأمور وآجلها تقريب الكذوب...»(١).

وتعبر الألفاظ في الوصايا الحربية عن كل ما له علاقة بالحرب، بأسلوب حماسي يدعو إلى التهيؤ واليقظة والحذر قبل الحرب، والإقدام والبسالة في مواجهة العدو، مثال ذلك وصية أحد الحكماء لملك، يقول فيها:

«إذا أنشأت حرباً فارهجها، وإذا أوقدت ناراً فأججها، واستعمل في الضعفاء حسن الحراسة، واستعمل في الأقوياء حكم السياسة، وعد أضعف أعدائك قوياً، وأجبن أضدادك جريّاً، تكف الغيلة، وتأمن الحيلة»(٢).

أما الوصايا الإخوانية فتعنى بالعلاقات الإنسانية النبيلة، التي تحث على المودة والمحبة والإخاء وحسن المعاشرة، فتتسم لغتها بالسهولة والرقة والعذوبة، مثال ذلك ما جاء في وصية رجل لابنه، يقول فيها:

«يا بني، اصحب من إذا غبت عنه خلفك، وإن حضرت كنفك، وإن لقي صديقك استزاده لك، وإن لقي عدوك كفه عنك»(٣).

فكل صنف من هذه الوصايا وغيرها، لها ألفاظها اللصيقة بها المعبرة عن معانيها ودلالاتها.

ومن ذلك كله نستدل على أنه ليس هناك ألفاظ خاصة بعينها دون غيرها عول عليها الموصون في أنواع وصاياهم، إلا أن القاسم المشترك الذي يربطها هو ما يغلب على أكثرها، فيما يتعلق بالعقل والحلم والرشاد.

---

(١) تأريخ الطبري: ٨/ ٥٨٥، تأريخ بغداد: ابن طيفور ٢٢.
(٢) لباب الآداب: ٦١ ـ ٦٢.
(٣) بهجة المجالس وأنس المجالس: ٢/ ٧٥.

وخلاصة ما تقدم يمكن القول: إن لغة الوصايا كانت في الأغلب الأعم واضحة، فصيحة، سليمة من الأخطاء النحوية والصرفية، سهلة لتباعد مخارج حروفها، قريبة من الأذهان، لا تحتاج إلى استخراج معانيها من المعجمات، وهي بعد ذلك قد وسمت بشخصية منشئها، وهذا يتمثل في وصايا الكتاب المشهورين ممن جاءت الوصايا في ثنايا كتاباتهم، أو كانت غرضاً مستقلاً قائماً بذاته عند غيرهم، وهي بعد ذلك قد طبعت بطابع المنشيء أياً كان، وأخذت بسمات شخصيته وخصائص كتاباته العامة.

الأسلوب

الأسلوب في اللغة: هو الطريق والوجه والمذهب، ونعني بالأسلوب: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب القول، أي أفانين منه[١].

ويقرب المعنى الاصطلاحي للأسلوب من المعنى اللغوي، فهو «طريقة يستعملها الكاتب في التعبير عن موقفه والإبانة عن شخصيته الأدبية المتميزة عن سواها، ولا سيما في اختيار المفردات، وصياغة العبارات والتشابيه والإيقاع»[٢].

وللأسلوب تعريفات كثيرة عند القدماء والمحدثين، إلا أن الأستاذ أحمد الشايب يلخص تعريف الأسلوب بعبارة موجزة فيقول: «إن الأسلوب هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير»[٣].

إن دراسة أسلوب الوصايا يحتم علينا النظر في طبيعة العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعاني في سياق الجملة، وإن على المنشيء ملاحظة تلاؤم وتلاحم أجزاء الجملة ضمن الوحدة الموضوعية للوصية، كما يجب مراعاة انسيابية التعبير وملائمته لطبيعة الوصية من حيث سهولة الألفاظ وجزالتها وقوة سبكها، عندئذ يكون بناء الوصية وحدة متكاملة على المستوى الدلالي في ملائمة اللفظ للمعنى.

(١) لسان العرب: مادة سلب.
(٢) المعجم الأدبي: جبور عبد النور ٢٠.
(٣) الأسلوب: أحمد الشايب ٣٨.

إن دراستنا لأسلوب الوصايا ينطلق أساساً من كون الوصايا إحدى الفنون النثرية. . . ولما كانت الفنون النثرية تمتاز بأساليب مختلفة ومتباينة من غرض لآخر، لذلك فللوصايا أسلوبها الخاص الذي يميزها عن غيرها من الأساليب النثرية الأخرى.

وقبل البدء بدراسة أسلوب الوصايا في العصر العباسي، لا بد من الإشارة إلى ملاحظة مهمة استخلصناها من خلال ما تم دراسته منها، ألا وهو تفاوت أسلوب الموصين واختلاف طرائقهم في التعبير، وذلك يرجع لأسباب عديدة أهمها قدرة المنشئين وموهبتهم الفنية وتفاوتها بين منشيء وآخر، وطول فترة دراسة الوصايا، التي استغرقت فترة زمنية قاربت خمسة قرون، وهي فترة طويلة أفرزت الكثير من الوصايا نسبت لكُتَّاب مشهورين، وأخرى غيرها نُسبت إلى كتَّاب مغمورين لم يُعرفوا في مجال الأدب.

ولما كان لكل منشيء طريقته في التعبير، أي لكل منهم أسلوبه الخاص به، أي أن الأسلوب ـ كما يقال ـ هو الرجل، لذلك فلكل منشيء أسلوبه الخاص في التعبير عن المعاني والأفكار التي يريد إفراغها في قوالب من الألفاظ، التي يتم وضعها ونظمها لتكون بعد ذلك تراكيب وجمل تتصل ببعضها على مستوى السياق الجملي والدلالي.

وشهدت حقبة الدراسة العديد من الموصين، من الكتَّاب المشهورين، من أمثال ابن المقفع، والجاحظ، وابن قتيبة، وأبي حيان التوحيدي وغيرهم، ومنهم من كتب في موضوعات مختلفة، خص الوصايا فيها بجانب كبير، وقد رأيناها مبثوثة في ثنايا كتبهم، وقسم آخر اختصوا بجانب واحد من جوانب الأدب وجعلوه وكدهم كالوعظ والتصوف والحكمة وغيرها. . . وآخرون لم يُعرفوا في مجال الأدب وهم من الخلفاء وأصحاب السلطان أو المغمورين، ممن وصلتنا وصاياهم، كوصايا الآباء للأبناء، التي تعد أوسع وأغزر الوصايا، لأن هدف كل أب هو رسم الطريق الصحيح لولده ولذلك يلجأ إلى التوصية. ولا تلتزم هذه التوصية بدنو الأجل أو بإنشائها والموصي على فراش الموت،

وإنما يقولها كل أب مشفق على ولده، يحنو عليه فيودعه خلاصة تجاربه للاسترشاد بها، والعمل بالنصائح والتوجيهات التي تحثه على العمل بها والالتزام بموجبها، سعياً منه ليعيش ابنه سعيداً هائناً، محذراً إياه من المهالك والزلل لئلا يقع فيها.

وتبعاً لذلك فإن هناك تفاوتاً كبيراً بين الموصين في ثقافاتهم وطرائق تعبيرهم، فمنهم الكُتَّاب المبرزون، ومنهم المغمورون، مما دعا إلى اختلاف ملكاتهم ومقدراتهم الفنية، والذي أدى بدوره إلى تنوع أساليبهم واختلافها من منشيء لآخر، ومن وصية لأخرى، وحتى المنشئين من الكتاب الأعلام فقد كان لكل منهم طريقته وأسلوبه في التعبير عن المعاني والأفكار... واختلاف أسلوبهم يرجع إلى طول الحقبة الزمنية التي ينتمون إليها، فهم قد عاشوا في عصور مختلفة... وكل واحد منهم إنما يمثل عصره مؤثراً ومتأثراً بالأسلوب السائد في الحقبة التي يعيشها.

وينعكس أسلوب جميع المنشئين من الكُتَّاب وغيرهم، على طبيعة أسلوب الوصايا بين الرصانة والقوة، أو الإسفاف والضعف، لأن لكل منهم أسلوبه الخاص به يميزه عن غيره من المنشئين... فالمنشيء يعبر عن أفكاره التي تجول في ذهنه وعواطفه التي تفتعل في صدره، فيطلقها على شكل عظات وإرشادات، ونصائح تربوية، وأخلاقية، سياسية أو دينية، وغيرها.

والملاحظ على أسلوب الوصايا في العصر العباسي أنها تتجه إلى اتجاهين، الأول هو الأسلوب المتميز بالجودة المتأتية في وضوح المفردة، التي تمتاز بالقوة والجزالة بعيداً عن الإغراب، في أسلوب واضح متسق، ونظم قوي متماسك.

ويأتي الأسلوب القوي الذي يمتاز بالجودة من خلال الدقة في اختيار المفردات وحسن تجانسها وتركيبها مع ما قبلها وما بعدها، والذي يؤدي إلى إبراز المعنى وبسطه وتوصيله إلى ذهن المتلقي بسهولة ويسر، مع قوة السبك وإحكام رصف الكلمات وتجانسها، ويبعد جهده عن الوعورة والتعقيد اللفظي

والمعنوي الذي يشين الألفاظ ويؤدي إلى رداءة التركيب. . . وغالباً ما تكون جودة الأسلوب لدى الكتَّاب الأعلام في عصر الدراسة، ممن وجدنا لهم وصايا في ثنايا كتبهم، والذين اختصت بعض فصول كتبهم ورسائلهم في الوصايا.

والأمثلة على ذلك كثيرة، وسنكتفي بنماذج منها، على سبيل الاستدلال لا الحصر، من أمثال ابن المقفع الذي عالج الموضوعات التي لها مساس بالحياة الاجتماعية والفكرية، وكانت الوصايا أهم محاورها، فقد وردت كثيراً في كتبه مثال ذلك كتابه الأدب الصغير الذي يقول في مقدمته: «وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عون على عمارة القلوب وصقالها وتجلية أبصارها، وإحياء للتفكير، وإقامة للتدبير، ودليل على محامد الأمور، ومكارم الأخلاق»[١].

في حين تضمن كتابه الأدب الكبير الكثير من الوصايا، جاءت ضمن مبحثين، الأول: في السلطان والولاة وحاشيتهما. والثاني: في الصداقة والصديق، كذلك عرض ابن المقفع في وصاياه التي تضمنتها رسالة الصحابة للقضايا الاجتماعية والسياسية، ووضع المعالجة لها[٢].

وكان ابن المقفع منصباً على تفصيل الموضوعات والأفكار والآراء، فلم يولِ اهتمامه بالزخرفة والتنميق والجرس الموسيقي في الألفاظ والتعبير، إضافة إلى استعماله الأسلوب المنطقي في تفصيل أفكاره التي تعد جديدة بالنسبة لعصره، لذلك عمد إلى انتقاء الألفاظ التي تستطيع حمل تلك المعاني والآراء، أما استخدامه لوجوه البديع وأساليب البيان فكان قليلاً[٣].

ويعنى الجاحظ بالوصايا فيوردها في العديد من مؤلفاته، كالبيان والتبيين، والبخلاء، والحيوان، ويعقد لها فصولاً في رسائله، كرسالة

---

(١) المجموعة الكاملة: ابن المقفع ١٠.
(٢) ينظر المصدر نفسه: ١١ ـ ١٤.
(٣) ينظر المصدر نفسه: ٢١.

الحجاب، ورسالة المعاد والمعاش. وطبعت الوصايا التي جاء بها الجاحظ بأسلوبه الذي يعتمد على الإطناب والازدواج، وحسن التقسيم، وجمال الإيقاع والتقصي، وكثرة الاستطراد، والفكاهة الساخرة.

ولما كان الجاحظ أحد أئمة المعتزلة الذين تسلحوا بالفلسفة اليونانية، فهو لذلك يصطنع أساليبهم في التحليل والتعليل، والجدل وتوليد المعاني، وهو بذلك ينفرد بمدرسة خاصة، تميزت عن سائر الأساليب[١].

ويولي ابن قتيبة اهتمامه بالوصايا لأنها تقوِّم السلوك، وتهذِّب الأخلاق، لذلك فهو يشير إلى الاتجاه الخلقي في تأليف مادة كتابه عيون الأخبار، فيقول:

«إنه دال على معاني الأمور، مرشد لكريم الأخلاق، زاجر عن الدناءة، ناه عن القبيح، باعث على صواب التدبير، وحسن التقدير»[٢].

وتفيض عشرات الأبواب والكتب بمواعظه الإرشادية وأخلاقه العلمية، التي هي موضوعات عيون الأخبار، التي يقول فيها:

«وأودعته طرفاً من محاسن كلام الزهاد في الدنيا وذكر فجائعها، والزوال والانتقال وما يتلاقون به إذا اجتمعوا ويتكاتبون به إذا افترقوا، في المواعظ والزهد والصبر والتقوى واليقين وأشباه ذلك، لعل الله يعطف به صادقاً، ويظهر التوبة متجانفاً، ويردع ظالماً، ويلين برقائقه قسوة القلوب»[٣].

ومن الموضوعات المبثوثة في مؤلفات أبي حيان التوحيدي (الوصايا)، تلك التي شكلت جزءاً من كتاباته، كالبصائر والذخائر، والإمتاع والمؤانسة، ورسالة الصداقة والصديق، والإشارات الإلٰهية.

أما أسلوبه في كتاباته، ومنها الوصايا، فيعتمد على سلامة الفكر وسلاسة الإنشاء وتجويده وتناسق الجمل، والمواءمة بين الألفاظ والمعاني، وتجنُّب

---

(١) ينظر بلاغة الكتاب: ١٥٢ ـ ١٥٤.
(٢) عيون الأخبار: المقدمة.
(٣) المصدر نفسه.

التعقيد والحوشي. . . كذلك لم يعن بالتنميق والتحبير والصقل والتطرية، لأن هدفه إبلاغ العقول وما يجول في الخواطر من أقصر الطرق وأسهل المسالك تارة، ومن أطولها تارة أخرى.

أما أسلوبه في النثر الصوفي، كما في وصاياه الصوفية التي جاءت في الإشارات الإلٰهية، فيغلب عليه الصنعة والسجع والمحسنات البيانية والبديعية[١].

وهناك نوع آخر من الوصايا استخدم فيه الموصون نمطاً آخر من الأساليب، ألا وهو السلاسة والسهولة والوضوح، والذي آثر فيه الموصون المعاني على الألفاظ، فلم يعيروا ألفاظهم كبير اهتمام، وعمدوا إلى اختيار المفردة البسيطة التي يفهمها عموم الناس، فعلى الرغم من فصاحتها وسلامتها من الناحية اللغوية والصرفية، تكاد تكون شائعة، لذلك كان أسلوب هذه الفئة يميل إلى المباشرة والخطابية، ووسمت أساليبهم بالتقريرية، وخلت من الجوانب الفنية، واعتمدت على الموسيقى الداخلية بهدف التأثير في نفس المتلقي.

ومن أمثلة الوصايا التقريرية، وصية شبيب بن شيبة إلى الخليفة المنصور، والتي جاءت بلغة سهلة بسيطة، خالية من التزويق اللفظي. . . يقول فيها:

«يا أمير المؤمنين، إن الله ـ تبارك وتعالى ـ يوم قسَّم أقسامه بين خلقه لم يرض لك منها إلا بأعلاها وأسناها، فلم يجعل فوقك في الدنيا أحداً، فلا ترضى لنفسك إذا فعل بك ذلك أن يكون فوقك في الآخرة أحد، واتق الله يا أمير المؤمنين، فإنها وصية الله، إليكم جاءت ومنكم قبلت وإليكم تُرد»[٢].

ويوصي أحد الحكماء أصحاب السلطان بأسلوب تقريري، تميز بلغة بسيطة قريبة المأخذ، فصيحة. . . جاء في مطلعها، قوله:

---

(١) ينظر أمراء البيان: محمد كرد علي ٢/ ٥٤٠ـ ٥٤٤.

(٢) الأخبار الموفقيات: الزبير بن بكار ٣٩٩.

«إذا نزلت من الملك بمنزلة الثقة، فاعزل كلام الملق، ولا تكثر من الدعاء له في كل كلمة، فإن ذلك يشبه حال الوحشة والغربة، إلا أن تكلمه على رؤوس الناس عما وقره وعظمه، وإذا أردت أن يقبل قولك فصحح رأيك، ولا تشوبنه بشيء من الهوى، فإن الرأي يقبله منك العدو، والهوى يرده عليك الصديق»[١].

وبأسلوب تقريري محكم السبك، فصيح العبارة، يوصي حكيم ابنه، فيقول:

«يا بني، تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الحديث، وليعلم الناس أنك أحرص على أن تسمع منك على أن تقول، فاحذر أن تسرع في القول فيما تحب عنه الرجوع بالفعل حتى يعلم الناس أنك على فعل ما لم تقل أقرب منك إلى قول ما لم تفعل»[٢].

وقد يلجأ بعض الكتاب إلى الأسلوب التقريري كما فعل ابن قتيبة في وصيته لابنه، والتي هبط فيها أسلوبه درجات عن أسلوبه المعتاد في كتاباته، فقد اهتم بمضمونها أكثر من اهتمامه بأسلوبها، مما دعا بعض الدارسين إلى الارتياب من نسبتها إليه[٣]. ومما جاء فيها، قوله:

«يا بني، أوصيك بوصية إن تمسكت بها رجوت لك النجاة، وإن استعملت ما فيها سعدت إن شاء الله. يا بني، قد صحبت لك طوائف من الناس، وبلوت أخبارهم، فما رأيت طائفة أجل وأعظم قدراً من أهل الفقر إلى الله عز وجل، يؤيدهم إذا ماتوا إن شاء الله»[٤].

وبأسلوب تقريري مسجوع يوصي بديع الزمان الهمذاني ابن أخته بالعلم والمواظبة على الدراسة، قائلاً:

---

(١) نهاية الأرب: النويري ٦/ ١٤٣.
(٢) العقد الفريد: ٢/ ٤٢٧.
(٣) ينظر الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية: د. حسين ناعسة ٤٢٠.
(٤) المصدر نفسه: ٤١٨.

«أنت ولدي ما دمت: والعلم شأنك، والمدرسة مكانك، والمحبرة حليفك، والدفتر أليفك، فإن قصرت ولا أخالك، فغيري خالك، والسلام»[(١)].

والموصون في هذه الوصايا عمدوا إلى إفراغ معانيهم في قوالب من الألفاظ المعبرة عن تجاربهم ومعاناتهم التي عاشوها بأسلوب مباشر، وبأيسر السبل، وذلك لأن هدفهم التوجيه والنصح والإرشاد، متوخين إيصال أفكارهم ومعانيهم إلى المتلقين، وسرعة تأثيرها فيهم.

وتكاد ألفاظ هذه الوصايا تخلو من الإيحاء الذي له أهميته على المستوى الدلالي في النص الأدبي، لأن «اللفظ الموحي هو الذي يثير في النفس معاني كثيرة تحيط به عبر مدلوله اللغوي، اكتسبها في أدوار تطوره عبر العصور اللغوية، فمجرد أن ينطق باللفظ يثير في الذهن هذه المعاني المصاحبة لها»[(٢)].

ولما كان العقل من أهم العناصر التي اعتمدها المنشيء في نقل أفكاره ومعانيه الموحية والدالة على ما يفكر به ويحاول إيصاله إلى المتلقي، توجب عليه اختيار الأسلوب الأمثل لنقل أفكاره ومعانيه وإيصالها بسهولة ويسر إلى ذهن المتلقي، وهذا بدوره يطبع الوصية بطابع الحياة مشحونة بالعاطفة، مفعمة بالخيال الذي يؤثر في النفوس، ويعلق بالقلوب، ولعل الوصايا الخالدة التي انفردت بذكرها كتب الأدب والتأريخ تمثل هذا النوع من الوصايا، مثال ذلك وصايا المنصور لابنه المهدي، ووصية طاهر بن الحسين لابنه، ووصية عبد الملك بن صالح لابنه، وغيرها من الوصايا الخالدة.

أما نجاح الموصين في إنشاء وصاياهم، فيعتمد على صدق التجربة، وعمق المعاناة، وقدرة منشيء الوصية على نقلها عن طريق التعبير المناسب الذي هو الأسلوب الأمثل في تحويل الألفاظ المعبرة عن الأفكار والمعاني إلى تراكيب جميلة رائعة مشحونة بالعاطفة مؤطرة بالخيال، ذات رنة ونغم موسيقي،

---

(١) يتيمة الدهر: ٣/ ٢٧٥، جواهر الأدب: ١/ ١٧٩، بلاغة الكتاب: فصل الوصايا والنصائح ١٢١.

(٢) اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري: د. منصور عبد الرحمٰن ١١٣.

عند ذاك نستطيع القول أن منشيء الوصية استطاع أن يرتقي بعمله إلى النص الإبداعي المتكامل، فهو إلى جانب السلاسة والسهولة يعمد إلى الدقة والمهارة الفنية، وهو ما يميز وصايا أعلام الكتاب في العصر العباسي.

وبعد، فلا بد من التعرف على أكثر الأساليب شيوعاً في الوصايا، والباحثة من خلال استقراء ما وقفت عليه من وصايا خلال فترة الدراسة، وجدت بأن الأساليب الإنشائية أكثر شيوعاً في الوصايا، والتي تمثل ـ على الخصوص ـ في الإنشاء الطلبي بصيغه المعروفة كالأمر والنهي والنداء، واعتمد الموصون الإنشاء الطلبي لأنه يمتاز «بتفنن في القول لخروجه عن أغراضه الحقيقية إلى أغراض مجازية تفهم من سياق الكلام»[١].

ويأتي الأمر في طليعة الأساليب الإنشائية التي اعتمدها الموصون في إنشاء وصاياهم. . . ويعد الأمر الأسلوب الطلبي الأكثر شيوعاً في الوصايا، وأكثر أنواعه صيغة فعل الأمر، كما في وصية أعرابي لابنه، يقول:

«ابذل المودة الصادقة تستفد إخواناً، وتتخذ أعواناً، فإن العداوة موجودة عتيدة، والصداقة متعززة بعيدة. جنِّب كرامتك اللئام، فإنهم إن أحسنت إليهم لم يشكروا، وإن نزلت شديدة لم يصبروا»[٢].

ولا بد من الإشارة إلى أن في الأمر من معنى يفيد الاستعلاء، لذلك فالأمر الحقيقي يخرج من الأعلى إلى الأدنى، وهذا يتفق تماماً مع طبيعة الوصايا، كما في وصية المنصور لابنه المهدي التي يقول فيها:

«يا أبا عبد الله، استدم النعمة بالشكر، والقدرة بالعفو، والطاعة بالتآلف، والنصر بالتواضع، ولا تنسى مع نصيبك من الدنيا نصيبك من رحمة الله»[٣].

واستعمل الأدباء أسلوب الأمر للتعبير عن معان أخرى خرج إليها مجازاً حاول البلاغيون حصرها[٤]، ونجد ذلك كثيراً عند الموصين في إنشاء

---

(١) البلاغة العربية: د. أحمد مطلوب ٨٧.
(٢) أمالي القالي: ١/ ١٩٧.
(٣) تأريخ الطبري: ٨/ ٧٣.
(٤) ينظر مفتاح العلوم: السكاكي ١٢٥.

وصاياهم، فقد عبروا بالأمر عن معانٍ كثيرة، أهمها استعمال الأمر للنصح والإرشاد، على نحو وصية بعض البلغاء، يقول:

«إلزم الصمت، فإنه يكسبك صفو المحبة، ويؤمنك سوء المغبة، ويُلبسك ثوب الوقار، ويكفيك مؤونة الاعتذار»(١).

وكذلك وصية بعض العلماء، يقول:

«اتق مصارع الدنيا بالتمسك بحبل المروءة، واتق مصارع الأخرى بالتعلق بحبل التقوى، تفز بخير الدارين»(٢).

ومن خلال هذه الأمثلة وغيرها نجد خروج الأمر من معناه الحقيقي إلى معنى النصح والإرشاد، يأتي استناداً إلى طبيعة الخطاب المتبع، ومقام القول.

وأكثر الموصون من إيراد النهي، الذي هو أحد أساليب الإنشاء الطلبي، ويعني «طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام»(٣)، وهو خلاف الأمر وضده(٤). واصطلاحاً: هو قول القائل لمن دونه: لا تفعل(٥)... ولا بد للفعل في أسلوب النهي من أداة النهي (لا)، لأن الفعل وحده لا يدل على معنى النهي(٦)، وهو مع اختلافه عن الأمر في أمور معينة متفق في ضرورة اعتبار حال فاعلهما في كونه مريداً لهما(٧).

ويأتي استخدام منشيء الوصية لأسلوب النهي بصورة واضحة في معظم الوصايا، وتكاد لا تخلو وصية منه، وذلك لأن النهي يفيد في معنى النصح والإرشاد الذي تقوم عليه جميع الوصايا، فالموصي دائماً يدعو إلى اجتناب الرذائل وينصح بالابتعاد عن مواضع الزلل، ويحث على ترك متاع الحياة

---

(١) أدب الدنيا والدين: ٢٤٧.
(٢) عين الأدب والسياسة: ١٣١.
(٣) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: د. أحمد مطلوب ٣/ ٣٤٤.
(٤) لسان العرب: مادة نهى.
(٥) ينظر مفتاح العلوم: ١٥٢.
(٦) ينظر المصدر نفسه.
(٧) ينظر معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٣/ ٣٤٤.

الدنيا، وغيرها مما يفيد النصح والتوجيه، والأمثلة على استخدام منشيء الوصية لأسلوب النهي كثيرة جداً، وعرضنا لبعضها يأتي على سبيل الاستدلال لا الحصر. ومن أمثلتها وصية سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي لأبي عمر المدائني، يقول:

«لا تطلبن حاجتك إلى كذاب، فإنه يقربها وهي بعيدة، ويبعدها وهي قريبة، ولا إلى أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، ولا إلى رجل عند من تسأله الحاجة مأكلة، فإنه لا يؤثرك على نفسه»(١).

وبأسلوب النهي يوصي وهب بن منبه، بتجنب مجادلة العلماء، وترك مماراة السفهاء، فيقول:

«يا بني، لا تجادلن العلماء فتهون عليم فيرفضوك، ولا تمارين السفهاء فيجهلوا عليك ويشتموك، فإنه يلحق بالعلماء من صبر ورأى رأيهم، وينجو من السفهاء من صمت وسكت عنهم»(٢).

وتتضمن بعض الوصايا مجموعة من الأوامر والنواهي على التوالي، كما في وصية المأمون العباسي لأخيه المعتصم، والتي جاء في أحد فقراتها، قوله:

«يا أبا إسحاق، إدن مني، واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك في القرآن والإسلام، واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله، عمل المريد لله، الخائف من عقابه وعذابه، ولا تغتر بالله مهلته، فكأن قد نزل بك الموت، ولا تغفل أمر الرعية، والعوام، فإن الملك بهم، وبتعهدك لهم...»(٣).

ولما كانت الوصايا تحتاج في تقريرها إلى أسلوب التحذير، لجأ إليه الموصون في تحبير وصاياهم، متوخين سبيل النصح والإرشاد، والذي جاء بلفظ: إياك، واحذر، واجتنب، وجنِّب، وغيرها، مما يفيد التحذير.

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٣٤، العقد الفريد: ١/ ٢٤١ـ ٢٤٢.

(٢) روضة العقلاء: ٢١١.

(٣) تأريخ الطبري: ٨/٦٤٨، شذرات الذهب: ابن العماد الحنبلي ١/ ٤٣.

وبأسلوب التحذير يوصي جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) ابنه، فيقول:

«يا بني، إياك أن تزري بالرجال فيُزرى بك، وإياك والقول فيما لا يعنيك فتذل لذلك»(١).

ويحذِّر طاهر بن الحسين ابنه بلفظة: اجتنب، في أحد فقرات وصيته، يقول:

«واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الماضية والأمم البائدة، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله، والوقوف عند محبته، والعمل بشريعته وسنته، وإقامة دينه وكتابه، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله»(٢).

ويحذِّر أعرابي ابنه بلفظة: جنِّب، في وصيته التي يقول فيها:

«جنِّب كرامتك اللئام، فإنهم إن أحسنت إليهم لم يشكروا، وإن نزلت شديدة لم يصبروا»(٣).

ويغلب أسلوب التحذير على الوصايا الوعظية والزهدية، تلك التي تحذِّر من الدنيا وزينتها، وتحذِّر من عقاب الله وسخطه، ومن عذاب النار في اليوم الآخر.

ويأتي أسلوب التحذير عندهم بصيغ متعددة كقولهم: حذار، واحذر، واحذروا، وخذوا حذركم، وغيرها.

ومن أسلوب التحذير، ما صرح به ابن الجوزي في إحدى وصاياه الوعظية، وهو يلوح متوعداً الغافل بالعذاب الشديد، قائلاً:

«واحذروا فوت دار الأبرار، وتخوفوا يوم الفصل بين الفريقين، أن

---

(١) حلية الأولياء: ٣/ ١٩٥.

(٢) تأريخ بغداد: لابن طيفور ٢٠٧، تأريخ الطبري: ٨/ ٥٩٠، جمهرة خطب العرب: ٣/ ١٣٤.

(٣) أمالي القالي: ١/ ١٩٧.

يصيبكم من البين البين»[١].

وتعد الخطابية من السمات الأسلوبية في الوصايا، لما لها من هدف تأثيري، ووقع خاص في نفس المتلقي، واستخدمها الموصون في الخطاب المباشر والضمني، وذلك لأن الخطاب يمنح المنشيء الحرية في التعبير، ويزيد من التأثير في نفس المتلقي، ويبعث فيه نزعة للعمل الإيجابي عندما يحول الأفكار الذهنية الجامدة إلى عواطف ينفعل بها المتلقي فيعمل بتأثيرها، وهذا من أهم الأهداف التي يرمي إليها منشيء الوصية.

ومن الوصايا التي وردت بأسلوب الخطاب المباشر، وصية ابن مسكويه للحكماء، يقول فيها:

«يا طالب الحكمة: طهِّر لها قلبك، وفرِّغ لها لُبّك، واجمع إلى النظر فيها همَّتك، فإن الحكمة أعظم المواهب التي وهبها الله لعباده، وأفضل الكرامة التي أكرم الله بها أوصياءه، وهي المال الذي من أحرزه استغنى به، ومن عدمه لم يغنه شيء سواه، والصاحب لم يسكن إلى أحد بعده، هي للقلوب كالقطر للنبات، ومن العقول بمنزلة الضياء من الأبصار»[٢].

ومما جاء بأسلوب الخطاب الضمني، وصية عمرو بن عبيد لأبي جعفر المنصور، عندما طلب منه المنصور الموعظة، فوعظه بكلام طويل افتتحه بأن قال:

«إن هذا الأمر لو كان يدوم لمن كان قبلك لم يصل إليك، وإن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها، واعلم أنه واقفك وسائلك عن مثاقيل الذر من الخير والشر، وأن أمة محمد خصماؤك يوم القيامة، وأن الله لا يرضى منك إلا بما ترضى لنفسك، وأنك لن ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك، وأن لا يرضى منك إلا بالعدل على الرعية، أن من وراء بابك نيراناً تأجج من الجور...»[٣].

---

(١) المدهش: ٢٩٢.

(٢) الحكمة الخالدة: ٢٨٥.

(٣) مروج الذهب: ٣/ ٣١٤، نصيحة الملوك: ٦٤، زهر الآداب: ١/ ١٤٤.

ويعتمد الأسلوب الخطابي على النداء، الذي هو: «طلب إقبال المدعو إلى الداعي»[١]، لأنه ينسجم مع الوصايا ذات الطابع الخطابي، لأن من أوجه النداء، الخطاب: أي توجيه الكلام إلى متلقٍ أو أكثر، وذلك لأن الخطاب يمنح الموصي حرية التعبير، ويزيد من التأثير في نفس المتلقي.

وغالباً ما تستفتح الوصايا بأسلوب النداء، كقولهم: يا بني، لمن كانت وصيته لابنه، كما في وصية خالد بن يحيى التي يقول فيها:

«يا بني، إذا حدَّثك جليسك حديثاً فاقبل عليه واصغ إليه، ولا تقل: قد سمعته، وإن كنت أحفظ له وكأنك لم تسمعه إلا منه، فإن ذلك يكسبك المحبة، والميل إليك»[٢].

وبأسلوب النداء يدعو الموصون في مطلع وصاياهم الموصى إليهم بأسمائهم، كما جاء في وصية أبي جعفر المنصور التي يدعو فيها ولده المهدي مخاطباً إياه بقوله: «يا أبا عبد الله»، والخليفة المهدي يدعو الربيع بن الجهم بقوله: «يا ربيع»، وهارون الرشيد يدعو الأحمر النحوي بـ«يا أحمر»، والمأمون العباسي يدعو أخاه المعتصم «يا أبا إسحاق»، وأبو تمام يدعو البحتري «يا أبا عبادة» وغيرها من الوصايا، التي يكون فيها المنادى هو الموصى إليه. أما إذا كانت التوصية لمجموعة من الناس فتكون باستعمال الجمع، كما جاء في توصية بعض الحكماء، التي يقول فيها:

«يا قوم، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فهو أيسر عليكم وأرفق بكم غداً، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا»[٣].

وأحياناً يتوجه الخطاب في التوصية لشخص مجهول، كما في وصية ابن الجوزي التي يقول فيها:

---

(١) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٣/ ٣٢٦.
(٢) بهجة المجالس: ١/ ٤٣.
(٣) الحكمة الخالدة: ١٤٣.

«يا هذا، هوِّن أمر الدنيا تهن، وقدر أنها قط لم تكن، واحفظ دينك من مكرها وصن، فمتى وفت؟ ومتى لم تخن؟»(١).

والموصي في جميع أضرب الخطاب يستخدم النداء، فتارة يظهر أداته، وتارة لا يظهرها، كما جاء في وصية ابن الجوزي التي يقول فيها:

«إخواني، احذروا دنياكم فإنها خادعة، وانتظروا حتوفها، فهي لا ريب واقعة»(٢).

أما عن طبيعة أسلوب الموصي ضمن الموضوعات النثرية الأخرى التي تم تصنيفها في الفصل الأول من هذه الدراسة، فقد طبعت بأسلوب تلك الموضوعات المضمنة لها، من أمثال ذلك: بعض مقامات بديع الزمان الهمذاني، التي تميزت بانتقاء الألفاظ الموسيقية العذبة الجرس، الحلوة الوقع على الأذن(٣)، مع كثرة استخدام المحسنات البديعية والسجع(٤)، والملاءمة بين الشعر والنثر، كما جاء في المقامة الوعظية، حيث أنشأ قصيدة طويلة وجزأها على مجموعات من الأبيات، يأتي فيها بفقرات من النثر ثم يكملها بأبيات من الشعر(٥)، ومما جاء في إحدى فقراتها قوله:

«انظر إلى الأمم الخالية، والملوك الفانية، كيف انتسفتهم الأيام، وأفناهم الحمام، فانمحت آثارهم، وبقيت أخبارهم.

فأصبحوا رميماً في التراب، وأقفرت مجالس منهم عطلت ومقاصر
رحلوا عن الدنيا وما جمعوا بها وما فاز منهم غير من هو صابر»(٦)

وتعد الوصايا الوعظية والصوفية من الموضوعات التي اتسمت بأسلوب

---

(١) المدهش: ٥٤٩.
(٢) المصدر نفسه: ٥٦٥.
(٣) بديع الزمان الهمداني: د. مصطفى الشكعة ١٦٢.
(٤) ينظر المصدر نفسه: ٢٥٦ ـ ٢٦٠.
(٥) ينظر المصدر نفسه: ٢٥٧.
(٦) ينظر المصدر نفسه: ١٣٣.

فني خاص، لأنها ضرب من ضروب الكتابة الدينية التي «تتطلب إحداث تأثير في السامع لجذبه إلى الإيمان والتقى، ولإبعاده عن الضلالة والمعصية، وأن التأثير المطلوب هذا يتطلب أسلوباً فنياً خاصاً يحققه وفق صيغ معينة قادرة على خلق جوٍّ روحي»[1].

ولكي تحقق هذه الوصايا هدفها في إحداث التأثير المطلوب على المتلقي، لا بد للموصي من اتباع نمط خاص في التعبير، واتساق موسيقي يبعث الإيقاع المناسب لإحداث الجو المؤثر، ومن الأمور المجتلبة له السجع وأشكال المحسنات البديعية، ومن أمثلة الوصايا الوعظية، وصية ابن الجوزي التي يقول فيها:

«إخواني، بادروا آجالكم، وحاذروا آمالكم، أما لكم عدة فيما مضى؟ أما لكم، ما هذا الغرور الذي قد أمالكم، ستتركون على رغم آمالكم ما لكم»[2].

ومن وصايا الصوفية، وصية إبراهيم بن أدهم التي يقول فيها:

«إياكم والكبر، إياكم والإعجاب بالأعمال، انظروا من دونكم، ولا تنظروا إلى من فوقكم، من ذلل نفسه رفعه مولاه، ومن خضع له أعزه، ومن اتقاه وقاه...»[3].

وبعد أن عرضنا أسلوب الوصايا، نخلص إلى القول: بأن للوضوح أهمية كبيرة في بناء الوصايا، فهو يعتمد على حسن اختيار الكلمات، والتعبير عنها بطريقة مفهومة، بعيدة عن الإبهام والغموض، لتدل على معانيها بدقة، مما يجعلها مقنعة تنفذ إلى قلوب متلقيها بسهولة ويسر.

ولما كانت الوصايا تعتمد على الأسلوب الخطابي الذي يحتاج إلى إثارة الشعور، إضافة إلى الإقناع، فإن الموصي يعمل على توجيه المتلقي إلى الهدف

---

(1) النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي: فائز طه عمر ٢٢٧ـ٢٢٨، أطروحة ماجستير.
(2) المدهش: ٢٩٢.
(3) حلية الأولياء: ٨/ ٤٠.

الذي يقصده فيعمد إلى الاستمالة التي تتحقق بامتزاج مشاعر الموصي مع المتلقي، والتي يثيرها عنصران مهمان، هما: العاطفة الصادقة، التي تنفذ إلى القلوب والمشاعر، والخيال المبدع الذي يثير الأخيلة والذكريات في نفوس المتلقين، عندما يجعل وصيته غنية بالمشاعر الحية، والصور الذهنية التي تحمل تيار الحياة المتدفق عبر المفردات والعبارات.

الفصل الثالث

(الخصائص الفنية للوصايا)

أولاً: الخصائص الشكلية:

- سهولة الألفاظ وسلاستها وبعدها عن الحوشي والغريب.
- الإيجاز والإطناب.
- الاقتباس.
- التضمين.

ثانياً: الخصائص المعنوية:

- حرارة العاطفة وصدق الإحساس.
- تسلسل الأفكار ودقة تنظيمها.
- تشخيص الأفكار وتجسيدها.
- الإيقاع والتنغيم الصوتي:

أ ـ السجع.

ب ـ التوازن.

جـ ـ الترادف.

د ـ الجناس.

هـ ـ المقابلة والتضاد.

و ـ التكرار.



الفصل الثالث

(الخصائص الفنية للوصايا)

أولا: الخصائص الشكلية:

ـ سهولة الألفاظ وسلاستها وبُعدها عن الحوشي والغريب:

تهدف موضوعات الوصايا إلى تهذيب النفوس وتوجيه السلوك، لذلك فهي تعتمد النصح والتوجيه، والوعظ والإرشاد لتحقيق هذه الغاية... ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بإحداث التأثير المطلوب، الذي يتأتى من خلال سهولة الألفاظ وسلاستها ووضوح معانيها والقصد إلى الغرض دون تعقيد.

وهذا التبسط في القول يجعل الوصايا مأنوسة سريعة التأثير، لا تحتاج إلى إجالة النظر وطول التفكير في معانيها، لذلك عمد الموصون على اختلاف ثقافاتهم وموضوعاتهم إلى سهولة الألفاظ وفصاحتها ووضوح دلالتها على المعنى المراد.

ومنشيء الوصية يضفي على وصيته أثراً من نزعته الوجدانية، تلك التي جعلت ألفاظه وتعبيراته سهلة قريبة المأخذ تصل إلى أفهام الناس وتحقق الغرض المطلوب منها دون تعمّل أو تنميق إلا ما جاء عفو الخاطر.

ومن ملامح الانسياب في التراكيب، أن الألفاظ منسجمة غير متنافرة، جاء النطق بها في يسر وسهولة، مثال ذلك: وصية بعض الحكماء لولده التي يقول فيها:

«يا بنيّ، تأدبوا فإنكم إن كنتم ملوكاً برزتم، وإن كنتم أوساطاً قُدتم الناس، وإن كنتم فقراء عشتم بفضل أدبكم»[1].

واتسمت الوصايا بالطابع الذاتي المشير إلى موهبة المنشيء وتجربته،

---

(١) نصيحة الملوك: ٣١٢.

وكان شأنها التبسط والإطلاق، لذلك فهي سهلة الفهم ليست مقحمة ولا معقدة، كما في وصية يحيى بن خالد لابنه، والتي جاء فيها:

«يا بني، إذا حدثك جليسك حديثاً، فاقبل عليه وإصغ إليه، ولا تقل قد سمعته، وإن كنت له أحفظ، وكأنك لم تسمعه إلا منه، فإن ذلك يكسبك المحبة والميل إليك»[١].

ولما كانت الوصايا تعبر عن تجارب الموصي ومعاناته وتنقل لنا خبراته في الحياة، فهي لذلك أقرب ما تكون للحياة الواقعية التي يعبر عنها بصدق، وقد رأيناه يلجأ إلى استخدام الألفاظ السهلة المأنوسة، سريعة الفهم، لتعطي السرعة في التأثير.

لذلك نستطيع القول: أن أسلوب الوصايا هو الأسلوب المطبوع الخالي من التكلف والتعقيد، ومثال ذلك: ما جاء في وصية الرشيد لولده المأمون، حيث يقول:

«لا تتكل على أن تقول: كان أبي الرشيد، واعمل على ما يتكل عليه من يقول: كان أبي المأمون»[٢].

ومن خلال دراستنا للوصايا وجدنا شيوع البساطة والوضوح وانسياب التعبير في طائفة كبيرة من الوصايا، فلم يلتمس المنشيء لمفرداته فيها ما وعته دفاتر اللغويين أو جرت به ألسنة القدماء، ولم تحمل كلماتهم في طياتها المعنى القاموسي، ولم يستعملوا اللغة المصنعة، وإنما سلك منشيء الوصية طريق التبسط ليقرب ما استطاع من لغة الناس، وأخذ على عاتقه إيصالها إلى أذهان الآخرين. فتقترب بعض الأحيان من لغة الناس البسيطة التي يفهمها ويتذوقها عامة الناس، وهي مع بساطتها لم تخرج عن القواعد النحوية والصرفية.

ومن أمثلتها ما جاء في وصية ابن المقفع لابنه، يقول:

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٤٣.

(٢) عين الأدب والسياسة: ١١٢.

«أي بني، أوجب على نفسك تفقد أمورك ومصالحك، ولا تجز الإهمال في المهمات، والتزام النظر الصائب والفكر الصافي في دقيق الأمور وجليلها، واتباع المحاسن واستعمالها، وترك المساوىء واجتنابها...»[١].

وخلاصة القول: أن سهولة الألفاظ وسلاستها يكون بفصاحة كلماتها وخلوصها من تنافر الحروف وغرابة الاستعمال ومخالفة القياس الصرفي وكراهة السمع... وقد وجدنا الوصايا في العصر العباسي تمتاز بتآلف حروفها وسهولتها على اللسان، ينطق بها من غير عناء، فمعانيها قريبة لا تحتاج ألى تفسير معجمي، مع موافقتها للقواعد الصرفية واللغوية، وسلامة مادتها وصِيَغها ومعناها من الخلل.

الإيجاز والإطناب:

إن من أبرز الخصائص الأسلوبية للوصايا في العصر العباسي مراعاة ظرف إنشائها ومناسبة المقام في الإيجاز والإطناب، فمن الوصايا الموجزة، ما كان على شكل فقرات قصيرة لا تتجاوز الفقرتين إلى عشرة فقرات، امتازت ببلاغة القول، وحسن السبك، وقوة التعبير، فعبرت بفقرات قصيرة عن معاني عميقة أوجزت فيها خلاصة حياة الموصي وعصارة تجاربه ومعاناته.

ويعد الإيجاز الأسلوب الأمثل في التعبير، ولا نعني بالإيجاز المخل بالمعنى، والذي لا يوضح المقصود، ولا يؤثر في المتلقي، بل الإيجاز الذي يعنى بالغرض المقصود من التوجيه، والذي يبقى عالقاً في الذهن وله أصداؤه العميقة في النفوس.

واتجه الموصون إلى بساطة التعبير وأداء الغرض مباشرة دون قصد إلى بسط المعاني وتأكيدها، كما يتضح ذلك في وصية المهدي العباسي للربيع بن الجهم، حيث يقول:

«يا ربيع، آثر الحق، والزم القصد، وابسط العدل، وارفق بالرعية،

---

(١) الفكر التربوي رسالة الأدب الوجيز للولد الصغير: ٢٠٧.

واعلم أن أعدل الناس من أنصف من نفسه، وأظلمهم من ظلم الناس لغيره»[(١)].

ومثال ذلك كثير من الوصايا المقتضبة، ومنها وصية لأحد الحكماء يقول فيها:

«استعن على العدل بخلَّتين: قلة الطمع، وشدة الورع»[(٢)].

ووصية الربيع بن خيثم لأخ له، يقول:

«قدِّم جهازك، وافرغ من زادك، وكن وصي نفسك، والسلام»[(٣)].

ووصية ابن السماك لهارون الرشيد عندما طلب منه الموعظة، قائلاً له: عظني، فقال: «اعلم أنك لست أول خليفة يموت، فقال: زدني، فقال: لو لم يمت من كان قبلك لم يصل إليك ما أنت فيه»[(٤)].

ويعتمد أدب الوصية وقصرها على موضوعها ومناسبتها ومقام القول، فإذا كان منشيء الوصية يعمد إلى التأثير السريع فيلجأ إلى الإيجاز في التوصية لتكون سريعة الأداء، وسريعة الفهم، متلاحقة الأثر، مثلها مثل الطرقات المتوالية على مسامع المتلقي.

ويراد بالجمل القصار هي التي تكون وسطاً بين الطول والقصر، لأن العبارات الطويلة بطيئة التأثير، مملة للسامع، والعبارات القصيرة المفرطة في قصرها، مفاجئة، مجهدة للسامع في تتبعها[(٥)].

وقد يلجأ بعض الموصيين إلى الإطناب في إنشاء وصاياهم، وهدفهم من ذلك تأكيد الفكرة وتوضيحها أو تفصيل جوانبها... ويسعى الموصي لتحقيق

---

(١) العقد الفريد: ١/ ٣١.
(٢) لباب الآداب: ٥٥.
(٣) أدب الدنيا والدين: ١٠٣.
(٤) نصيحة الملوك: ٦٥، وينظر أدب الدنيا والدين: ١٠٠، وردت بلفظ: اعلم أنك لست أول خليفة يموت.
(٥) الخطابة في صدر الإسلام: د. محمد طاهر درويش ١/ ٤٤.

هذه الغاية إلى عدة وسائل كاستخدامه التكرار والترادف والمقابلة والتضاد وتوليد المعاني، وغيرها من أضرب الإطناب الذي يهدف من ورائه إلى غاية تهذيبية أو وعظية أو غيرها، فهو يلح على المتلقي ويتوسل إليه بأساليب عديدة، ليصل إلى هدفه ألا وهو قوة التأثير وترسيخ المعنى وتأكيده في ذهن المتلقي. ومن أمثلتها وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله، التي أخذت متسعاً كبيراً، وفصّلت القول في جوانب الحياة المختلفة. ومما جاء في مقدمتها قوله الذي يتوضح فيه الإطناب من خلال تفريغ المعاني، يقول:

«عليك بتقوى الله وحده، لا شريك له، وخشيته ومراقبته، ومزايلة سخطه، وحفظ رعيتك، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك، وما أنت صائر إليه، وموقوف إليه، ومسؤول عنه، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله، وينجيك يوم القيامة من عذابه، وأليم عقابه. . .»[(١)].

ويقع الإطناب عادة في الوصايا التي تتوزع في محاور متعددة، وتتناول جوانب الحياة المختلفة، فترسم صورة واضحة للمستقبل، وتضع المتلقي في الطريق الصحيح، مثال ذلك: وصية الخليفة المنصور لابنه المهدي، تلك التي أسهب وأطال فيها حتى أنه ذكر اليعقوبي في خاتمتها: وأمره بعد ذلك بأمور يطول شرحها، فاقتصرنا على صدر الوصية، وقد جاء في مطلعها:

«إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله في البلاد، والعمل بطاعته في العباد، ويحذرك الحسرة والندامة، والفضيحة يوم القيامة، قبل حلول الموت، وعاقبة الفوت. . . إلخ»[(٢)].

ومن أمثلتها: وصايا ابن المقفع لابنه في رسالته الأدب الوجيز للولد الصغير ووصاياه في رسالة الصحابة التي وجهها إلى الخليفة المنصور، ووصايا الجاحظ في رسالة المعاد والمعاش، ووصايا الغزالي لتلميذه في رسالة أيها

---

(١) تأريخ بغداد: ابن طيفور ١٩، تأريخ الطبري: ٩/ ٥٨٢، جمهرة خطب العرب: ٣/ ١٣٤ـ ١٣٥.

(٢) تأريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٩٢ـ ٣٩٤.

الولد، وغيرها كثير لا يسعها مجال هذا البحث.

الاقتباس

ومن الخصائص الأسلوبية التي تميزت بها الوصايا في العصر العباسي، الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وتضمينهما في متن الوصايا... فقد كان منشئو الوصايا يوشحون وصاياهم بالآيات القرآنية، بما يناسب ظرف الوصية الخاص، وللتدليل على الفكرة التي يسوقونها في ثنايا وصاياهم مما يزيد في تأكيدها وتقريرها.

ولقد زخرت وصايا الخلفاء العباسيين بهذه الظاهرة الأسلوبية، ولعل ذلك يعود إلى أن القرآن الكريم كان رافداً مهماً من روافد ثقافتهم الإسلامية. ومثال ذلك ما ورد في وصايا الخلفاء، المنصور[١]، والمهدي[٢]، والرشيد[٣]، والمأمون[٤]، والمطيع لله[٥]، والطائع لله[٦]، والمسترشد بالله[٧]، والناصر لدين الله[٨].

وعلى سبيل الاستدلال، فقد جاء في وصية المنصور قوله:

«... **واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب العظيم، جاء ذلك في قوله:** ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾[٩].

وشكلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المقتبسة، المحور الرئيس للوصايا الوعظية والزهدية، وذلك للتدليل على أقوالهم، والتي سلكت طريق

---

(١) ينظر تأريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٩٢ـ ٣٩٤، تأريخ الطبري: ٩/ ١٠٥.
(٢) ينظر العقد الفريد: ٤/ ١٠٢.
(٣) ينظر المصدر نفسه: ٤/ ١٠٣ـ ١٠٤.
(٤) ينظر المصدر نفسه: ٤/ ١٠٤ـ ١٠٧.
(٥) ينظر صبح الأعشى: ١٠/ ٢٤٣ ـ ٢٤٦.
(٦) ينظر المصدر نفسه: ١٠/ ١٨ـ ٣٠.
(٧) ينظر المصدر نفسه: ١٠/ ٢٦٤ ـ ٢٧٥.
(٨) ينظر المصدر نفسه: ١٠/ ٢٨٦ ـ ٢٩١.
(٩) سورة المائدة: الآية ٣٣، وينظر تأريخ الطبري: ٩/ ١٠٥.

الإرشاد والتوجيه الديني، عندما كانت تحث الفرد والمجتمع على صالح الأعمال، وتحذر من الفواحش، وتدعو إلى الالتزام بأوامر الله تعالى وترك نواهيه، وكذلك لتأكيد أفكارهم وإعطائها الصفة الشرعية.

ومن أمثلتها ما جاء في وصية عبد الله بن عبد العزيز العمري، التي يعظ فيها الخليفة هارون الرشيد، والتي جاء فيها:

«يا أمير المؤمنين هذا داعي القرآن يسمعك يقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾[1]، فلا استقامة إلا عن طريق نجاة، فاحفظ وصية الله، وارجُ ثوابه، وخف عقابه، وتواضع له بحسن الاستماع من رعيتك»[2].

ومن الوصايا المضمنة للآيات القرآنية، تلك التي صهرها منشئها في ثنايا وصاياه ولم ينص على ذكرها، فتكون مناسبة لسياق الوصية وموضوعها، وتبدو وكأنها وحدة متلاحمة متماسكة. من ذلك ما ورد في وصية عبد الله بن العزيز العمري للخليفة الرشيد، والتي جاء فيها:

«فاحذر الموت وما بعد، وقلة انتفاعك بما أنت ناصب اليوم، وتزود له لما بعده الآن وأنت خالٍ قبل أن تأتي ولاتٍ حين مناصٍ، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾[3]. إنك إلى أجلك أسرع منك إلى أملك، ولا يغرينك المداحون بالزور و«قِ نفسك وأهلك ناراً وقودها الناس والحجارة»[4]، لا تولين قريباً لقرابته، ولا صديقاً لصداقته، ولا تحابيّن في دين الله عز وجل فيحاجك الدين غداً عند الله، إني لم آلك النصيحة وعليك شفقه، فانزل كلامي بمنزلة المداوي جرحه ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾»[5].

ووردت صيغ وتعابير قرآنية في ثنايا الوصايا الوعظية، منها على سبيل المثال، ما جاء في وصية الأوزاعي يعظ فيها الخليفة المنصور، بقوله:

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٦.

(٢) المصباح المضيء: عبد الرحمٰن ابن الجوزي ٢/ ١٦٤.

(٣) سورة سبأ: الآية ٥٢.

(٤) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، سورة التحريم: الآية ٦.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٨١، وينظر المصباح المضيء: ٢/ ١٦٦.

«... **يا أمير المؤمنين إنك قد ابتليت بأمر[١] لو عرض على السماوات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه، وأشفقن منه...**»[٢].

وورد اقتباس الآيات القرآنية في موضوعات الوصايا المختلفة، ومنها ما جاء في وصية بعض الحكماء، وذلك في قوله:

«**لا تطلب من صاحبك خلقاً واحداً وهو ذو طبائع أربع، فإن تكليف هذا خروج من العدل، ألا ترى أن الله سبحانه شوّق الجنة إلى خلقه بضروب متفاوتة، وأشياء متباينة، فقال عز وجل:** ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[٣]، **وقال جل جلاله:** ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾[٤]، **وقال:** ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾[٥]. **فوصف جل ثناؤه ضروباً مختلفة مما فيها ليميل كل فريق لما اشتهى منها**»[٦].

ومن الوصايا الأخرى المضمنة للآيات القرآنية، ما جاء في رسالة الخميس للمأمون[٧] وعهد طاهر بن الحسين[٨]، ووصية القاضي أبي يوسف للرشيد[٩]، ورسالة الأدب الوجيز للولد الصغير لابن المقفع[١٠]، ورسالة أيها الولد للغزالي[١١]، وغيرها من الوصايا الكثيرة مما لا يتسع له مجال البحث.

---

(١) في حلية الأولياء: ٦/ ١٣٨ بأمر عظيم.

(٢) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ سورة الأحزاب: الآية ٧٢. وينظر حلية الأولياء: ٦/ ١٣٨، المصباح المضيء: ٢/ ١٢٧.

(٣) سورة محمد: الآية ١٥.

(٤) سورة الرحمٰن: الآية ٦٨.

(٥) سورة الواقعة: الآيتان ٢٢ ـ ٢٣.

(٦) عين الأدب والسياسة: ٢٦٣.

(٧) عصر المأمون: ٣/ ٢٦ـ ٣٧.

(٨) تأريخ بغداد: ابن طيفور ٢٥ـ ٣٤، تأريخ الطبري: ٨/ ٥٨٢، جمهرة خطب العرب: ٣/ ١٣٤ـ ١٤٤.

(٩) كتاب الخراج: للقاضي أبي يوسف ٣ ـ ٦.

(١٠) ينظر الفكر التربوي: ١٨، ٢٢٣، ٢٣٨ـ ٢٣٩.

(١١) ينظر: ١٠٠، ١١٣، ١٢٣ـ ١٢٧.

كذلك تضمنت الوصايا شذرات رائعة من الأحاديث النبوية الشريفة، ساقها الموصي في ثنايا وصيته، للاستدلال على ما يقول، كما في وصية الفضل بن عياش للرشيد:

«يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك، فإن النبي ﷺ قال: «من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة»(١).

وكثر ورود الأحاديث النبوية الشريفة في الوصايا، ومنها ما جاء في وصية الأوزاعي للمنصور(٢)، وما جاء في وصايا الماوردي للوزير(٣)، وفي إحدى وصايا الرشيد(٤)، وفي وصية أيها الولد للغزالي(٥).

وخلاصة القول: فإن منشئي الوصايا كانوا يوشحون وصاياهم بتلك الحلل النفيسة والجواهر البديعة، من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، للتدليل على الفكرة التي يسوقونها في ثنايا وصاياهم، وذلك بما يتناسب وظرف الوصية الخاص... والأمثلة على ذلك كثيرة، اكتفينا بإيراد نماذج منها على سبيل الاستدلال.

التضمين

تميزت بعض الوصايا في العصر العباسي، بإدراج الأشعار والأمثال في ثناياها، وذلك حسب ما يقتضيه حال الخطاب. فقد يأتي بها المنشيء للتدليل على ما يسوقه من أفكار قد يأتي بها لهدف توضيحها وترسيخها في الذهن،

---

(١) ورد الحديث في مسند ابن حنبل: ٥/ ٢٥، بلفظ: «أيما راع استرعى رعية فغشها فهو في النار»، وينظر حلية الأولياء: ٨/ ١٠٧، المصباح المضيء: ٢/ ١٥٧، صفة الصفوة: ٢/ ١٢٧ـ ١٣٩.

(٢) ينظر عيون الأخبار: ٢/ ٣٣٨ـ ٣٤١، حلية الأولياء: ٦/ ١٣٦ـ ١٤٠.

(٣) أدب الوزير: ١٤٧ـ ١٦٣، نهاية الأرب: ٦/ ١٣٢ـ ١٤١.

(٤) العقد الفريد: ٤/ ١٠٣.

(٥) ينظر: ١٠٤، ١٠٥، ١١٣، ١١٤، ١١٥.

وغير ذلك من المقاصد التي توخاها المنشئون في وصاياهم. ومن أمثلتها ما جاء في وصية بعض الحكماء لابنه:

«يا بني، عليك بالترحيب والبشر، وإياك والتقطيب والكبر، فإن الأحرار أحب إليهم أن يلقوا بما يحبون ويحرموا، من أن يلقوا بما يكرهون ويعطوا. فانظر إلى خصلة غطت على مثل اللؤم فالزمها، وانظر إلى خصلة عفت على مثل الكرم فاجتنبها»[١].

وفي ختام وصيته يورد الموصي بعض الأبيات الشعرية الملائمة لتقوية معانيه وتعزيز قوله وتوكيده، يقول:

«أضاحكُ ضيفي قبل إنزال ر حله ويُخصب عندي والمَحل جَدِيب
وما الخِصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجهُ الكريم خَصيب»[٢]

وفي وصية بعض العلماء لابنه، يوردها الموصي على شكل فقرات متعاقبة، تنتهي كل منها بأبيات من الشعر في نفس المعنى، ومما جاء في أحد فقراتها، قوله:

«يا بني، خذ أمورك بالأناة وحسن التثبت، تسلم من عتاب الإخوان عند عواقبها، كما قال الشاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

يا بني، إذا ائتمنك أحد على أمانة فألهِ عن ذكرها حتى تسلمها مصونة إلى أهلها، ففي ذلك قال الشاعر:

وإذا اؤتمنت على الأمانة فارعها إن الكريم على الأمانة راعي»[٣]

ويعزز الماوردي فقرات وصاته للوزراء بالأبيات الشعرية المناسبة في نفس المعنى، فيقول:

---

(١) العقد الفريد: ٢/ ٣٥٤.
(٢) ذكر الموصي أن الشعر لحاتم الطائي، إلا أنه نسب في عيون الأخبار للخريمي: ٣/ ٢٣٩.
(٣) عين الأدب والسياسة: ٢٧٤.

«اقتصر من الأعوان بحسب حاجتك إليهم، ولا تستكثر منهم لتتكثر بهم، فلا يخلو الاستكثار من تنافر يقع به الخليل، أو تعاف يتشاكل به العمل، ليكن أعوانك وفق عملك، فإنه أنظم للشمل، وأجمع للعمل، وأبلغ للاجتهاد، وأبعث على النصح، أنشدت لابن الرومي:

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه ... يحول من الطعام إلى الشراب
فدع عنك الكثير فكم كثير ... يعاف وكم قليل مستطاب
وما اللجج الملاح بمرويات ... وتلقى الرّيّ في النُّطف العذاب»[(١)]

ولقد برع منشئو الوصايا في انتقاء الكلام المنظوم وملائمته مع سياق وصاياهم[(٢)]، مما أضفى عليها قيماً فنية تجلّت في روعة الانسجام الصوتي وتنويع الإيقاع.

ومن أكثر أنواع الوصايا التي زخرت بتضمين الأبيات الشعرية... الوصايا الوعظية، تلك التي وضعها منشئوها بهدف تعزيز أفكارهم، وإثارة عواطف المتلقي لها، وسرعة تأثيرها فيهم.

وازداد اهتمام الوعاظ في ترصيع وصاياهم بالأبيات المنظومة حتى أصبح من الملامح الواضحة للوعظ في القرن السادس الهجري، هدفهم من ذلك التأثير في المستمعين وتحريك عواطفهم[(٣)].

ويأتي ابن الجوزي في طليعة الوعاظ الذين اعتمدوا على الاستشهاد بالشعر في مؤلفاته الوعظية، سواء كانت من نظمه أو نظم غيره، وفي كتاب

---

(١) ديوان ابن الرومي: ١/٣١٣، أدب الوزير ١٤٦/١٤٧، ينظر أدب الدنيا والدين: الماوردي ٧٣، أحسن ما سمعت: الثعالبي ٤٠ـ ٤١.

(٢) ينظر الفاضل في صفة الأدب الكامل: ٨٨، العقد الفريد: ١/ ٨٢، ٢/ ٣٥٤، ٥/ ٨٦ـ ٨٧، مقامات بديع الزمان الهمذاني: ١١٢، نصيحة الملوك: ٦٥، أدب الدنيا والدين: ٢٥١، التطفل وحكايات الطفيليين: ٥٨، لباب الآداب ٣٦ـ ٣٧.

(٣) ينظر أثر الوعظ والوعاظ في بغداد في القرن السادس الهجري: ٣٨ـ ٣٩.

واحد من كتبه الوعظية (المدهش) نجد ما يقارب ثلاثة آلاف بيت من الشعر[١]، غرضه من ذلك تقوية المعنى وتأكيده وإثباته في الذهن، وهذا يتناسب وطبيعة وصاياه التي تتسم بالوعظ والتوجيه الديني.

ومن أمثلة وصايا ابن الجوزي الوعظية، تلك التي يدعو فيها محاسبة النفس ومعاتبتها وتبصرتها بالعودة إلى طريق الصلاح قائلاً:

«أيتها النفس اقلعي عن الجناح وتوبي، وارجعي إلى الصلاح وأوبي، أيتها النفس، قد شان شأن عيوبي، أيتها الجاهلة تكفيني ذنوبي»[٢].

ثم نراه يذيل وصيته بأبيات من الشعر في نفس المعنى، وهي أقرب إلى النظم منها إلى فنية الشعر، حيث يقول:

«يا ويح نفسي من تتابع حوبتي ... لو قد دعاني للحساب حسيبي
فاستيقظي يا نفس ويحك واحذري ... حذراً يهيج عبرتي ونحيبي
واستدركي ما فات منك وسابقي ... سطوات موت للنفوس طلوب»[٣]

وكذلك تضمنت بعض الوصايا الأمثال البليغة التي وافقت سياق الوصية الخاص[٤]، ومنها على سبيل المثال ما ورد في وصية الماوردي للوزير، يقول:

«حق عليك أيها الوزير أن تكون لأعوانك مختبراً ولأحوالهم متطلعاً، وبهما على نفسك وعليهم مستظهراً، لأنهم من بني من تسوسه وتستعن بهم لتعن ما فيهم من فضل ونقص، وعلم وجهل، وخير وشر، وتتحرز من غرور المشتبه وتدليس المتصنع، فتعطي كل واحد حقه ولا تقصر بذي فضل ولا تعتمد على ذي جهل، فقد قيل: «من الجهل صحبة ذوي الجهل، ومن المحال مجادلة ذوي المحال»[٥].

---

(١) ينظر أثر الوعظ والوعاظ في بغداد في القرن السادس الهجري: ٣٨ ـ ٣٩.
(٢) المدهش: ١٧٧.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) ينظر رسائل الجاحظ: ١/١٢٦، سياسة المنصور أبي جعفر الداخلية والخارجية: ٥٤٥، الحكمة الخالدة: ١٩٥.
(٥) أدب الوزير: ١٤٤، أدب الدنيا والدين: ٧٢، والمحال: أصحاب الجدال والمكر.

ومن الوصايا المضمنة للأمثال ما جاء في وصية ابن المقفع لولده التي يقول فيها:

«أي بني، إذا نقل إليك أحد عن صديق كلاماً مكروهاً تأذى خاطرك وتقسم ضميرك، وكان خلاف ما تتوقع، فاستهن بذلك الكلام، واعرض عن تلك الوشاية ولا تلتفت إليها، وقابل كلام الواشي والنمام بالتكذيب... فقد جاء في الأمثال: «إنما سبّك من بلّغك»[١].

وصفوة القول: أن تضمين الأشعار والأمثال في بعض وصايا هذا العصر، جاء ملائماً للمقام وظرف الوصية الخاص، فقد كان منشيء الوصية يجمع بين ديباجة النثر، وحلل الكلام المنظوم، في تناسق وانسجام، وهذا دليل على جمال الأداء والتفنن في التعبير.

ثانياً ــ الخصائص المعنوية:

حرارة العاطفة وصدق الإحساس:

جاء تعريف العاطفة في منظور الدراسات النفسية بأنها «مجموعة من الانفعالات تتجمع حول شيء من الأشياء»[٢].

أما الانفعال فهو «الوجدان الذي يهز النفس ويثيرها»[٣].

وتتصف العاطفة بالصدق والكذب تبعاً لتجربة المنشيء الشعورية وصدق معاناته أو افتعالها، لذلك فإن حرارة العاطفة وصدق الإحساس تتوضح من خلال تجربة المنشيء وعمق معاناته وقوة تأثيرها في نفوس متلقيها.

ولما كان منشيء الوصية يهدف إلى غايات تهذيبية أخلاقية، وأنه غالباً ما يتوجه بالتوصية بدافع تقوية العلاقات الإنسانية الحميمة مع المتلقي، لذلك نستطيع القول أن الدوافع التي دفعت منشيء الوصية هي دوافع طبيعية صادقة

---

(١) الفكر التربوي الأدب الوجيز للولد الصغير: ٢٤٠.
(٢) دراسات في علم النفس الأدبي: حامد عبد القادر ٥٢.
(٣) المصدر نفسه: ٥٤.

ليس فيها كذب أو مخاتلة، وأن التعبير عنها يدلل على صدق العاطفة وقوة الإحساس.

وتعبر عاطفة المنشيء عن أفكاره المنتزعة من حياته اليومية وبيئته المعاشة، وهي لذلك تعبر عن هذه الأفكار على بساطتها وصفاتها بأخيلة سهلة وصادقة ليس فيها مبالغة أو إغراب، لأنها تترجم عواطفهم وتصور أحاسيسهم بدقة وصدق، فليس هناك ما يدعو إلى تزييفها أو ادعائها، لأنها نابعة من أحاسيسهم وانفعالاتهم الصادقة... مثال ذلك ما جاء في وصية أبي جعفر المنصور للمهدي، فقد روي أن واضح مولى المنصور قال:

«إني لواقف على رأس أبي جعفر يوماً، إذ دخل عليه المهدي، وعليه قباء أسود جديد، فسلّم وجلس، ثم قام منصرفاً، واتبعه أبو جعفر بصره لحبه له وإعجابه به، فلما توسط الرواق عثر بسيفه، فتخرق سواده، فقام ومضى لوجهه غير مكترث لذلك ولا حافل به، فقال أبو جعفر: ردّوا أبا عبد الله، فرددناه إليه، فقال: يا أبا عبد الله استقلالاً للمواهب، أم بطراً للنعمة، أم قلة علم بموضع المصيبة؟ كأنك جاهل بما لك وعليك، وهذا الذي أنت فيه عطاء من الله، إن شكرته عليه زادك، وإن عرفت موضع البلاء منه فيه عافاك»[1].

وكلما كان الباعث للوصية مغلفاً بالسمو ومبطناً بالإخلاص، كان الصدق العاطفي في أعلى درجاته، فلا كذب ولا رياء أو تكلف وافتعال في العاطفة، لأن العاطفة الصادقة المفعمة بالإحساس هي التي لها تأثيرها في نفس المتلقي، وأصداؤها في وجدانه، مثال ذلك ما جاء في وصية زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة هارون الرشيد، لعلي بن عيسى بن ماهان قائد جيش الأمين، عندما أوصت بأخيه المأمون أثناء الصراع الذي نشب بين الأخوين، فقد دعته إلى الترفق في معاملته واحترامه إذا ما اقتيد أسيراً، وقد طفحت وصيتها بحرارة العاطفة وصدق الإحساس، فهي مشفقة على المأمون، منعطفة عليه إذا ما حدث له مكروه وأذى، ومما جاء في وصيتها، قولها:

---

(١) تأريخ الطبري: ٨/ ٧٥.

«يا علي، إن أمير المؤمنين، وإن كان ولدي، إليه تناهت شفقتي، وعليه تكامل حذري، فإني على عبد الله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى. . . فاعرف لعبد الله حق والده وإخوته، ولا تجبهه بالكلام، فإنك لست نظيراً له. ولا تقسره اقتسار العبيد، ولا ترهنه بقيد أو غل، ولا تمنع منه جارية ولا خادمة، ولا تعنف عليه في السير، ولا تساوره في المسير، ولا تركب قبله، ولا تستقبل على دابتك حتى تأخذ بركابه، وإن شتمك فاحتمل منه، وإن سفه عليك فلا تراده»(١).

ولعل المأمون أدرك حقيقة هذه المشاعر الصادقة، فعرف لها موقفها هذا، فجعل لها قصراً في دار الخلافة بعد وفاة زوجها وابنها وأقام لها الوصائف والخدم(٢).

والوصايا على ضربين في اعتمادها على العاطفة، أو خلوها منها، فغالباً ما تكون الوصايا التقريرية خالية من العاطفة لا تحرك خيال المتلقي، ولا تستطيع إثارة عواطفه، لأنها تعتمد على الأفكار في مخاطبة العقل، ولأنها خالية من أساليب المجاز، وهو يشمل قسم كبير من الوصايا، التي كانت فيها الأفكار واضحة تخاطب العقل كما في الوصايا التقريرية عندما يحاول المنشيء إيصال الحقائق بشكل مجرد خال من اللغة الانفعالية التي تعبر عن المواقف العاطفية، وما تثيره في ذهن المتلقي من إيحاءات.

أما الوصايا الأخرى فإنها تنبثق من الذات وتعبر عن معاناة صاحبها، وتحمل أفكاره الذهنية مشحونة بعواطفه، لذلك كانت تبلغ غايتها عندما تصل إلى ذهن المتلقي، وتتسرب إلى أعماق نفسه بأسلوبها الجميل المؤثر.

ومن الوصايا التي شحنت بصدق الإحساس وعمق الشعور وطفحت بكثير من الملامح الإنسانية الرائعة والمواقف الشعورية النبيلة، وصية أبي جعفر المنصور لولده المهدي، تلك التي دعا فيها إلى تقوية العلاقات الأسرية، والتي

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية: ٢١٤، جمهرة خطب العرب: ٣/ ١٠٤ـ ١٠٥.

(٢) ينظر النجوم الزاهرة ٢/ ٢١٣.

يقول فيها:

«وعليك بإكرام أهل بيتك، وإعظامهم، ولا سيما من استقامت طريقته وطهرت سيرته، وحسنت مودته فيهم، فإن أقرب الوسائل المودة، وأبعد الطيب البغضة...»[(١)].

وفي فقرة أخرى من الوصية يدعوه إلى حسن معاملة الرعية وتفقد أحوالهم، وذلك في قوله:

«... فتحبَّب إليهم بالإحسان جهدك، وثبت فيما يرد من أمورهم عليك، ووكل همومك بأمورك، وتفقد الصغير تفقدك الكبير...»[(٢)].

ولا ينسى المنصور توجيه ابنه بأن يحسن إلى نصحائه، حيث يقول:

«... وأحسن إلى نصحائك، واستدم مودتهم ومحبتهم بجميل التعهد إليهم، والتفقد لأمورهم...»[(٣)].

وتتوضح عاطفة المنصور مع ذوي القربى، حين يوصي ولده بتقديم أهل بيته والإحسان إليهم، وذلك في قوله:

«وأوصيك بأهل بيتك، أن تظهر كرامتهم وتفقدهم، وتكثر الإحسان إليهم، وتعظم أمرهم، وتوطيء الناس أعقابهم، وتوليهم المنابر، فإن عزك عزهم وذكرهم لك»[(٤)].

ولما كانت الوصايا تعتمد على المنطق في إنشائها، لأنها تتوجه إلى العقول؛ ولذلك ابتعدت عن الصور الوهمية أو التخيلية إلا ما ندر، فهي بذلك تقرب في تصورها للحياة والعلاقات الإنسانية والمثل الأخلاقية إلى الواقعية، وهذا لا يعني أنها خالية من العاطفة، أو أنها لم تستطع خلق الإيحاء المناسب

---

(١) سياسة المنصور أبي جعفر الداخلية والخارجية: ٥٤٥، مخطوط أنساب الأشراف ٤/ ٦ب.
(٢) المصدر نفسه..
(٣) المصدر نفسه.
(٤) تأريخ الطبري: ٨/ ١٠٣ـ ١٠٤، خلاصة الذهب المسبوك: ٦٤.

الذي يثير مشاعر المتلقي، فقد عبرت بعض الصور التي جاءت ضمن هذه الوصايا عن صدق التجربة وعمق المعاناة، واستطاعت تحريك خيال المتلقي والتأثير فيه عن طريق النضج الفني للوصية، وما تحمله من بعد نفسي يمتد إلى وجدان المتلقي ويؤثر فيه... ومثال ذلك ما جاء في وصية طاهر بن الحسين لابنه، تلك التي عبرت عن حقائق الحياة التي نفذ إليها من خلال ذاته بكل صدق وأمانة ونقلت تجاربه الذاتية التي عاشها على بساط الحياة... وبذلك استوعبت وصيته التجارب الإنسانية مع تجاربه الخاصة، والتجربة عمادها الأحاسيس والعواطف، لذلك عبرت وصيته عن أقباس وفيرة من المشاعر الإنسانية النبيلة، ومنها ما خص بها الفقراء والمساكين وذوي الحاجة، والتي جاءت في إحدى فقرات وصيته، نقتطف منها قوله:

«... وتعاهد أهل البيوتات ممن دخلت عليهم الحاجة، فاحتمل مؤونتهم، وأصلح حالهم، حتى لا يجدوا لخلتهم مساً، وافرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين، ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه، فاسأل عنه أحفى مسألة، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك، ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم، وتعاهد ذوي البأساء ويتاماهم وأراملهم، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين ـ أعزه الله ـ في العطف عليهم، والصلة لهم، ليصلح الله بذلك عيشهم، ويرزقك به بركة وزيادة، وأجْر للأضراء من بيت المال، وقدم حملة القرآن منهم، والحافظين لأكثره في الجراية على غيرهم، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تأويهم، وقواماً يرفقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، واسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال»[1].

وخلاصة القول: فإن التقريرية والمباشرة التي طبعت عدداً كبيراً من الوصايا، وسيطرة العقل على العاطفة، جعلت منشيء الوصية يتفنن في إنشاء

(١) تأريخ بغداد: ابن طيفور ٢٦ـ٢٧، تأريخ الطبري: ٩/ ٥٨٢، جمهرة خطب العرب: ٣/ ١٤٢.

وصيته، من حيث التجانس الصوتي، والإيقاع الداخلي، المتمثل في تقسيم الوزن إلى وحدات إيقاعية، وتلك أمور تستدر استجابة المتلقي للمعاني المنظومة والتأثر بها. أما القسم الآخر من الوصايا فقد حملت صوراً موحية عبرت عن صدق التجربة وعمق المعاناة، واستطاعت إثارة عواطف المتلقي وتحريك خياله لما تحمله من النضج الفني والبعد النفسي.

تسلسل الأفكار ودقّة تنظيمها

من السمات الأسلوبية للوصايا في العصر العباسي، البراعة في عرض الأفكار والدقة في تسلسلها، وتنظيمها، وحسن تقسيمها، ولا شك أن ذلك يرجع في بعض الوصايا إلى التروي في إنشائها، والتأنق في إعدادها، لتكفّل عدد من الكتّاب المشهورين بإنشاء الوصايا بأسلوبهم، وما عرفوا به من الفصاحة والبلاغة، والذي كان له أثر واضح في تسلسل الأفكار ودقة تنظيمها، واختيارهم للألفاظ المناسبة، والتراكيب المتينة، فطبعت وصاياهم بملامح وافرة من الإبداع والتفنن.

ومن أمثلتها ما جاء في وصية بشر بن المعتمر التي تضمنتها صحيفته، فقد حرص على تنظيم أفكاره، عندما توجه بوصيته إلى المتعلم، قائلاً له:

«خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك، وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهراً، وأشرف حسباً، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور...»[1].

وبعد أن فصّل القول في فضل ساعة راحة الفكر أخذ يحذر من التوعر، متخذاً من التفريع في المعاني طريقاً لتوضيح فكرته، وذلك في قوله:

«وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك...»[2].

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ١٣٥.
(٢) المصدر نفسه: ١/ ١٣٦.

ثم يسترسل في قوله موضحاً للمتعلم أهمية المعاني والألفاظ الكريمة وفضلهما، ويتابع قوله فيحسن القول في تقسيم كلامه عندما يوصي المتعلم بأن يكون في ثلاث منازل[١]، موضحاً له المنهج الذي يسلكه في كل واحدة منها.

بذلك يتجلى في وصية بشر بن المعتمر ذلك التسلسل البديع في الفكرة، والترابط الوثيق بين أجزائها، ولذا كانت أفكاره فيها مترابطة ملتحمة يكمل بعضها بعضاً.

ولما كان هدف الموصي هو التأثير في المتلقي، فقد وجب عليه الترتيب المنطقي لأفكاره، والسعي إلى بنائها بناء محكماً، من حيث تسلسلها بحيث يكون الجزء التالي مبنياً على سابقه، وتكون كل فكرة تخدم غرض الموضوع، خدمة دقيقة، وبذا يكون التسلسل جلياً واضحاً، يستطيع المتلقي تتبعه وصولاً إلى الوحدة الموضوعية للوصية... ومن أمثلتها ما جاء في وصية إبراهيم بن المدبر، تلك التي توجه بها إلى المتعلمين، والتي أجاد الدقة في تنظيمها، وحسن تقسيمها، ومما جاء في أحد فقراتها قوله:

«فتخيَّر بين الألفاظ أرجحها وزناً، وأجزلها معنى، وأليقها في مكانها، وأشكلها في موضعها، وليكن في صدر كتابك دليل واضح على مرادك، وافتتاح كلامك برهان شاهد على مقصدك، حيثما جريت فيه من فنون العلم، ونزعت نحوه من مذاهب الخطب والبلاغات فإن ذلك أجزل لمعناك، وأحسن لاتساق كلامك، ولا تطيلن صدر كلامك إطالة تخرجه من حده، ولا تقصر به عن حقه»[٢].

ولعل التزام الوصايا في العصر العباسي، بتسلسل الأفكار يرجع إلى جدية الموضوعات التي عالجتها، إذا استثنينا من ذلك وصايا البخلاء والطفيليين، وهذا يدعو منشيء الوصية إلى تأكيد أفكاره، وصحة ما يسوقه من خلال تنظيم هذه الأفكار وحسن تقسيمها، وارتباطها مع بعضها البعض على مستوى السياق،

---

(١) تنظر المنازل الثلاث في المصدر السابق.
(٢) الرسالة العذراء: ٢١ ـ ٢٢.

بحيث يكون ذلك منسجماً مع تتابع محاورها المتعددة باتجاه وحدة الموضوع، فعندما يكون هناك جانب واحد في التوصية، فإن الموصي يسعى إلى توجيه أفكاره صوب هذا الهدف ويرتبها بحسبه، وهو ما رأيناه فيما سبق في وصايا ابن المعتمر (ت ٢١٠هـ)، وابن المدبر (ت ٢٧٩هـ) الخاصة بالتعليم.

أما إذا اتسعت محاور الوصية وشملت جوانب متعددة، فإن منشيء الوصية يسعى إلى تنظيم أفكاره، ويعمل على تسلسلها وانسجامها، في محاورها المتعددة التي تصب في الوحدة الموضوعية للوصية، بحيث تكون وحدة متكاملة على مستوى السياق. ومن أمثلتها تلك التي عرضنا لها في الفصل الأول من هذه الدراسة كوصية أبي جعفر المنصور لولده، ووصية طاهر بن الحسين لولده، والتي اتخذت محاور متعددة شملت جوانب الحياة المختلفة، الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. وتمكن منشؤها من تحقيق الترابط الموضوعي لوصاياهم بحسن تنظيمها في فقراتها المتتابعة وصحة تقسيمها، وتأكيدها بما يسوقونه من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، أو الأمثال والأشعار والحكم، التي تعضد تلك الأفكار وتحققها، كذلك اتخذوا من أسلوب الإطناب في القول سبيلاً لتوضيح أفكارهم وتأكيدها ودقة صياغتها.

تشخيص الأفكار وتجسيدها

عرَّف البلاغيون التشخيص بأنه: «تصوير حقيقة الشيء حتى يتوهم أنه ذو صورة تشاهد وأنه مما يظهر في العيان»[١].

ويهدف منشيء الوصية من تشخيص أفكاره إلى التأثير في نفس المتلقي، وإثارة انفعاله المناسب عن طريق تشخيص المعاني المجردة في صور حسية يخيل للمتلقي أنها متحدة بها، متمثلة فيها[٢].

ويرى بعض المحدثين، أن الأشياء ترتفع في التشخيص إلى مرتبة

---

(١) التبيان في علم البيان: الزملكاني ١٧٨.
(٢) ينظر الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: د. مجيد عبد الحميد ناجي ٢١٨.

الإنسان، عندما تستعير صفاته ومشاعره، وهو الشكل الجديد المتطور للاستعارة المثلية لا التجسيدية، عندما تنتقل من الحسية الساكنة إلى الحسية الفاعلة المتحركة[١].

أما تعريف التجسيد فهو: «أن تكتسب المعنويات صفات محسوسة ومجسدة»[٢].

وعمد منشيء الوصية إلى اعتماد تشخيص الفكرة وتجسيدها، عندما جعل لأفكاره ومعانيه صوراً محسوسة تنبض بالحياة والحركة، ولها القدرة على التأثير في نفس المتلقي... وبذلك استطاع تعويض أسلوب المجاز الذي افتقده لاعتماده على الأسلوب الخطابي والتقريري.

ولعل أغلب الوصايا الوعظية قد اعتمدت على تشخيص الأفكار وتجسيدها، لأن هدفها خلق الصور الموحية التي تصور عقاب الله تعالى للخارجين عن طاعته، وما يلاقونه من العذاب في النار، وذلك عن طريق تهويل الأحداث والمبالغة في تصويرها بقصد التخويف والترهيب والردع، ومن أمثلة ذلك ما جاء في وصية الأوزاعي للمنصور التي تمثلنا بها والتي نثبت منها للتذكير قوله:

«يا أمير المؤمنين، ولو أن ثوباً من ثياب أهل النار عُلِّق بين السماء والأرض لآذاهم فكيف من يتقمَّصه!، ولو ذَنوباً...»[٣].

ومن الصور المجسدة تلك التي جاءت في وصية المنصور لولده المهدي، عندما دعاه إلى تخيل حاله في أثناء وقفته بين يدي الله تعالى في اليوم الآخر، مصوراً له هول ذاك الموقف وما عساه يفعل!:

«فكأني بك وقد أوقفت بين يدي الجبار، وخذلك الأنصار، وأسلمك الأعوان، وطوقتك الخطايا، وقرنت بك الذنوب، وحل بك الوجل، وقعد بك الفشل، وكلّت حجتك، وقلّت حيلتك، وأخذت منك الحقوق، واقتاد منك

---

(١) ينظر الصورة الفنية في شعر أبي تمام: د. عبد القادر الرباعي ١٦٩ـ ١٧٠.
(٢) الحركة الفكرية في فلسطين المحتلة: د. صالح أبو أصبع ٤٥.
(٣) عيون الأخبار: ٢/ ٣٣٨، العقد الفريد: ١/ ٣٠٥.

المخلوق، في يوم شديد هوله، عظيم كربه، تشخص فيه الأبصار لدى الحناجر، كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، فما عسيت أن يكون حالك يومئذ إذا خاصمك الخلق، واستقصى عليك الحق، إذ لا خاصة تنجيك، وقرابة تحميك، تطلب فيه التباعة، ولا تقبل فيه الشفاعة، ويعمل فيه العدل ويقضي فيه الفصل»[١].

ومن الصور المجسدة للموت وعذاب القبر، تلك التي جاءت في وصية المأمون التي ضمّتها إحدى خطبه، والتي يقول فيها:

«وهو الموت المكتوب عليكم... ولا يعين على جزعه وعلزه[٢] **وكربه، وعلى القبر وظلمته، وضيقه ووحشته، وهول مطلعه، ومسألة ملكيه، إلا العمل الصالح الذي أمر الله به، فمن زلت عند الموت قدمه، فقد ظهرت ندامته وفاتته استقالته»**[٣].

ومن الصور التي تشخص حال الإنسان في اليوم الآخر، ما جاء في وصية الرشيد التي تضمنتها إحدى خطبه، وفيها يقول:

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن في التقوى تكفير السيئات، وتضعيف الحسنات، وفوز بالجنة، ونجاة من النار، وأحذركم وما تشخص فيه الأبصار، وتبلى فيه الأسرار، يوم البعث، ويوم التلاق، ويوم التناد، يوم لا يستعتب من سيئة، ولا يزداد في حسنة، يوم الآزفة، إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، يعلم فيه خائنة الأعين وما تخفي الصدور، واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون»[٤].

وهنالك أمثلة أخرى[٥] ولكننا اكتفينا على ما تقدم منها على سبيل

---

(١) تأريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٩٢ ـ ٣٩٤.
(٢) العلز: ما يصيب المريض عند حشرجة الموت من رعدة واضطراب.
(٣) العقد الفريد: ٤/ ١٠٦، استقالته: وردت في بعض الأصول «استقامته».
(٤) المصدر نفسه: ٤/ ١٠٣.
(٥) ينظر المصدر نفسه: ٤/ ١٠١ـ ١٠٢، ١٠٤.

الاستدلال لا الحصر.

الإيقاع والتنغيم الصوتي

الإيقاع مأخوذ من «إيقاع اللحن والغناء، وهو أن يوقع الألحان ويبنيها، وسمى الخليل رحمه الله كتاباً من كتبه في ذلك المعنى، كتاب الإيقاع»[١].

وبهذه التسمية فإن الإيقاع يقرب من الناحية الصوتية من الموسيقى، وهو بذلك يعد «خاصية أساسية مشتركة في كل الفنون»[٢]، بل يتعدى الفنون ليشمل الأدب، عندما يتحقق فيه التعادل الصوتي من سجع وتوازن وازدواج[٣]، لذلك فإن الإيقاع هو «كل توازن صوتي كامل يتضمن في الوقت نفسه نظاماً خاصاً للأجزاء، وتساوياً لها وتوازياً من الناحية الصوتية الصرفة»[٤].

كذلك يقصد بالإيقاع «وحدة النغمة التي تتكرر على نحو ما في الكلام أو في البيت، أي توالي الحركات والسكنات على نحو منتظم في فقرتين أو أكثر من فقر الكلام أو أبيات القصيدة، وقد يتوافر الإيقاع في النثر»[٥].

ويرى بعض الباحثين أن للإيقاع أهمية كبيرة في النثر، لذلك أوجب أن يكون للنثر إيقاع، وعده جزءاً من التعبير النثري، لأنه يؤدي إلى التأكيد على المعنى وإبراز العواطف[٦].

وهذا يعني أن الإيقاع والتنغيم الصوتي، لا يقتصر على الشعر فقط، بل يتحلى النثر بأنواع منه كالسجع والازدواج. قال ابن سنان الخفاجي (ت ٤٩٦هـ): «فأما القوافي في الشعر فإنها تجري مجرى السجع»[٧] ويقول أيضاً:

---

(١) لسان العرب: ٨/٤٠٨.
(٢) الأسس الجمالية في النقد الأدبي: د. عز الدين إسماعيل ٢٢١.
(٣) ينظر المصدر نفسه: ٢٢١ـ ٢٢٣.
(٤) المصدر نفسه: ٢٢٨.
(٥) النقد الأدبي الحديث: د. محمد غنيمي هلال: ٤٦١.
(٦) ينظر في نقد النثر وأساليبه: إعداد وترجمة د. عصام الخطيب وتوفيق عزيز عبد الله ٩٣.
(٧) سر الفصاحة: ابن سنان الخفاجي ١٧١.

«ولا فرق بين الفواصل التي تتماثل حروفها في المقاطع بين السجع»[١].

ويرى اللسانيون بأن الإيقاع هو: «الإعادة المنتظمة داخل السلسلة المنطوقة لإحساسات سمعية متماثلة، تكونها مختلف العناصر النغمية»[٢].

وتتمتع الوصايا بمزية الإيقاع والتنغيم من خلال الانسجام الصوتي، والتعادل في تراكيبه التي يغلب عليها تقصير الفقرات، مما يعطي لانسجامها تأثيراً واضحاً يتلاءم مع جو المعنى الخاص، الذي يريد المنشيء التعبير عنه.

وتعد الأنغام والإيقاعات منبع الموسيقى الداخلية في النص، وتؤدي دورها الفاعل عندما تنسجم مع المعنى، وتعمل على النفاذ في أعماق المتلقي والتأثير فيه.

وبهذا لم نضع حداً فاصلاً بين التنغيم والإيقاع، فقد ترافق الأنغام الصوتية الإيقاع، أو تجتمع الأصوات المتناغمة مع الإيقاع، وفي كلتا الحالتين تتولد الموسيقى المتناغمة للنص، تلك التي تساعد على إطلاق الخيال، وتقود المعنى الذي ترافقه ليستقر في نفوس متلقيه.

أما أنواع الإيقاع والتنغيم فهي كثيرة ومتداخلة، إلا أننا سنتناول أبرزها، وهي:

أ ــ السجع:

ويسمى التسجيع، وهو: «تواطؤ الفاصلتين في النثر على حرف واحد»[٣]. وهو معنى قول السكاكي: هو في النثر كالقافية في الشعر[٤].

ويعد السجع من محسنات الكلام اللفظية، «والأصل فيه الاعتدال في المقاطع»[٥]، وقد قسمه ابن الأثير إلى قسمين، القصير: وعده نادراً، والقصر

(١) سر الفصاحة: ١٦٧.
(٢) أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث: توفيق الزيدي ٦٣.
(٣) المثل السائر: ١/ ٢٧٠.
(٤) التلخيص في علوم البلاغة: الخطيب القزويني ٣٩٧.
(٥) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٢/ ٣٤٨.

عنده لفظتان لفظتان حتى العشرة، وما زاد عن ذلك فهو طويل[١].

واعتمدت بعض الوصايا في تكوين جملها على السجع، فكان أساساً في بنائها. وشاع القصير منها في الوصايا، وهو المعمول عليه في إحداث الإيقاع والتنغيم. وقد سماه الباقلاني: السجع المتقارب الفواصل المتداني المقاطع[٢]، وهو عند شهاب الدين الحلبي يدل على قوة التمكن وإحكام الصنعة[٣].

ولعل تأثيره في أحداث الإيقاع والتنغيم الصوتي، يأتي من خلال تكرار الكلمات المسجوعة في وقت قصير من الكلام، وبذلك يؤدي إلى إحداث النغم المتتابع، على عكس السجع الطويل، الذي يفقد عذوبته وتأثيره، لتباعد السجعات بسبب طول الجمل، فلا يتحقق اتصال السجعة الثانية في الأولى فتفقد عذوبتها ورونقها.

ووردت هذه الحلية الجميلة متناثرة في عدد كبير من الوصايا، وكانت موزعة توزيعاً ظاهراً في وصايا الوعاظ والنساك والمتصوفة على وجه الخصوص، حتى عدت لوناً مهماً من ألوان الموسيقى اللفظية التي اعتمدوها في أساليبهم، لما تضفي عليها من رونق وبهاء.

ومن أنواع الأسجاع التي وردت في الوصايا «الترصيع» وهو: «أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان متفقة الأعجاز»[٤].

ومن السجع المرصع المتتابع، ما جاء في وصية أحد الحكماء لصديق له يريد سفراً، يقول فيها:

«وليكن عقلك دون دينك، وقولك دون فعلك، ولباسك دون قدرك»[٥].

---

(١) المثل السائر: ابن الأثير ١/ ٣٣٦ـ ٣٣٧.
(٢) إعجاز القرآن: الباقلاني ٥٩.
(٣) حسن التوسل إلى صناعة الترسل: شهاب الدين الحلبي ٢١٣.
(٤) المصدر نفسه: ٢٠٧، التلخيص في علوم البلاغة: ٣٩٨.
(٥) زهر الآداب: ٢/ ٩٩، شرح مقامات الحريري: ١/ ١٦٧.

فهذه الجمل القصيرة المرصعة المتتابعة تحدث إيقاعاً سريعاً ومنظماً، لها تأثيرها الكبير على المتلقي. ومثلها ما جاء في وصية حكيم آخر لملك قال فيها:

«... فاعرض عن السعادة وعدّهم من جملة العداة، لأنهم يفسدون دينك، ويزيلون يقينك، وينقضون عهدك، ونيتك، ويحنقون خدمك ورعيتك»[1].

وكثر الترصيع في وصايا النساك والمتصوفة، ومنها ما جاء في الإشارات الإلٰهية لأبي حيان التوحيدي، وكان على شكل فقرات قصيرة متتالية، نقتطف منها ما يأتي:

«أيها الحيران في سعيه، والسكران في رعيه، والمتغافل في حظه، والمتجاهل بين لحظه ولفظه، والمتكاسل في خدمة ربه، والمتحامل على حبه بحبه»[2].

ومن السجع المرصع ما تكرر لفظتان لفظتان، كما في وصية ابن الجوزي التي يقول فيها:

«أيها المشغول باللذات الفانيات، متى تستعد لملمات الممات؟ متى تستدرك هفوات الفوات؟!»[3].

وأمثلة السجع المرصع كثيرة متناثرة في الوصايا، واستعمالها غير متكلف، وغير مقصود، فالمعنى هو الذي يسوق إليه، إلا أن استعماله أخذ يزداد كلما تقدم الزمن «حتى رجحت كفة السجع وأصبح غالباً على الأساليب في القرن الرابع الهجري، وصفة لازمة يقصد إليها لتجميل العبارة، وزخرفة المقاطع والفواصل»[4].

---

(١) لباب الآداب: ٦٣.
(٢) الإشارات الإلٰهية: أبو حيان التوحيدي ١٤٣.
(٣) المدهش: ٢٠٧.
(٤) بلاغة الكتاب في العصر العباسي: ١٧١ ـ ١٧٢.

ومن أنواع السجع «المتوازي» وهو: «أن يراعى في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين، الوزن مع اتفاق الحرف الأخير منهما»[١]. وقد حفل به عدد كبير من الوصايا، وما نسوقه في تمثيلنا له على سبيل الاستدلال، ومنه ما جاء في وصية جعفر الصادق لابنه موسى الكاظم (عليهما السلام)، يقول:

«يا بني، كن لكتاب الله تالياً، وللإسلام فاشياً، وبالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً، ولمن قطعك واصلاً، ولمن سكت عنك مبتدئاً، ولمن سألك معطياً. . .»[٢].

ومنه أيضاً ما جاء في وصية الخليفة المهدي لولده موسى الهادي، حيث قال:

«. . . يجدد حبل الإسلام بدعواهم، ويشيد أركان الدين بنصرتهم، ويتخذ لأولياء دينه أنصاراً، وعلى إقامة عدله أعواناً»[٣].

وفي الوصايا المسجوعة كثير من هذه الحلية الجميلة، التي تمتاز «بجمال الموسيقى، وتمام المماثلة بين الفواصل، من غير قيود أخرى تؤود الكاتب وتثقل الأساليب، ومن هنا كان أمره أسهل في التناول من الترصيع»[٤].

ومن أنواع السجع «المطرف»، وهو: «أقل الأنواع قيوداً، وبالتالي أكثرها ذيوعاً»[٥] في الوصايا، وهو: «أن يراعى الحرف الأخير في كلتا قرينيه من غير مراعاة الوزن»[٦]، ومنه ما جاء في وصية طاهر بن الحسين لابنه، يقول:

«واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت في الخزائن لا تثمر، وإذا كانت في إصلاح الرعية وإعطاء حقوقهم وكف المئونة عنهم نمت، وزكت، وصلحت

---

(١) حسن التوسل إلى صناعة الترسل: ٢٠٧، التلخيص في علوم البلاغة: ٣٩٨ـ ٣٩٩.
(٢) حلية الأولياء: ٣/ ١٩٥.
(٣) العقد الفريد: ١/ ٥٧.
(٤) بلاغة الكتاب في العصر العباسي: ١٦٤.
(٥) ينظر المصدر نفسه: ١٦٥.
(٦) حسن التوسل إلى صناعة الترسل: ٢٠٩، التلخيص في علوم البلاغة: ٣٩٨.

به العامة. . . ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم، وأوف رعيتك من ذلك حصصهم، وتعهد ما يصلح أمورهم ومعايشهم»[١].

ووردت الأسجاع بأنواعها في وصايا النساك والمتصوفة ومن أمثلتها السجع المطرف، الذي جاء في وصية أبي حيان التوحيدي، والذي جاء فيها:

«يا هذا! عليك بطلب الجنة، حتى تعانق فيها الحور العين، وتسقى بكأس من معين، وتستخدم الولدان المخلدين، وعليك بالهرب من النار الموقدة التي لا طاقة بك عليها، ولا نعمة لك معها»[٢].

وخلاصة القول: إن منشيء الوصية عمد إلى استخدام السجع لكونه أحد الوسائل الصوتية، التي تحقق التناغم والتساوق الموسيقي، المتأتي من الإيقاع الواحد في النص، مما يسترعي انتباه المتلقي لمعاني العبارات المتوازنة المسجوعة فيصيخ السمع إليها.

ب ــ التوازن:

وهو: «مراعاة الوزن في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين مع اختلاف الحرف الأخير»[٣].

ويعرف أيضاً بالازدواج، وقد تنبه البلاغيون إلى قيمته الفنية، وأهميته في بناء التعبير القائم على التنغيم والإيقاع الصوتي. قال أبو هلال العسكري:

«لا يحسن منثور الكلام ويحلو حتى يكون مزدوجاً، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج»[٤].

وفي فضل الازدواج نراه يقول:

---

(١) تأريخ بغداد: ابن طيفور ٢٣، تأريخ الطبري: ٩/ ٥٨٠، جمهرة خطب العرب: ٣/ ١٣٨.
(٢) الإشارات الإلهية: ١٨٩.
(٣) حسن التوسل إلى صناعة الترسل: ٢٠٩ ـ ٢١٠، التلخيص في علوم البلاغة: ٤٠٤.
(٤) الصناعتين: ٢٨٥.

«والذي ينبغي أن يستعمل في هذا الباب ولا بد منه: الازدواج»[١].

وأما إذا زينت بحلية السجع الذي يتأتى دون تعمّل أو استكراه، فهو يرى أنه:

«يؤذن بفضيلة التسجيع على شرط البراءة من التكلف والخلو من التعسف»[٢].

ويتابع قوله فيذكر بأن: «هذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع»[٣].

ويؤدي التوازن إلى التعادل الصوتي بين الجمل والتراكيب، مما يضفي على الوصية ألواناً من التنغيم والإيقاع الموسيقي، فتحفل بجمال الأداء وروعة التعبير. ومن أمثلتها ما جاء في وصية أبي جعفر المنصور لحاجبه الخصيب، حيث رأيناه يقول:

«إنك بولايتي عظيم القدر، وبحجابتي عريق الجاه»[٤].

ومما جاء في وصية الخليفة المهدي للربيع بن الجهم بأسلوب التوازن قوله:

«يا ربيع، آثر الحق، والزم القصد، وارفق بالرعية. . .»[٥].

وقوله في وصية أخرى لولده الهادي:

«أي بنيّ، إنك قد أصبحت لسمت[٦] وجوه العامة نصباً[٧]، ولمثنى[٨]

---

(١) الصناعتين: ٢٨٨.
(٢) ينظر المصدر نفسه: ٢٨٦.
(٣) ينظر المصدر نفسه: ٢٨٨.
(٤) محاضرات الأدباء: ١/ ٨٨.
(٥) العقد الفريد: ١/ ٣٣.
(٦) السمت: الطريق، وهيئة أهل الخير، القاموس المحيط: ١/ ١٥٠.
(٧) نصباً: الكد والجهد، المصدر نفسه: ١/ ١٣٢.
(٨) مثنى: ثنى كسعى، انعطف، المصدر نفسه: ٤/ ٣٠٩، ومثنى الرعية: الاستثناء.

أعطاف[١] الرعية غاية»[٢].

وتتعادل الجمل بأسلوب التوازن في وصية هارون الرشيد، التي يقول فيها:

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن في التقوى تكفير السيئات، وتضعيف الحسنات، وفوز بالجنة، ونجاة من النار. . .»[٣].

ومن العبارات المتوازنة في وصية المأمون قوله:

«فمن نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى يومئذ فقد خاب»[٤].

وخلاصة القول: فإن منشيء الوصية يلجأ إلى السجع بأنواعه، كما يلجأ إلى التوازن أو الازدواج، فيحقق قسطاً وافراً من الإيقاع، والتنغيم الصوتي لوصاياه، مما يزيد في روعتها وجمال صياغتها، وغايته من ذلك خلق أجواء موسيقية تهش لها النفوس، وتصيخ لها الآذان، فيأتي أُكلها من الإثارة والتأثير.

جـ ـ الترادف:

ويطلق على الألفاظ التي يتحد فيها المسمى، وتختلف أسماؤه، ويستفيد منها مؤلف الكلام للعدول من لفظ إلى غيره، عندما يضيق به موضع الكلام[٥].

وتُبرز ظاهرة الترادف في الوصايا جانب الثراء اللغوي الذي يتمتع به منشيء الوصية وقدرته على إيراد الألفاظ المترادفة لتلافي عملية تكرارها. . . ولا يخفى ما لهذه العلاقة بين أصوات هذه الألفاظ، وما يمكن إثارته من متعة في تذوق انسجامها، عندما يكون اتصالها بالكلمات الأخرى اتصالاً إيقاعياً، يؤدي إلى الغاية المطلوبة[٦]، وهو التأثير في نفس المتلقي.

---

(١) عطف: أشفق، المصدر نفسه: ٣/١٧٦.
(٢) العقد الفريد: ١/٥٧.
(٣) المصدر نفسه: ٤/١٠٣.
(٤) المصدر نفسه: ٤/١٠٦.
(٥) ينظر أدب الحكمة في عصر صدر الإسلام: محمد سعيد الجبوري ٢١٤، رسالة ماجستير، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: ٥٣.
(٦) ينظر الأسس الجمالية للنقد العربي: د. عز الدين إسماعيل ٣٤٨.

ولما كانت الوصايا تنطلق من تجارب المنشيء ومعاناته الفردية التي يريد صاحبها تعميمها لخدمة الإنسانية. . . جاءت المترادفات في الوصايا، ولكنها تختلف في إيرادها من منشيء لآخر، حسب التجارب، أو قلتها وذلك لأن: «الشخص ذا الحياة الواسعة الغنية بالأحداث والتجارب، يكون أغنى من غيره بألفاظه، والشاعر هو الذي يستطيع أن يستخرج من اللفظة المعينة عدداً من المعاني والمشاعر، يعجز عن استخراجه سائر الناس»[١]، لذلك نستطيع القول بأن تجارب المنشيء الفردية الخاصة، أو التجارب الإنسانية التي نقلها لنا في وصاياه، هي التي أكسبته امتلاك تلك الثروة من الألفاظ، والتي استطاع توظيفها في مكانها المناسب في الوصية.

ويعطي الترادف الإيقاع المناسب في النص النثري مصاحباً للتناغم الصوتي، وقد كثر استعماله على لسان الوعاظ والزهاد والمتصوفة، وذلك لإثارة المتلقي والتأثير في نفسه، وتلافي عملية تكرار الألفاظ نفسها حتى لا يمل المتلقي أو ينفر منها.

ولعل لجوء الموصين إلى الترادف، يرجع إلى طبيعة الوصايا التي تتسم بالجدية، تلك التي تتخذ من جوانب الحياة محاور لها، أو التي دارت ألفاظها لتدلل على معانيها، فاختصت بها، وفي ذلك يقول عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ أو ٤٧٤هـ): «أن لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخص وأولى، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى»[٢]، لذلك كثرت المترادفات في الوصايا ذات الطابع الوعظي، لأنها اتصلت بألفاظ البعث والنشور، والجنة والنار، والعقاب والثواب، والدنيا والآخرة. . . إلخ.

ولذلك لجأ منشئو الوصية إلى المترادفات، حتى لا يضطر إلى تكرار ألفاظ بعينها، على الرغم من وجود الفروق بينها، لأن من «عجب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد وكلاهما حسن في الاستعمال، وهما على

(١) أدب الحكمة في عصر صدر الإسلام: ٢١٦.
(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: الرسالة الشافية عبد القاهر الجرجاني ١٠٧.

وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بينهما في مواضع السبك، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه وجل نظره»[١].

والفروق بين المترادفات متباينة، فقد «يُظَنُّ في كثير من الأسماء أنها مترادفة، وهي في الحقيقة متباينة»[٢]. . . والمنشيء المتمكن من لغته وطريقة استخدام ألفاظه، هو الذي يستطيع وضع الكلمة المرادفة المناسبة في مكانها المناسب، لأن «من الصعوبة بمكان أن نجد كلمتين مترادفتين ترادفاً تاماً، بحيث يمكن إجراء التبادل بينهما في جميع السياقات اللغوية»[٣].

ومن ذلك نستدل على أن إيراد الترادف في الوصايا يدلل على مقدرة المنشيء اللغوية، ومهارته في استخدام الألفاظ المترادفة، التي جمعها من خزين تجاربه الذاتية أو تجارب الآخرين.

ويعطي الترادف إيقاعاً موسيقياً عندما يرد متتابعه، كما جاء في وصية أبي جعفر المنصور لولده المهدي، حيث يقول:

«. . . فالسلطان يا بني حبل الله المتين، وعروته الوثقى، ودين الله القيم، فاحفظه وحطه، وحصنه وذب عنه، وأوقع بالملحدين فيه، واقمع المارقين منه، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمثلات بهم»[٤].

ويكثر بشر بن المعتمر في وصيته من المترادفات المتتابعة، لتوضيح فكرته من جهة، ولبعث التنغيم والإيقاع الصوتي من جهة أخرى، فهو مثلاً يقول:

«فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك، ولا تسمح لك عند أول نظرك، وفي أول تكلفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها، ولم تصر إلى

(١) المثل السائر: ١/ ٢١١.
(٢) الفلك الدائر على المثل السائر: ابن أبي حديد ٤٤.
(٣) البلاغة والأسلوبية: د. محمد عبد المطلب ٢٢٢.
(٤) تأريخ الطبري: ٨/ ١٠٥ـ١٠٦.

قرارها، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها، ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقلة في مكانها، نافرة من موضعها، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها...»[١].

ومن المترادفات المتتالية، تلك التي جاءت في وصية طاهر بن الحسين لابنه، والتي من شأنها أن تحدث ذلك التأثير الصوتي الباعث على التنغيم، ومنها ما جاء في قوله:

«وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه الرعية، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة، ولأهله سعة ومنعة، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً، ولأهل الكفر من معاديهم ذلاً وصغاراً، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه»[٢].

والأمثلة على ورود الألفاظ المترادفة في الوصايا كثيرة، وإن تمثيلنا لها على سبيل الاستدلال لا الحصر.

د ــ الجناس:

جاء تعريف الجناس عند البلاغيين، هو: استخدام كلمتين متفقتين أو متقاربتين في اللفظ، مختلفتين في المعنى[٣].

ويدعى كذلك: التجنيس، وأجمعت المصادر على أن المراد به: «اتفاق الألفاظ مع الحروف، أو في بعضها وإن اختلفوا في قيمته، على أن جوهر التجنيس أساساً يقوم على هذا الاشتراك اللفظي، فالتجنيس إذن ضرب من ضروب التكرار، ونسلكه فيما يراد بالتكرار من تقوية نغمية لجرس الألفاظ»[٤]. لذلك نستطيع القول بأن الجناس من الوسائل التي تبعث على الإيقاع والتنغيم

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ١٣٧ـ ١٣٨.

(٢) تأريخ بغداد: ابن طيفور ٢٥، تأريخ الطبري: ٩/ ٥٨١، جمهرة خطب العرب: ٣/ ١٣٤.

(٣) ينظر الصناعتين: ٣٢١، العمدة: ١/ ٣٢١، حسن التوسل إلى صناعة الترسل: ١٨٤، الإيضاح: ٢/ ٥٣٥، التلخيص في علوم البلاغة: ٣٨٨.

(٤) جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي: ماهر مهدي هلال ٣٢٤، أطروحة دكتوراه.

الصوتي، لتشابه الأصوات في الألفاظ المتجانسة، عند تكرار حروف معينة بترتيب معين، وهو يشبه إلى حد كبير اللازمة الموسيقية عند تكرارها في لحن معين.

والأمثلة على ورود الجناس في الوصايا كثيرة، فقد طبعت به الأساليب منذ القرن الرابع الهجري، حيث التوجه إلى استعمال السجع وألوان البديع، ومنه الجناس، فقد ورد كثيراً في الوصايا التي نقلها لنا القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، ومنها ما ورد في وصية جامعة لأحد القضاة، يقول فيها:

«وغير هؤلاء لم تجر له بالشهادة عادة، ولا تصدى للارتزاق بسحتها، ومات وهي حيّ على الشهادة»[١].

ويعد الجناس من ألوان البديع التي تبعث على وحدة الجرس الصوتي، والتي توضحها الأمثلة الكثيرة التي وردت في الوصايا الوعظية والصوفية، لتحقيق التأثير المطلوب في نفوس المتلقين، ومن أمثلتها ما جاء في وصية ابن الجوزي الوعظية، والتي يقول فيها:

«إخواني، بادروا آجالكم، وحاذروا آمالكم، أما لكم عبرة فيمن مضى؟ أما لكم، ما هذا الغرور الذي قد أمالكم، ستتركون على رغم آمالكم مالكم!»[٢].

ويبرز الجناس في وصايا الصوفية لتحقيق التناغم الصوتي، بهدف إحداث التأثير المطلوب، ومنه ما جاء في وصية أبي حيان التوحيدي معانقاً حلية السجع حيث يقول:

«إياك ولو، فإنها مزلقة، وإياك ولعل، فإنها مغلقة، وإياك والتمني، فإنه مقلقة، وإياك والهوى، فإنه مَلعقة، وإياك والتُّهمة، فإنها مَفرقة، وعليك بالفكر الصحيح، والرأي الصريح، والصاحب النصيح، فإنك بهذا وأشباهه تنعم سراً وجهراً، وتملك بطناً وظهراً»[٣].

---

(١) صبح الأعشى: ١١/١٩٦.
(٢) المدهش: ٢٩٢.
(٣) الإشارات الإلٰهية: ١٢٥.

وزينت حلية الجناس المقامة التي كان هدفها الوصية، لتضفي عليها الإيقاع الموسيقي الذي تأتى من تكرار الحروف في الألفاظ المتجانسة، ومما جاء فيها:

«ولست آمن عليك النفس وسلطانها، والشهوة وشيطانها، فاستعن عليهما نهارك بالصوم، وليلك بالنوم، إنه لبؤس ظهارته الجوع وبطانته الهجوع»[١].

هـ ــ المقابلة والتضاد:

جاء في تعريف المقابلة، هو: «أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثم يقابل ذلك على الترتيب، والمراد بالتوافق خلاف التقابل»[٢].

أما المقصود بالتضاد فهو: أحد أنواع البديع المتعلق بالجانب المعنوي، في تحسين الكلام بعد مراعاته لمقتضى الحال مع وضوح الدلالة[٣].

ويعد التضاد أحد التراكيب البارزة في الوصايا، وقد جاءت بصيغة «الجمع بين المتضادين مع مراعاة التقابل»[٤].

والمقابلة والتضاد من الفنون التي حواها تكرار الصيغة بألفاظ مختلفة، وهما من أكثر فنون البديع وضوحاً وانتشاراً في الوصايا بشكل عام، مما يدلل على امتلاك منشيء الوصية ثروة لغوية كبيرة، اختزنها من تجاربه الكثيرة في الحياة، تلك التي مكنته من وضع الكلمة موضعها الصحيح، أمام ما يقابلها من معادن متضادة، وهو بذلك يعبر عن استيعابه العميق لمعاني تلك الألفاظ على مستوى السياق.

وتبدو المعاني المتقابلة والمتضادة، أكثر وضوحاً عند اجتماعهما في سياق واحد، وهو ما نلاحظه في التراكيب التي بنيت على التضاد، مما يصعب حصرها لكثرتها، ومن أمثلتها ما جاء في وصية المأمون نقتطف منها، قوله:

---

(١) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ٢٠٤.
(٢) التلخيص في علوم البلاغة: ٣٥٢.
(٣) ينظر مفتاح العلوم: ٢١٣، الإيضاح: ٢/ ٤٧٧.
(٤) التلخيص في علوم البلاغة: ٣٤٨، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٢/ ٢٥٢.

«. . . فوالله أنه الجد لا اللعب، والحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب والسِّراط والقِصاص والثواب والعقاب، فمن نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى يومئذ فقد خاب، الخير كله في الجنة، والشر كله في النار»[١].

إن التضاد في هذه الوصية جعل المعاني واضحة، فهو يشعر بالفارق ويفسح المجال للخيال، فيكسب التعبير بعداً فنياً واضحاً.

ويمثل التضاد في المتناقضات لدى منشيء الوصية حالة صراع المشاعر التي يعيشها والتي تعكس طبيعة حالته النفسية الرافضة لنوازع الشر، والداعية لتركها، فيدعو لعناصر الخير محبباً لها، وعناصر الشر مجنباً إياها، فمن يريد شيئاً لا بد أن يترك ما يضاده.

ويأتي التضاد في وصية بعض العلماء لابنه ليفيد معنى النصح والإرشاد، فهو يحث ولده على الصدق، ويدعوه إلى ترك ما يضاده، حيث نراه يقول:

«يا بني، عليك بالصدق، فإنه زين في الدنيا، ونجاة في الآخرة، وصدق يعطب صاحبه خير من كذب ينجو به كاذبه»[٢].

وفي فقرة أخرى ينصحه بقوله:

«وكن يا بني أحسن ما تكون في الظاهر حالاً، أقل ما تكون في الباطن مآلاً»[٣].

وكثرت المقابلة والتضاد، وكانت ظاهرة أسلوبية متميزة في الوصايا الوعظية، وهي ظاهرة لا يتكلفها المنشيء، ولكن اقتضتها طبيعة الصراع بين الشيء وضده، بين الجنة والنار، والحياة والموت، الخير والشر، الخوف والرجاء. . . ومن الطبيعي أن يظهر التضاد في وصايا الوعاظ؛ لأنها تدعو إلى

(١) العقد الفريد: ١/١٠٦.
(٢) عين الأدب والسياسة: ٢٧٦.
(٣) المصدر نفسه: ٢٧٣.

الخير وترك ما يضاد، مما يدخل في معنى النصح والتوجيه. ومن أمثلته ما جاء في وصية ابن الجوزي، قوله:

«إخواني، صدقتم الأمل فكذبكم، وأطعتم الهوى فعذبكم، أما أنذركم السقم بعد الصحة، والترحة بعد الفرحة. . .»[١].

وكذلك قوله:

«إخواني، جدوا فقد سبقتم، واستعدوا فقد لحقتم»[٢].

وقوله:

«واحذروا دنياكم، فما هي مواتية، واذكروا أخراكم، فما هي آتية»[٣].

فقد ورد التضاد في: الصدق والكذب، السقم والصحة، الترحة والفرحة، سبقتم ولحقتم، دنياكم وأخراكم. فهو ـ كما نراه ـ قد أضفى على الوصية بعداً فنياً عن طريق استغلال إمكانات اللغة، فبدا السياق وكأنه في حركة متموجة، مما ساعد على التنغيم والإيقاع الصوتي.

وللمطابقة والتضاد صيغ أخرى تعبر عنها، ومن أشكالها:

١ ــ صيغة العطف:

وهي من الصيغ التي تفيد التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه، ومن الحروف العاطفة التي تفيد هذا القدر فحسب (الواو). . . وتستخدم صيغة العطف بالواو عندما يكون معنى إحدى الجملتين لذاته متعلقاً بمعنى الأخرى، كما إذا كانت للتوكيد لها[٤].

فالمطابقة تحصل عندئذٍ بين الجزئين، إن الفقرة الثانية تكون معطوفة على ما قبلها، وهذا يساعد على إحداث الانسجام الصوتي المتناغم، مما يكون له تأثيره على مسامع المتلقي، وهناك أمثلة كثيرة على المطابقة بصيغة العطف،

---

(١) المدهش: ٢٩٢.
(٢) المصدر نفسه: ٢٨٧.
(٣) المصدر نفسه: ٣٣٥.
(٤) ينظر حسن التوسل إلى صناعة الترسل: ١٥٨ـ ١٥٩، التلخيص في علوم البلاغة: ١٧٥.

ومنها ما جاء في وصية أعرابي للعتابي وقد طلب منه التوصية، فقال له:

«إتخذْ من إنْ نطق فعن فكرك يستملي، وإن هجع فبخيالك يحلم، وإن انتبه فبك يلوذ، وإن احتجت إليه كفاك، وإن غبت عنه ابتداك»[١].

وصيغة العطف من «أكثر أشكال المطابقة شيوعاً، لأن هذه الصيغة أكثر الصيغ النحوية تصريحاً للثنائية، فالحروف العاطفة تشبه مركز عتلة الميزان الذي يفصل بين الكفتين»[٢].

٢ ــ جملة الشرط:

جملة الشرط من التراكيب النحوية ذات الجزئين، الشرط وجوابه، وهما يرتبطان ببعضهما، لأن حصول الجزء الأول من الجملة مرتبط بحصول الثاني، مما يؤدي إلى التطابق. أن تكرار هذه الصيغة في الجمل المتتابعة يخلق نوعاً من الانسجام الصوتي؛ الذي يساعد على التنغيم والإيقاع الموسيقي للنص، ووجدت هذه الصيغة في عدد من الوصايا، ومنها ما جاء في وصية أحد الحكماء لأحد الملوك:

«إذا عقدت فاحكم، وإذا دبرت فابرم، وإذا قلت فاصدق، وإذا فعلت فارفق»[٣].

إن توالي الجمل الشرطية المتتابعة والمتسارعة في فقرات الوصية، من شأنه إحداث الإيقاع والتنغيم الصوتي، كما ورد في وصية علقمة بن لبيد العطاردي لابنه، فهو يوجهه بقوله:

«يا بني إذا نزعتك إلى صحبة الرجال حاجة، فاصحب منهم من إن صحبته زانك، وإن خدمته صانك، وإن أصابتك خصاصة[٤] مانك[٥]، وإذا قلت صدق قولك، وإن صلت شَدَّ صولتك، وإن سألته أعطاك، وإن سَكتَ عنه

---

(١) الصداقة والصديق: ٢٢٨.

(٢) أدب الحكمة في عصر صدر الإسلام: محمد سعيد الجبوري ٢٢٧، رسالة ماجستير.

(٣) لباب الآداب: ٦٣.

(٤) خصاصة: الفقر، مختار الصحاح: ١٣٨.

(٥) مانك: احتمل مؤونتك، المصدر نفسه: ٤٤٧.

ابتداك، وإن نزلت إحدى الملمَّات آساك»[(١)].

والملاحظ على هذه الوصية، زيادة في التنغيم الصوتي لاستخدام الموصي جملة الشرط مع حلية السجع في نظام فني متتابع.

و ــ التكرار:

يعد التكرار أحد العناصر المهمة في النص النثري، لأن له قيمة موسيقية مبعثها «الانسجام في تكرار الوحدات الجزئية المكونة للكل[(٢)]، والتكرار في التعبير الأدبي هو تناوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير بحيث تشكل نغماً موسيقياً يقصده الناظم في شعره ونثره»[(٣)].

واعتمد الموصون على التكرار لأهميته من الناحية الصوتية لأن «كل تكرار مهما كان نوعه يستفاد منه في زيادة النغم وتقوية الجرس»[(٤)]، مما يساعد على خلق جو نغمي خاص يرافق المعنى، لأن «الأصوات المكررة توحي بسبب صفاتها من حيث الجهر والهمس والشدة والرخاوة بالمعاني والصور؛ وذلك لما تثيره في خيال المتلقي من إيحاءات تعزز الدلالة في النص»[(٥)].

ومن صيغ التكرار الواردة في الوصايا، التكرار اللفظي، فقد ورد في وصية المأمون للمعتصم بترديد كلمة: اتقوا الله ثلاث مرات، وذلك لتأكيد المعنى، فهو الذي ساعد على التناغم الصوتي، وتقوية الجرس الموسيقي، كذلك تكررت لفظة: استغفر الله لنفس الغرض، ومما جاء فيها قوله:

«اتقوا الله ربكم حق تقاته ولا تموتن إلاَّ وأنتم مسلمون، اتقوا الله واعملوا له، اتقوا الله في أموركم كلها، أستودعكم الله ونفسي، وأستغفر الله مما سلف، وأستغفر الله مما كان مني. . .»[(٦)].

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٤.

(٢) جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي: ٢٩٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها: د. عبد الله الطيب ٢/ ٥٦٨.

(٥) البناء الفني لشعر الحب العذري: سناء حميد البياتي ١٥٣، أطروحة دكتوراه.

(٦) تأريخ الطبري: ٨/ ٦٥٠، خلاصة الذهب المسبوك: ٨٧.

وحفلت الوصايا الوعظية والزهدية بالتكرار اللفظي، لما له من تأثير نغمي يساعد على تقوية المعنى وإبرازه، وسرعة تأثيره في النفوس، وقد اتخذ التوحيدي أسلوب التكرار اللفظي بقصد التخويف والترهيب من عذاب الآخرة، ولتأكيد معناه وتقويته، فقد وردت الألفاظ المتشابهة عنده في نسق واحد؛ مما ساعد على تقوية جرسها، بهدف التأثير في نفس المتلقي... ومما جاء فيها، قوله:

«أيها الإنسان! تنّبه فقد طالت الرَّقدة، وانتعش، فقد استمررت في السَّقطة، واستأنس فقد أفرطت في الوحشة، وخذ حِذْرك فقد أحاطت بك الشّقوة، واسلك نفسك من نفسك تنج نفسك من نفسك لنفسك، فما بعد الفضيحة التي أنت عليها فضيحة، ولا بعد النصيحة التي تسمعها نصيحة»[1].

وهناك صيغ أخرى للتكرار تساعد على الإيقاع والتنغيم الصوتي، منها استعمال نون التوكيد التي تلحق عادة بالفعل... وهي من الصيغ التي تحقق نظاماً خاصاً عندما تتكرر بصورة متتالية؛ فتحقق نوعاً من الانسجام الصوتي، ذلك الذي له تأثيره في نفس المتلقي... ومن أمثلته، ما جاء في إحدى فقرات وصية طاهر بن الحسين لابنه، قوله:

«ولا تحقرنَّ ذنباً، ولا تمالئنَّ حاسداً، ولا ترحمنَّ فاجراً، ولا تصلنَّ كفوراً، ولا تداهننَّ عدواً، ولا تصدقنَّ نماماً، ولا تأمننَّ غداراً، ولا تواليَنَّ فاسقاً، ولا تتبعنَّ غاوياً، ولا تحمدنَّ مرائياً...»[2].

ويضفي السجع مع نون التوكيد إيقاعاً واتساقاً موسيقياً واضحاً، ومنه ما جاء في وصية رجل لابنه، يقول:

«يا بني لا تلاحينَّ حكيماً، ولا تحاورنَّ لجوجاً، ولا تعاشرنَّ ظلوماً، ولا تواخينَّ متهماً»[3].

---

(١) الإشارات الإلهية: ٢٢٠.

(٢) تأريخ بغداد: ابن طيفور ٢٣، تأريخ الطبري: ٩/ ٥٨٠، جمهرة خطب العرب: ٣/ ١٣٩.

(٣) أمالي القالي: ١/ ٣٨٨.

وكما نعلم، فإن صيغة اسم التفضيل يأتي في الجمل القصيرة المتتابعة والمتسارعة، ومن شأنه إحداث الإيقاع الصوتي الذي يساعد على التنغيم، ومن أمثلته ما جاء في وصية ذي النون المصري لبعض إخوانه:

«يا أخي، اعلم أنه لا شرف أعلى من الإسلام، ولا كرم أعز من التقى، ولا عقل أحرز من الورع، ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجّل من العافية، ولا وقاية أمنع من السلامة، ولا كنز أغنى من القنوع، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت»[١].

---

(١) اللمع: ٣٣٥.

الخاتمة

في نهاية المطاف لا بد من الوقوف على أهم النتائج التي وصلت إليها الباحثة في رحلتها الشاقة الطويلة، وهي نتائج كثيرة، على رأسها ما يأتي:

١ ـ تحديد مفهوم الوصية من خلال اللغة والمصطلح.

٢ ـ محاولة تحديد أنواع الوصايا وتصنيفها وفق الموضوعات التي طرقتها الباحثة، وتحديد الموضوعات التقليدية والمستحدثة، وتأكيد هوية الوصية في العصر العباسي، من خلال تأثرها بالموروث العربي والإسلامي.

٣ ـ وجدنا أن الوصايا تهدف إلى غايات تهذيبية وأخلاقية تقوّم السلوك وتحث إلى صالح الأعمال. كما وجدنا أن منشيء الوصية أشبه ما يكون بمصلح اجتماعي يسعى إلى إشاعة الفضيلة ونبذ الرذيلة.

٤ ـ أشرنا إلى موضوعات جديدة، ابتعدت عن الغايات التربوية والأخلاقية، مثل وصايا البخلاء والطفيليين، التي رجحنا إنشاءها لأجل التفكه والتظرف، الذي شاع في العصر العباسي، أو لتأثرها بالعادات والتقاليد الأجنبية.

٥ ـ رأينا أن الوصايا تصور جوانب شتى من حياة المجتمع العباسي، منها ما اتصل بالعلاقات الاجتماعية كالوصايا الإخوانية، ووصايا الآباء للأبناء، أو الوصايا المصورة لحالة الزهد والتصوف والمتمثلة في وصايا الوعاظ والمتصوفين، أو الوصايا المتعلقة بالحياة المادية والترف الحضاري كوصايا البخلاء والطفيليين، والوصايا المتعلقة بالحياة الثقافية كالوصايا الفنية، التعليمية منها والنقدية، وأخرى اتصلت بحياتهم السياسية والحربية وغيرها.

٦ ـ وجدنا أن الوصايا لم تقتصر على الأدباء، بل شارك فيها الخلفاء والأمراء والوعاظ فضلاً عن أناس لم يشتهروا في مجال الأدب.

٧ ـ لاحظنا أن الوصايا تنسب على العموم للرجال، إلا إذا ما استثنينا وصية زبيدة زوج الرشيد، وبعض الوصايا التي نسبت إلى بعض الأعرابيات.

٨ ـ وجدنا من مميزات الوصايا، أنها تصدر عن عواطف حقيقية صادقة فلم تكن بواعثها رسمية متكلفة، لا يجانب فيها الموصي الحقيقة لأنها مرتبطة بعلاقات واقعية مردها الحب والحرص والإخلاص.

٩ ـ توصلنا إلى أن الوصايا تتميز بأنها ذات إطار اجتماعي وإنساني واسعين، فهي تخاطب النفس البشرية من زوايا مختلفة، وتترك أثراً حسناً في النفوس، لذلك فهي تعد من الموضوعات النثرية الممتعة اللطيفة.

١٠ ـ لاحظنا توافر ظواهر بلاغية أهمها الفنون البديعية، إلا أنها لم تكن متكلفة أو تعتمد أسلوب الزخرفة والصنعة، بل جاءت طبيعية منسابة، في حين غلبت الصنعة والسجع والمحسنات البديعية على الوصايا الوعظية والصوفية بشكل خاص بهدف إحداث التأثير المناسب في نفس المتلقي، وجذبه إلى التقى وطريق الخير والرشاد.

١١ ـ من القضايا المهمة التي تميزت بها الوصايا الخطابية وهي من السمات الأسلوبية المتلائمة مع الهدف التأثيري للوصايا، وأشارت هذه النقطة إلى تغلب التقريرية على طائفة كبيرة من الوصايا، لاعتمادها على العقل والمنطق أكثر من اعتمادها على العاطفة.

١٢ ـ حددنا أن الموصي في الوصايا الأدبية يسعى إلى تحقيق الإبداع الفني من خلال الفعالية الذهنية التي تمتد إلى ثلاثة مصادر ـ كما يبدو لنا ـ وذلك من خلال ما يملكه الفنان من الأطر الفنية، وانبثاق النموذج عن تجربة آنية أو تعبيراً عن آثار نفسية وعن قدرة الفنان الفردية في تطوير الصيغة التراثية.

١٣ ـ لاحظنا تميز الوصايا بالإبانة والوضوح الذي من وسائله استعمال الجمل القصيرة، والألفاظ المألوفة، والمعاني القريبة، والترتيب المنطقي في التفكير، والوحدة الموضوعية، وتقدير القيمة لأجزاء الموضوع.

١٤ ـ عبرت الوصايا عن الانبثاق من التراث، أو ما يسمى بالتناص، وذلك من خلال الاقتباس والتضمين والتقليد، فقد وجدنا حضور بعض السياقات القرآنية، وذلك باقتباس بعض الكلمات من السياق القرآني أو اقتباس الآية والآيتين، واقتباس نسق الصورة أو الاقتباس من القرآن والحديث معاً، وكذلك تضمين الوصايا للأشعار والأمثال والحكم، وتقليد الأقدمين ومحاكاة موقف الموصى إليهم، أو عن طريق الأخذ بين التقليد والإضافة. . . فالتقليد كان من ناحية الحفاظ على التقاليد والمثل العربية الأصيلة.

١٥ ـ اهتمت الوصايا بالتشكيل الجمالي، ومنه التشكيل البلاغي مثال ذلك: التجنيس والمطابقة والتضاد، كما اهتمت بالتشكيل اللغوي، فقد وردت الوصايا على شكل فقرات قصيرة متتالية ترتبط مع بعضها من خلال الوحدة الموضوعية، والتشكيل الصوري كالتهويل والترهيب وتجسيد الصورة وتجسيمها، وكذلك من خلال استخدام الصيغة الطلبية كالنداء، والخطاب، والأمر، والنهي، كما وجدناها قد اهتمت بالتشكيل الموسيقي من خلال الإيقاع والتنغيم الصوتي.

١٦ ـ أما الوصايا ومقتضى الأخلاق فقد عبرت الوصايا عن التزامها بالجانب الأخلاقي كأساس لها في الإرشاد والنصح والتوجيه، واهتمامها بالجوانب السلوكية والتربوية والتعليمية وتوجيه الأفراد نحو الفضائل الأخلاقية والمثل العليا.

١٧ ـ أما بناء الوصية بين التقليد والتجديد فقد سعى البحث إلى دراسة أغراضها ومعانيها وإيقاعها ووجدنا أن الوصايا قد تأثرت بالموروث العربي القديم، أكثر من تأثرها بالانفتاح الحضاري في هذا العصر، وإذا

كان هناك تجديد في بعض الموضوعات، فهو قد اتصل بالحياة المادية أو بالمظاهر الشكلية فحسب.

وأخيراً، سعى البحث إلى محاولة تحديد ملامح تفرد أسلوب الوصايا، وإبراز وتحليل الظواهر الفنية فيها.

ثبت بالمصادر والمراجع

المصادر:

* **القرآن الكريم.**
* **آثار ابن المقفع: (عبد الله بن المقفع ت ١٤٥ هـ)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٨م.**
* **أحسن ما سمعت:** (أبو منصور الثعالبي، ت ٤٢٩هـ) مطبعة الجمهور، دار الآثار العربية، الكتبخانة الخديوية، مصر ١٣٢٤هـ.
* **الأحكام السلطانية:** (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب النصيري البغدادي المعروف بالماوردي ت ٤٥٠هـ)، تحقيق محمد جاسم الحديثي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٩م.
* **الأخبار الموفقيات:** (الزبير بن بكار، ت ٢٥٦هـ) تحقيق د. سامي مكي العاني، مط العاني، بغداد، ١٩٧٢م.
* **أدب الدنيا والدين:** (الماوردي) تحقيق محمد جاسم الحديثي، المطبعة الأميرية، ط ١، القاهرة، ١٩٦٥م.
* **أدب الكاتب:** (ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن سلم الكوفي المروزي الدينوري ت ٢٧٦هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع محب الدين الخطيب، مطبعة السعادة، ط ٤، مصر، ١٩٦٣م.
* **أدب الوزير (المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك):** (الماوردي) تحقيق ودراسة محمد سليمان داود ود. فؤاد عبد المنعم أحمد، مطبعة مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، د.ت.
* **الإشارات الإلٰهية:** (أبو حيان التوحيدي ت ٤٠٠هـ) تحقيق عبد الرحمٰن بدوي، مطبعة جامعة فؤاد الأول، مصر ١٩٥٠م.
* **إعجاز القرآن:** (أبو بكر محمد الطيب الباقلاني ت ٤٠٣هـ) تحقيق السيد

أحمد صقر، دار المعارف، مصر ١٩٧١م.

* **الأغاني**: (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الأموي الأصفهاني ت ٣٥٦هـ)، طبع دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٥م.

* **الإمتاع والمؤانسة**: (أبو حيان التوحيدي) صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

* **الأمالي**: (أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ت ٣٥٦هـ) مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٤م.

* **أمالي اليزيدي**: (أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي ت ٣١٠هـ) مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٩٤٨م.

* **الإمامة والسياسة**: (ابن قتيبة الدينوري) تحقيق د. طٰه محمد الزين، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، النجف، ١٩٦٧م.

* **الإيضاح في علوم البلاغة**: (محمد عبد الرحمٰن المعروف بالخطيب القزويني ت ٧٣٩هـ) مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

* **أيها الولد**: (حجة الإسلام محمد بن محمد أبو حامد الغزالي ت ٥٠٥هـ) تحقيق علي محيي الدين القرة داغي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٥م.

* **البخلاء**: (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت ٢٥٥هـ) تحقيق طٰه الحاجري، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.

* **البداية والنهاية في التاريخ**: (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ت ٧٧٤هـ) مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣٢م.

* **البصائر والذخائر**: (أبو حيان التوحيدي) تحقيق إبراهيم الكيلاني، مكتبة أطلس، ومطبعة الإنشاد، دمشق، ١٩٦٤م.

* **بهجة المجالس وأنس المجالس**: (الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله محمد ابن عبد البر القرطبي ت ٤٦٣هـ) تحقيق محمد مرسي الخولي، مراجعة عبد القادر القط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، د.ت.

* **البيان والتبيين**: (الجاحظ) تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط٥، مصر، ١٩٧٥م.

* **تأريخ بغداد:** (أحمد بن طاهر ابن طيفور ت ٢٨٠هـ) عني بنشره عزت العطار الحسيني، مكتبة المثنى، بغداد، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٨م.
* **تأريخ الخلفاء:** (جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي ت ٩١١هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٣، القاهرة، ١٩٦٦م.
* **تأريخ اليعقوبي:** (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي ت ٢٨٤هـ) قدم له محمد صادق بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٤م.
* **التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن:** (عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الأنصاري الزملكاني ت ٦٥١هـ) تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤م.
* **تحف العقول عن آل الرسول:** (أبو محمد بن شعبة الحراني) المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٩٦٣م.
* **تحفة الوزراء:** (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ت ٤٢٩هـ) تحقيق د. ابتسام مرهون الصفار، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٧م.
* **تذكرة الحفاظ:** الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي ت ٧٢٨هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ـ الهند، ١٩٦٨م.
* **التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم:** (للحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، ت ٤٦٣هـ) قدم له وعلق عليه كاظم المظفر، منشورات مكتبة الحيدرية، ومطبعة النجف، ١٩٦٦م.
* **التلخيص في علوم البلاغة:** (للإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمٰن القزويني، الخطيب ت ٧٣٩هـ) ضبطه وشرحه عبد الرحمٰن البرقوقي، المكتبة التجارية الكبرى، ط ١، مصر، ١٩٠٤م.
* **تهذيب التهذيب:** (الإمام الحافظ أبو الفضل أحمد علي بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ) مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، ط ١، الهند، (١٣٢٧هـ).

* **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي**: (للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني) حققها وعلق عليها محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، د.ت.

* **جمع الجواهر في المِلح والنوادر**: (أبو إسحاق بن علي الحصري القيرواني ت ٤٥٣هـ) تحقيق محمد علي البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ١، القاهرة، ١٩٥٣م.

* **جمهرة اللغة**: (لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري ت ٣٢١هـ)، طبعة بالأوفست، دار صادر، بيروت.

* **حاشية ردّ المحتار على الدر المختار**: (محمد أمين بن عابدين ت ١٢٥٢هـ) دار الفكر، الرياض، ١٩٧٩م.

* **حسن التوسل إلى صناعة الترسل**: (شهاب الدين محمود الحلبي ت ٧٢٥هـ) تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، سلسلة كتب التراث ٨٦، بغداد، ١٩٨٠م.

* **الحكمة الخالدة (جاويدان خرد)**: (أبو علي أحمد بن محمد مسكويه ت ٤٢١هـ) تحقيق عبد الرحمٰن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، ط ١، القاهرة، ١٩٥٢م.

* **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**: (للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ت ٤٣٠هـ) مطبعة السعادة، مصر، ١٩٣٧م.

* **خلاصة الذهب المسبوك في مختصر سير السلوك**: (عبد الرحمٰن سنبط قنيتو الإربلي ت ٧١٧هـ) مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.

* **الدرة اليتيمة**: (عبد الله بن المقفع) مع الترجمة الكاملة، قدم لها وضبطها وشرحها أحمد رفعت البدراوي، دار النجاح، بيروت، ١٩٧٤م.

* **ديوان ابن الرومي ت ٢٨٣هـ**: (شرح الشيخ محمد شريف سليم) مطبعة الهلال بالفجالة، مصر، ١٩١٩م.

* **رسائل الجاحظ**: (الجاحظ) تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤م.

* **رسالة الأخلاق**: (الإمام ابن حزم الأندلسي ت ٦٨٤هـ) سلسلة الثقافة الإسلامية، رقم ٣٤، القاهرة، ١٩٦٢م.

* **رسالة الصداقة والصديق**: (أبو حيان التوحيدي) تحقيق إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٤م.

* **الرسالة العذراء**: (إبراهيم بن المدبر ت ٢٧٩هـ) تحقيق زكي مبارك، مطبعة دار الكتب المصرية، ط ٢، القاهرة، ١٩٣١م.

* **الرسالة القشيرية**: (الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري الشافعي، ت ٤٦٧هـ)، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط١، مصر، ١٩٤٠م.

* **روضة العقلاء ونزهة الفضلاء**: (الإمام الحافظ أبو حاتم محمد بن حيان البستي ت ٣٥٤هـ) تحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، مصر، ١٩٥٥م.

* **زهر الآداب وثمر الألباب**: (أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ت ٤٥٣هـ) تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٩م.

* **سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام**: (محمد الأمير محمد بن إسماعيل بن صلاح الكحلاني الصنعاني، ت ١١٨٢م)، مط مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٨م، وطبعة أخرى، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٠م.

* **سر الفصاحة**: (أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، ت ٤٦٦هـ) شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد صبيح وأولاده، القاهرة، ١٩٦٩م).

* **سنن النسائي**: (شرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٣٠م.

* **السيرة النبوية**: (ابن هشام ت ٢١٣هـ) شرحها السقا والأبياري والشلبي، مطبعة البابي الحلبي، ط٢، مصر، ١٩٥٥م.

* **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**: (ابن العماد الحنبلي أبو الفلاح عبد الحي ت ١٠٨٩هـ) نشر مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٠هـ.

* **شرح مقامات الحريري**: (للإمام الشيخ العلامة أبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي ت ٦٢٠هـ) أشرف على نشره وطبعه وتصحيحه محمد عبد المنعم خفاجي، ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد محمد حنفي، ط١، مصر، ١٩٥٢م.

* **شرح نهج البلاغة**: (عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد ت ٦٥٦هـ) تحقيق الشيخ حسن تميم، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٣م.

* **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: (أحمد بن عبد الله القلقشندي ت ٨١٢هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

* **صحيح مسلم**: (مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري ت ٢٦١هـ) كتاب الشعب، القاهرة، د.ت.

* **صفة الصفوة**: (جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي، ت ٥٩٧هـ) تحقيق محمود فاخوري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.

* **الصناعتين، الكتابة والشعر**: (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ت ٣٩٥هـ) تحقيق علي محمد البجاوي ود. محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٢، مصر، ١٩٧١م.

* **العقد الفريد**: (أبو أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، ت ٣٢٧هـ) شرحه وضبطه أحمد أمين وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر ١٩٥٦م، وطبعة دار مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٦م.

* **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**: (أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي ت ٤٥٦هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٣م.

* **عهد أردشير**: (تحقيق إحسان عباس) دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م.

* **عيار الشعر**: (محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، ت ٣٢٢هـ) تحقيق د. طٰه

الحاجري ود. محمد زغلول سلام، مطبعة التقدم، الإسكندرية، ١٩٧٧م.

* **العين**: (الخليل بن أحمد الفراهيدي ت ١٧٥هـ) تحقيق د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٧م، ومطبعة الرشيد بغداد، ١٩٨١م.

* **عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة**: (أبو الحسن علي بن عبد الرحمٰن بن هذيل الأندلسي، وفاته بعد ٧٦٣هـ) دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ١٩٨٥م.

* **عيون الأخبار**: (ابن قتيبة الدينوري) نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، مطبعة مصر، ١٩٦٤م، وطبعة أخرى بالمؤسسة المصرية للتأليف والطباعة والنشر، د.ت.

* **غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب**: (محمد السفاريني الحنبلي، ت ١١٨٨هـ) مطبعة الحكومة، مكة، ١٩٧١م.

* **الفاضل في صفة الأدب الكامل**: (أبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء، ت ٣٢٥هـ) تحقيق يوسف يعقوب مسكوني، جمعه ووضع فهارسه حكمت رحماني، منشورات وزارة الأعلام، سلسلة كتب التراث ٥٢، العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٧م.

* **الفخري في الآداب السلطانية**: (محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي ت ٧١٩هـ) دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م.

* **الفرج بعد الشدة**: (أبو علي الحسن بن علي بن محمد التنوخي، ت ٣٨٤هـ) تحقيق عبود الشالجي، بيروت، ١٩٧٨م.

* **الفلك الدائر على المثل السائر**: (ابن أبي حديد) تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مطبعة الرسالة، ط١، مصر، ١٩٦٢م.

* **القاموس المحيط**: (محب الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ت ٧٢٩-٨١٧هـ) مطبعة السعادة، مصر، ١٩١٣م.

* **الكامل في التاريخ**: (أبو الحسن بن علي أبو أكرم محمد بن عبد الكريم بن الأثير ت ٦٣٠هـ) راجعه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٩٨٧م.

* **كتاب الخراج**: (أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، ت ١٨٢هـ) المطبعة السلفية، ط ٢، القاهرة، ١٩٣٣م.

* **كشاف القناع عن متن الإقناع**: (منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، ت ١٠٥١هـ) مكتبة النصر الحديثة، الرياض، د.ت.

* **لباب الآداب**: (أسامة بن منقذ، ت ٥٨٤هـ) مطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٣٥م.

* **لسان العرب**: (جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأنصاري ت ٧١١هـ) مطبعة بيروت، دار صادر، ١٩٥٦م.

* **اللمع**: (أبو نصر السراج الطوسي ت ٣٧٨هـ) حققه وقدم له د. عبد الحليم محمود وطٰه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر، ١٩٦٠م.

* **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**: (ضياء الدين ابن الأثير، ت ٦٣٧هـ) قدمه وحققه وعلق عليه د. أحمد الحوفي وبدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، ط ١، مصر، ١٩٦٢م.

* **مجمع الأمثال**: (أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد النيسابوري الميداني ت ٥١٨هـ) حققه وفصله وضبط غرائبه محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، مصر، ١٩٥٥م.

* **المجموعة الكاملة ـ الأدب الكبير والأدب الصغير ورسالة الصحابة**: (عبد الله ابن المقفع) منشورات دار البيان ودار القاموس الحديث، بيروت، ط ٣، ١٩٦٤م، ط ٤، ١٩٦٥م.

* **المحاسن والمساوىء**: (إبراهيم بن محمد البيهقي ت ٤٥٨هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، مصر، ١٩٥٨م.

* **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء**: (أبو القاسم محمد الراغب الأصبهاني، ت ٥٠٢هـ) المطبعة العامة، القاهرة، ١٩٠٨م.

* **محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار**: (محيي الدين بن عربي، ت ٥٦٠هـ) دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، د.ت.

* **مختار الحكم ومحاسن الكلم**: (أبو الوفاء مبشر بن فاتك، ت نحو ٥٠٠هـ) مطبعة العهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٨م.
* **مختار الصحاح**: (الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، ت ٦٦٦هـ)، المكتبة الأموية، ط ١، بيروت، ١٩٧٢م.
* **المدهش**: (أبو الفرج جمال الدين علي بن محمد بن جعفر الجوزي)، المؤسسة العالمية، بيروت، ١٩٧٣م.
* **مروج الذهب ومعادن الجوهر**: (أبو الحسن بن الحسين المسعودي، ت ٣٤٥هـ) دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م.
* **المستطرف في كل فن مستظرف**: (شهاب الدين محمد بن أحمد بن أبي الفتح الأبشيهي. ت ٨٥٠هـ) دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٥٢م.
* **مسند الإمام أحمد بن حنبل**: (أحمد بن حنبل، ت ٢٤١هـ) المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دار صادر، بيروت، د.ت.
* **المصباح المضي في خلافة المستضيء**: (أبو الفرج عبد الرحمٰن علي ابن الجوزي) تحقيق د. ناجية عبد الله إبراهيم، مطبعة الشعب، بغداد، ١٩٧٧م.
* **معجم مقاييس اللغة**: (أبو الحسن بن فارس بن زكريا، ت ٣١٥هـ) دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٢م.
* **المعمرون والوصايا**: (أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني، ت ٣١٥هـ) تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، مصر، د.ت.
* **مفتاح العلوم**: (أبو يعقوب يوسف السكاكي ت ٦٥٦هـ) طبع مصر، ١٣١٧هـ).
* **مقامات بديع الزمان الهمذاني**: (بديع الزمان أحمد بن الحسين الهمذاني ت ٣٩٨هـ) تقديم العلامة الشيخ محمد عبدة: دار الشرق، ط ٧، بيروت، ١٩٨٦م.
* **مقدمة ابن خلدون لكتاب العبر أو ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**: (العلامة عبد

الرحمٰن بن خلدون المغربي، ت ٨٠٨هـ) شركة الإعلانات الشرقية، مؤسسة الطباعة لدار التحرير للطبع والنشر، القاهرة، د.ت.

* **ملوك حمير وأقيال اليمن**: (قصيدة نشوان بن سعيد الحميري، ت٥٧٣هـ) وشرحها المسمى خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة): حققها وعلق عليها علي بن إسماعيل المؤيد وإسماعيل بن أحمد الجرافي، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٧٨هـ.

* **المنتظم في تأريخ الملوك والأمم**: (عبد الرحمٰن ابن الجوزي، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر آباد ـ الهند، ١٣٥٧هـ.

* **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: (جمال الدين أبو المحاسن ابن تغري بردى الأتابكي، ت ٨٧٤هـ) نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية، ١٩٦٣م.

* **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**: (أبو البركات كمال الدين عبد الرحمٰن بن محمد الأنباري، ولادته ٥١٦هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٧م.

* **نصيحة الملوك**: (الماوردي) تحقيق محمد جاسم الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٨٢م، وطبعة ثانية دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والأعلام، بغداد، ١٩٨٦م.

* **نقد النثر**: (أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب، ت ٣٧٧هـ) تحقيق الدكتور طٰه حسين وعبد الحميد العبادي، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٣م.

* **نهاية الأرب في فنون الأدب**: (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، ت ٧٣٢هـ) مطابع كوستاتوماس وشركاه، د.ت.

* **نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار**: (محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ت ١٢٥٥هـ) دار الفكر، بيروت، د.ت.

* **الوزراء والكتاب**: (أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري، ت ٣٣١هـ) تحقيق مصطفى السقا، ود. إبراهيم الأبياري، وعبد الحافظ شلبي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨م.

* **الوساطة بين المتنبي وخصومه**: (القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، ت ٣٦٦هـ) دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ٢، مصر، ١٩٥١م.
* **وفيات الأعيان وأنباء الزمان**: (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، ت ٦٨١هـ) تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م.
* **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**: (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، ت ٤٢٩هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧٧هـ.

المراجع:

* **اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري**: محمد مصطفى هدارة، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م.
* **اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري**: د. منصور عبد الرحمٰن، القاهرة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
* **أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث**: توفيق الزيدي، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤م.
* **أساليب النثر الفني**: لطيف محمد العكام، مط الآداب، النجف، ١٩٧٤م.
* **الأسس الجمالية في النقد الأدبي**: د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط ١، القاهرة، ١٩٥٥م.
* **الأسلوب**: أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٩٤٥م.
* **ألقاب الخلفاء ودلالتها الدينية والسياسية**: د. فاروق عمر فوزي، مجلة كلية الآداب ـ جامعة بغداد، العدد ٣ لسنة ١٩٧٠م.
* **أمراء البيان**: محمد كرد علي، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.
* **بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية**: د. مصطفى الشكعة، مكتبة القاهرة، دار الحمامي للطباعة، مصر، ١٩٥٩م.

* **البلاغة العربية**: د. أحمد مطلوب، ط ١، بغداد، ١٩٨٠م.

* **بلاغة الكتاب في العصر العباسي**: د. محمد نبيه حجاب، المطبعة الفنية الحديثة، مصر، ١٩٦٥م.

* **البلاغة والأسلوبية**: د. محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٤م.

* **بناء الصورة الفنية في البيان العربي**: د. كامل محمد البصير، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤٠٧هـ« ١٩٨٧م.

* **تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي**: د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط ٣، مصر، د.ت.

* **التركيب اللغوي للأدب**: د. لطفي عبد البديع، مكتبة النهضة المصرية، ط ١، القاهرة، ١٩٧١م.

* **تشريح النص**: عبد الله محمد الغذامي، ط ١، بيروت، ١٩٨٧م.

* **التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق**: د. زكي مبارك، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت، د.ت.

* **التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول**: د. مجاهد مصطفى بهجت، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، ١٩٨٢م.

* **الجذور التاريخية للوزارة العباسية**: د. فاروق عمر فوزي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٨م.

* **جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاخرة**: أحمد زكي صفوت، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، بيروت، ١٩٨٥م.

* **جمهرة رسائل العرب**: أحمد زكي صفوت، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت.

* **جمهرة وصايا العرب**: محمد نايف الدليمي، دار النضال، بيروت، ١٩٩٠م.

* **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب**: السيد أحمد الهاشمي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٦٥م.

* **الحركة الفكرية في فلسطين المحتلة**: د. صالح أبو أصبع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، بيروت، ١٩٧٧م.

* **الخطابة في صدر الإسلام**: د. محمد طاهر درويش، دار المعارف، مصر، ١٩٦٥م.

* **دراسات في علم النفس الأدبي**: د. حامد عبد القادر، لجنة البيان العربي، المطبعة النموذجية، القاهرة، ١٩٤٧م.

* **رسائل البلغاء**: محمد كرد علي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٢، القاهرة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م.

* **سياسة المنصور أبي جعفر الداخلية والخارجية**: حسن فاضل زعين العاني، دار الرشيد للنشر، سلسلة دراسات ٢٥٧، بغداد، ١٩٨١م.

* **الشعر كيف نفهمه ونتذوقه**: اليزابيث دور، ترجمة د. أحمد إبراهيم الشوش، منشورات دار ميمنة، بيروت، ١٩٦١م.

* **الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية**: د. حسين عطوان، مكتبة المحتسب، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م.

* **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**: د. عبد القادر الرباعي، شركة المطابع النموذجية، ١٩٨٠م.

* **طبيعة الدعوة العباسية**: د. فاروق عمر فوزي، مكتبة الفكر العربي للنشر والتوزيع بغداد، ١٩٨٧م.

* **العباسيون الأوائل**: د. فاروق عمر فوزي، ساعدت جامعة بغداد على طبعه، بغداد، ١٩٧٢م.

* **عصر المأمون**: د. أحمد فريد رفاعي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م.

* **علم اللغة العام**: فردينال دي سوسور، ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز، ود. مالك المطلبي، دار آفاق عربية، بغداد، ١٩٨٥م.

* **الفكر التربوي عند ابن المقفع ـ الجاحظ ـ عبد الحميد الكاتب**: د. عبد الأمير شمس الدين، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٥م.

* **الفكر التربوي عند الغزالي**: د. عبد الغني عبود، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٢م.
* **الفن ومذاهبه في النثر العربي**: د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠م.
* **في التاريخ العباسي والأندلسي**: أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية، ١٩٧٢م.
* **في نقد النثر وأساليبه**: د. عصام الخطيب، ود. توفيق عزيز عبد الله، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة الموسوعة الصغيرة ٢١٨، بغداد، ١٩٧٨م.
* **الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية**: د. حسين ناعسة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٨م.
* **اللغة والمعنى والسياق**: جون لاينز، ترجمة د. عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م.
* **المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتهم**: د. عبد الله الطيب المجذوب، ط ١، مصر، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.
* **المعجم الأدبي**: جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٨م.
* **معجم متن اللغة**: الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.
* **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**: د. أحمد مطلوب، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م. الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م.
* **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**: مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٩م.
* **من تأريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الأول**: د. طٰه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٦م.
* **النثر الفني وأثر الجاحظ فيه**: د. عبد الحكيم بلبع، مكتبة وهبة، مصر، ١٩٧٥م.

* **النظرية النقدية عند العرب حتى نهاية القرن الرابع الهجري**: د. هند حسين طٰه، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة دراسات، بغداد، ١٩٨١م.
* **النقد الأدبي ـ أصوله ومناهجه**: سيد قطب، دار الفكر العربي، دار الحمامي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م.
* **النقد الأدبي الحديث**: د. محمد غنيمي هلال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م.
* **النقد الأدبي عند العرب**: محمد طاهر درويش، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.
* **النقد التطبيقي والموازنات**: د. محمد الصادق عفيفي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٨م.
* **نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة**: د. نبيلة إبراهيم سالم، النادي الأدبي، الرياض ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
* **الوصايا في الأدب العربي القديم**: د. سهام الفريح، طبع مطبعة المعلا، الكويت، ١٩٨٨م.

المخطوطات:

* **أنساب الأشراف**: (أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ت٢٧٩هـ) مكتبة الدراسات العليا، جامعة بغداد، رقم ١٦٣٧، مصور عن نسخة الدار البيضاء، الرباط، رقم ٦٨.

الرسائل الجامعية:

* **أثر الوعظ والوعاظ في القرن السادس الهجري في الحياة السياسية والاجتماعية**: جهاد عبد الرحمٰن العلواني، رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة، كلية الآداب/ جامعة بغداد، ١٩٨٩م.
* **الإخوانيات في شعر العصر العباسي الأول**: رمضان صالح عباد الجبوري، رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة، كلية التربية/ جامعة بغداد، ١٩٨٩م.
* **أدب الحكمة في عصر الإسلام**: محمد سعيد حسن الجبوري، رسالة

ماجستير مطبوعة على الألة الكاتبة، كلية التربية/ جامعة بغداد، ١٩٨٩م.

* **أدب الوصايا في العصرين الراشدي والأموي**: إنعام داود سلوم، أطروحة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة، كلية الآداب/ جامعة بغداد، ١٩٩٥م.

* **الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية**: مجيد عبد الحميد ناجي، أطروحة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة، كلية دار العلوم/ جامعة القاهرة، ١٩٧٨م.

* **البناء الفني في شعر الحب العذري**: سناء حميد البياتي، أطروحة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة، كلية الآداب/ جامعة بغداد، ١٩٨٩م.

* **جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب**: ماهر مهدي هلال، أطروحة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة، كلية الآداب/ جامعة بغداد، ١٩٧٨م.

* **الشعر في الكوفة في أواسط القرن الثاني حتى نهاية القرن الثالث الهجري**: محمد حسن الأعرجي، رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة، كلية الآداب/ جامعة بغداد، ١٩٨٣م.

* **الشعر والشعراء في البصرة خلال القرن الثالث الهجري**: أحمد جاسم النجدي، رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة، كلية الآداب/ جامعة بغداد، ١٩٧٢م.

* **الفكر التربوي في وصايا الخلفاء العباسيين**: نوال إبراهيم محمد، أطروحة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة، كلية التربية/ جامعة بغداد، ١٩٩٥م.

* **النثر الصوفي في الأدب العربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري**: فائز طٰه عمر، أطروحة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة، كلية الآداب/ جامعة بغداد، ١٩٩٠م.

* **النثر الفني عند أبي حيان التوحيدي**: فائز طٰه عمر، رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة، كلية الآداب/ جامعة بغداد، ١٩٨٣م.

فهرس الوصايا

فهرس الأعلام

- الألف -

- الباء -

- الجيم -

- الحاء -

- الخاء -



فهرس المحتويات

الفصل الأول: الوصايا وأنواعها